

في جاهليتها وإسلامها

ألفه

عبد الله عفيفي

محرر عربي في ديوان جلالة الملك

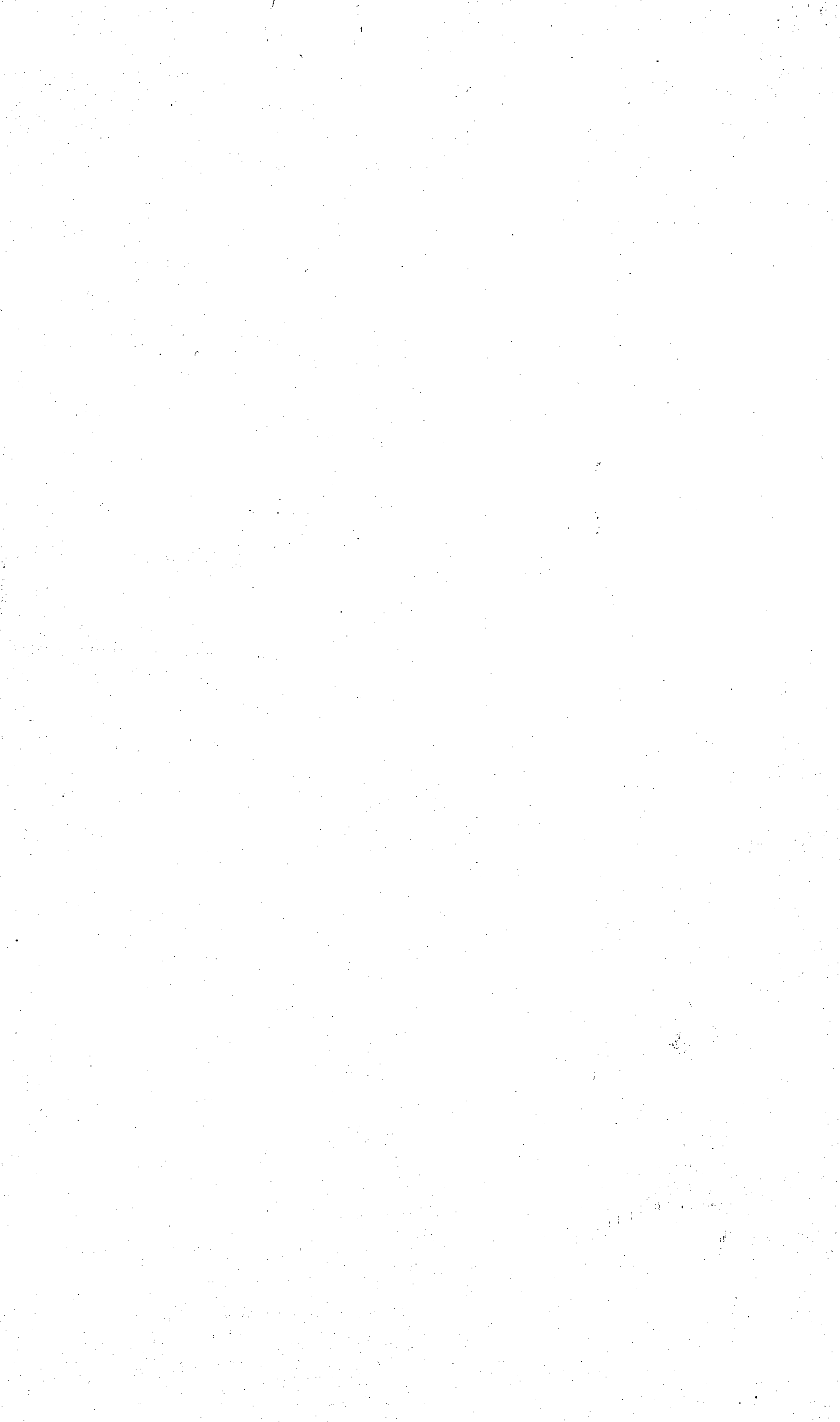
الجزء الأول

(الطبعة الثانية) ١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م

يطلب من

مكتبة الثقافة

المدينة المنورة — المملكة العربية السعودية



تقديمُ الكتاب

إلى حَضْرة صَاحِبَة العظمة الملكة نازلى

مَوْلاَتى

زَادكِ الله جلالاً وإقبالاً ، تِلك صفحة منَ الحيَاةِ الخالدة ذهبت المرأة العربيَّة بوحى آيتهَا وَنهجُ سُنَّتهَا فتجلّت على الدّهْر نوراً رائعاً وَجمالاً وَضَّاحا

تِلكَ هِىَ المرأة التى انحسرَت عَن غيوث الأرْض وَلُيوث الحِمى . وَتكشَّفَتْ عنْ حُرّ الخصَال وَغُرّ الخلاَل ، وَتعالتْ عنْ منازع الوَهَن وَنوازع الفِتَن ، وَضربَت الحجَّة البَالغة على أنّ المرأة إذا اعْتزمَتْ لا تقْصّر عنْ مَدَى الرّجل فى مَضَاء الرأى ، وَذكاء القَلب ، وَسَنَاء العَمل ، وَابْتنَاء العظَائم

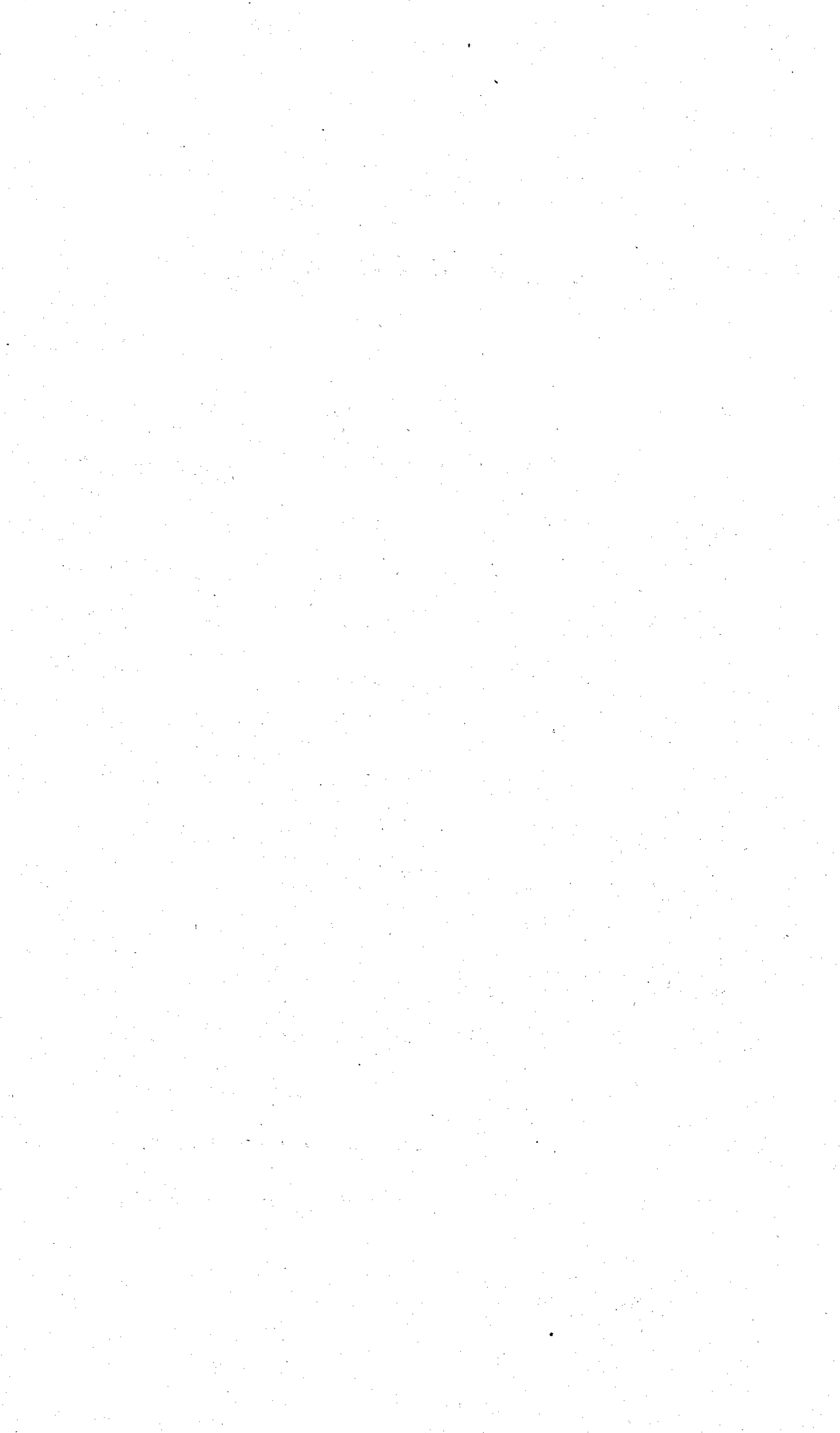
ذَلك يا ذَات العظَمة حَديثُ الكمَال المطلَق وَالخير الصَّريح . أنشُرهُ بين يدَىْ عصركِ الأغرّ ، وَأرفعهُ إلى سُدّتك الزّهراء ، فى وَقتٍ بدَأتْ المرأة المصرية تكسر أغلاَل الرّق ، وَتخلعُ أسْمَال الخمول ، وتنزع أشراكَ العوائق ، وتجاذبُ الرّجَال حبَالَ الآمال ، وَلها من نفسكِ الزَّكيَّة وَرُوحِك العليَّة ، وَحْىٌ وإلهام وَقُدوَة وإمَام

فاليك يا رَبيبَة المجد الكريم ، وَرَبَّة البيتِ العَظيم . أستَشْرفُ بذلك الكتابِ الذى أتوّجُه باسمك ، وَأجمِّله بشرَف النسبَة إليك ، وَلى الفخر الأتم أنْ ينال شَرف المثول ، وَفضْل القبُول

أجمَل اللهُ رعَايَتك ، وَأتمّ نعمتهُ عليك ، وَأقرّ بالفارُوق عينَيْك ، وَأمدّ لكِ فى ظلّ صَاحب مصر أيّد الله دَوْلته ، وأعلَى كلمتهُ ، وَأعزّ بسَعيه رَعيَّتَه ، آمين

العبد الخاضع

عبد الله عفيفى



بسم الله الرحمن الرحيم

اللّهُمّ باسمك نَعتزِم وبِرُكْنِك نَعتَصِم وبِحَوْلك نَستدفع الوَهَن ونَسْتعدِى على الزمن سبحانك لا نحصى ثناءً عليك ، لك الحمد فى الأُولى والآخرة انك أنت مُلْهِمُ القول ووَلِىُّ التوفيق

مقدمة

فى سبيل المرأة

(١)

ماضينا وحاضرنا

نحن ننزِع الى الكمال لأن لنا فيه نسباً عريقاً ، وطريقاً عميقاً[١] اذا انثنى عِطف[٢] الزمان ، فنحن مطلَع فجره ، ومبعَث فخره أو التبست عُقَد العظائم ، فنحن حُماة شِرْعتها[٣] ، وكُماة حَوْمتها[٤] بنا استحصفت مِرَّةُ المجد[٥] واستشرفت ذروته[٦] . ولنا عُقد لواؤه ، وتأثَّل بناؤه[٧] فاذا ابتغينا الحياة سنيّةً ، وابتعثنا الأمل جَنِيًّا ، فلسنا بُغاة نَصَفَة[٨] ، ولا عُفَاة معدَلَة[٩] ، وإنما هو ميراث سُلِبناه فى غَفْوة الليل[١٠] ، وغَلَس الظلام[١١] ، فنحن ننزِع عنه شَرَك العوائق ، ونرد دونه كيد الخطوب

---

(١) طريق عميق بعيد المدى (٢) عطف الرجل جانبه وثنى عطفه أعرض أو اختال
(٣) الشرعة السبيل \ (٤) الكمى البطل المدجج بالسلاح وحومة القتال أشد مواضعه
(٥) استحصف اشتد والمرة القوة (٦) استشرف رفع رأسه وبصره وذروة الشيء أعلاه
(٧) تمائل البناء تأصل (٨) النصفة الانصاف (٩) العفاة — جمع عاف — طلاب المعروف والمعدلة العدل (١٠) الغفوة النومة الخفيفة (١١) الغلس ظلام آخر الليل

تلك صفحة من صفحات تاريخنا الذى نعتزّ به ، ونطرب له ، ونستنشى الرجاء منه[١] ، ولعلها أحفل الصفحات بالعِظات ، وأجمعها للعظائم ، وآهَلها بنُبل الْخُلق ، وسناء الحياة

تلك هى حياة المرأة العربية فى جاهليتها واسلامها ، حياةُ العظمة الوادعة الرائعة ، والنفس الأبية النقية

تلك هى المرأة التى يحدّث عنها المؤرخ المُنقِّر[٢] الانجليزى العظيم (كلاى Clay) — مما استَشَفَّه من أطلال بابل — أنها كانت منذ أربعة وأربعين قرناً تجاذب الرجل سياسة الأمة ، ووِلَاية الأمر ، وجِدَّ العمل ، وشُئُون الحياة

تلك هى المرأة التى وثب بها الإسلام ووثبت به ، وكان أثرها فى تكوين رجاله ، وتصريف حوادثه ، أشبهَ ما يكون بأثر الغدير الهادئ الفياض فى زَهْر الرياض .

يريد نساؤنا أن ينهضْنَ ، فهن يبتغين الوسائل ويَتَلَمَّسْنَ الخطى . وما لهن لا ينهضن ؟ ومنذا يذودهن عما شرع الله لهن ؟ وهل هن إلا منابت حُماتنا ، واساةُ جراحنا ، وبُناةُ دولتنا ، ومَنَار دعوتنا ، ومَثَار قوتنا ؟ وهل نحن وإياهن الا كجناحى النَّسر الصاعد اذا هيض أحدهما خُفِض الآخر فيصبح لا يجد فى الأرض مَقعَداً ولا فى السماء مَصعَداً ؟

لينهض النساء ما شئن أن ينهضن ، ففى نهوضهن نهوضنا ، وبلوغ غايتنا ؛ ولكن ليحذر الآخذون بيدها والدعوان إلى نهوضها التواء القصد ، والتباس[٣] الطريق فينالها الزلل وتَلِجُ بها العثرات حتى يقول قوم لقد كان ما كانت فيه خيراً وأبقى

---

(١) استنشى اريج شمه (٢) المنقر الباحث المنقب (٣) التبس الطريق اختلط بعضه ببعض

ألا وان من الْتِواء القصد، وضلال الطريق، أن ندع نساءنا يتخذن من المرأة الأوربية مثالاً يحتذينه، ويُمْعِنَّ فى التشبّه به

نحن قوم تحتكم بنا أمزجتنا، وأسلوب حياتنا، وجواء بلادنا[1]، وتكوين طبائعنا، ونُظُم شرائعنا، فمن الظلم أن نقول لنسائنا خُضنَ ثَبَجَ البحر[2] واقتحمن شِعَاف الجبل[3] وكُنَّ نساء أوربيات تَرَيْنَ ما يرين، وتدَعْن ما يدعن. ذلك تكليف لا قدرة عليه ولا خير فيه

نعوذ بالله أن ننكر على المرأة الأوربية وفر فضلها، وسماحة عقلها، فذلك ما لا نجد السبيل إلى جحده والانكار له. ولكننا ننكر عليها أعراضاً قد لا تبتئس بها[4]، ولا يأبه لها مَن حوْلها[5]، على أنها مما يحز المفاصل، ويستثير الغوائل[6] وهى اذا نقلت الينا كانت أشد وأفتك. ونخشى إذا حملنا نساءنا على الأسوة بنسائهم أن تكون تلك الأعراض هى الأولى والآخرة[7]

لا أَكْذِبُ المرأة الأوربية فليست بالمثل الأعلى للمرأة العظيمة. فان قيل هى كاتبة حاسبة، وصانعة بارعة، قلنا لم تزد أن دَعَمت حياة المادة وزادتها نوطاً جديداً[8]

ولو كان لها أثر نافذ فى الحياة لنُسِخت عبادة القوة[9]، ودال سلطان الأَثَرَة ولأبصرت القوم يبادرون إلى عون الضعيف، وغوث اللهيف، ولما استمعت أنَّةَ المظلوم تكاد تتفطر لها السموات وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّا

أجلْ بصرك بين أعطاف هذا العالم وأطرافه ثم انظر هل ترى إلا رجلاً مَغْشِيًّا بالغلِّ أو مَحْنِيًّا على الضغينة ؟ وهل تجد إلا امرأة مَطْوِيَّةً على كبد حَرَّى أو مهجة

---

(١) الجواء جمع جو (٢) ثبج البحر وسطه (٣) الشعاف جمع شعفة وشعفة الجبل رأسه
(٤) ابتأس بالشىء كرهه (٥) أبه بالأمر أو للامر فطن له (٦) الغوائل جمع غائلة الدواهى
(٧) وسنبسط للقراء بيان ذلك وتعليله فى الجزء الرابع من كتابنا ان شاء الله
(٨) النوط الحمل فوق الحملين (٩) نسخت محيت

حَسْرَى ؟ وهل تبصر إلا واتراً وموتورا[١] ، وقاهراً ومقهورا ؟ وهل تُحِسُّ بين الأَلفاءَ والقُرَناء باخاء صاف ، ووُدّ غير مدخول ؟ وهل تعلم فى القوم إلا الْخُلُق المضطرب ، والَخلة المموَّهة ، ويداً تمسح شَعَثَ الكلب[٢] ، وتدمى قلوب الشعوب ، وفما يَنْهَل من الدم ويشكو الأوام[٣] ؟ فأين يد المرأة وأين أثرها ؟ وهل لشىء غير تهذيب النفوس وتطهير القلوب خُلِقت المرأة ؟

لكل ذلك أناشد نساءنا أن يَسْدِلن الْحُجُب بينهن وبين نساء أوربا ففى أُمَّهاتنا الأُولَيات فضل وغَناء . أُولئك اللواتى نَسْتَنْشُ عن طيب أعراقهن وكرم أخلاقهن ، وتلك دماؤهن تترقرق بين جوانحنا وأعطاف قلوبنا . فأما ما نحن فيه من مظاهر النَّوْء بالواجب[٤] والنُّكُول عن الجِدّ[٥] فانما هو صدأ عارض وغِشاء مستحدث ألقاه علينا تطاول الزمن وتتابع الحادثات وما أصابنا فى سبيل ذلك من فَدَاحة الظلم وذل الإسار

ففى سبيل الكمال المُطْلَق ، والحياة الخالدة ، أسوق حديث المرأة العربية لا إلى النساء فحسبُ ، بل اليهن وإلى الرجال معهن فإن صلاح كل من الفريقين لا يقوم إلا على صلاح صاحبه ، والتجاوزله عن حقه الذى شُرِع له ، وسيعلم الناس مبلغ تلك المرأة فى عهد جاهليتها من قوة النفس ، وحُرْمة الرأى ، وعزة الجانب ، ونُبل الخليقة ، وكيف انتهى بها الإسلام إلى أبعد مدى من الحياة ونَهَج لها أوضح سُنَّة من الفضائل وألبسها أحسن لَبُوس من جلال الكمال وجمال الخلال

لذلك أنشأت كتابى مستعيناً بعناية الله ، مستهدياً بهداه ، فهو وحده ولىّ النُّجح ، وهادى السبيل

---

(١) الموتور من قتل له قتيل ولم يؤخذ بدمه والقاتل هو الواتر (٢) الشعث غبرة الرأس
(٣) الأوام الظمأ (٤) ناء بالحمل نهض متقلا (٥) النكول — مصدر نكل النكوص والجبن

وقد فصلته على أربعة أجزاء : —

الجزء الأول	المرأة العربية فى عهد جاهليتها
الجزء الثانى	المرأة العربية المسلمة فى عصورها الزاهية
الجزء الثالث	الدور الثانى من أدوار المرأة العربية المسلمة عصر الهبوط
الجزء الرابع	المرأة العربية الحديثة ، وفيه وصف المرأة فى أرجاء جزيرة العرب مما قاله أهلها وما كتبه المستشرقون الذين نزلوا بها ، ووصفها فى كل قطر من الأقطار المتعربة



(٢)

المرأة فى الحيـاة

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »

ما كان الله لِيَدَع الرجل تحت أوقار الدهر[١]، وأثقال الحيـاة، حتى يخْلُق له من نظام نفسه، من يذود عنه هموم نفسه، ويحتمل دونه الكثير من شؤونه، ويضيء له ما بين يديه من شعاب العيش[٢]، وظلم الخطوب

تلك هى المرأة قَسِيمة حياته[٣]، ومَبَاءة شكَاته[٤]، وعِماد أمره، وعَتَاد بيته[٥]، ومهبِط نجواه، وتلك هى آية الله ومِنَّته ورحمته لقوم يتفكرون .

ينهض الرجل إلى الحياة بعزم وقوة يستمِدّان عقله ورأيه ، وتستقبل المرأةُ الوجودَ بعواطفَ فيَّاضةٍ يتجلى بها قلبها الخفاق فتأسو بهـا ما جرحته القوة من قلب الفضيلة

فان ظهر الرجل بمضائه وذكائه فانّ للمرأة غايتهَا مِن صفاء القلب ، ونَقَاء السريرة ، وما ينبعث عنهما من وفاء وَوَلاء ، وحَنان واحسان ، وتسلية وتأسية ، وغِيَاث مكروب ، ونجدة منكوب ، وما إلى ذلك مما يُقيم مائل الأرض ، ويَلمّ صدَعات الحوادث

من أجل ذلك كان قول المرأة أنفذَ فى قلب الرجل وأملك لنفسه من كل قول سواه . ولقد رِيع النبي صلى الله عليه وسلم لرؤية الروح الأمين أولَ عهده

---

(١) أوقار — جمع وقر — الأحمال الثقيلة (٢) الشعاب الطرق بين الجبال
(٣) القسيم المقاسم (٤) موطن شكواه (٥) العتاد العدة

به ومَلَكه الفزع منه فلم يَجِد — وهو صفىُّ الله وصفوته من خلقه — من يُسَرّى رَوْعه ويَشُدُّ قلبه إلاّ زوجَه خديجةَ إذ تقول له : « كلا والله لا يخزيك الله أبداً أنك تحمل الكَلّ[١] ، وتَكسِب المعدوم ، وتُعين على نوائب الدهر »

ذلك قول المرأة التى آزرت نبىّ الله ، وواسته بمالها وقلبها ، وفرَّجَت عنه مواطن محدقةً مُطبِقة[٢] ، واحتملت دونه خطوباً جَمَّة فوادح ، وكان قولها أنفذ فى نشر دين الله من ألف سيف تُنتَضَى فى سبيل الله[٣]

ذلك وحى الله والهامه أجراه على لسان المرأة فنزل برداً وسلاماً على قلب الرجل

أفبعد هذا القول من ذلك القلب غاية لمستمع أو سبيل لمستزيد ؟

ألا أن خشية الله ودينه وهما سبيل الكمال لا يَجِدَان مجالاً أهدى ، ولا موطناً أخصب من قلب المرأة ، لأن حاجة الدين إلى قلب صافٍ ، وعواطف غالبةٍ ، أشدُّ من حاجته إلى قلب ذكىّ ، ورأى ألمَعِىّ

إلى كل ذلك تنتقل المرأة إلى طور آخر تبلغه ، فتبلغ به غاية ما أُعِدَّت له من كمال النفس ، وشرف العاطفة . ذلك طور الأمومة . فهناك تنزل المرأة عن حقها من الوجود لمن فُصِل عن لحمها ودمها تسهر لينام ، وتظمأ لِيروَى ، وتحتمل الألم المُمِضّ[٤] — راضية مغتبطة — لتذيقه طعم الدعة ، وتُنشِيَهُ نسيم النعيم

تلك هى التضحية بالنفس بلغت بها الأمومة غايتها

☆ والجود بالنفس أقصى غاية الجود ☆

ان من آيات التضحية فى المرأة ما يقف دونه الرجل عانِىَ الوجه نادِىَ الجبين ومن أمثال ذلك ما أنا سائقهُ إليك ، وقاصُّهُ عليك : —

---

(١) الكل العيال أو الثقل
(٢) مطبقة شديدة مرهقة
(٣) انتضى السيف سله
(٤) الممض الشديد الألم

فى صيف سنة ١٣٢٩ هـ كانت إحدى بواخر النيل تحمل العابرين غادية رائحة بين كفر الزيات ودسوق . ففى ذات مرة أحرج الرُّبان صدرها بمن احتملهم من قُصَّاد المولد الدسوقى ، فقذفها بضعفى ما تحتمل

سارت الباخرة متعثرة مترنحة تحامل على نفسها وتضطرب فى خطاها فما كادت تنكشف إلى عُرض النيل قليلاً حتى آدها حِمْلها[1] ، فانبَتَّ عِقدها[2] ، وانحلت عُقدتها ، ومالت على نفسها ، وتدفَّق الماء من منافذها . هنالك خرج الناس عن عقولهم ، وتملكهم الفزع الأكبر ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، فأخذوا يتدافعون على صدر النيل علَّهم يلقون يداً تدفعهم أو ترفعهم

بين هذا الحفل المتماوج المُتدافع المُتواقع تقطعت الأنساب ، فلا أب ولا أم ولا زوج ولا ولد . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وفى ذلك المَوطن الذى دارت عليه كؤوس الموت مُترَعة ظهرت امرأة لا تتلمس الشاطىء كما يتلمسون ، ولا تُلَوِّح بيدها كما يلوِّحون ، بل كان شُغُلُها والموج يرفعها ويخفضها ، والموت يقبضها ويبسطها ؛ أن نزعت خِمارها ، وأدرجت فيه ولدها ، ثم لوَّحت به إلى زوجها ، وقذفته على صفحة الماء مترفقة اليه وصاحت به متهدجة قائلة : —

خذ يا فلان فذلك وصيتى إليك . . . . .

قالت ذلك ثم غاصت بين طيات الماء بعد أن أسلمت وديعتها وأبرأت إلى الله نفسها[3] . . .

الى تلك المنزلة السامية رفع الله المرأة ليكل اليها أشرف منازل الحياة ، منزلة

---

(١) آدها أثقلها (٢) انبت انقطع

(٣) وقعت هذه الفاجعة فى منتصف الساعة الأولى من ١١ شعبان سنة ١٣٢٩ (٦ أغسطس سنة ١٩١١) ومن آلم ما حدث بها أن أخرجت من بين الغرق امرأة حانية صدرها على رضيعها ويداها حافتان به . وكان جهد ما تحتمل الباخرة مائة وعشرين فأرهقها الربان بمائتين وعشرين

التربية والتعليم ، منزلة الأستاذ الذى لا يمحو علمَه ، ولا ينسخ آيتهُ أستاذ سواه ، بل كل سائر على سُنَّته ، ومستتبع طريقَه

لقد كان من سنن اليونان أيام سقراط وأفلاطون ومن لفَّ لفهما أن يقف الرجل خاشعاً حاسر الرأس إذا مرت به حامل وما كان ذلك لمظهر جثمانى فليس فى ذلك ما يدعو إلى الهيبة والخشوع ، بل كل ذلك لما مهد الله لها من عمل روحى ملكيّ مقدس .

« فيأيتها الأم الرؤوم[1] : ليس ذلك الذى بين يديك بالطفل الذى يبقى أمد »
« الحياة طفلاً ، بل هو سر الوجود يذاع عنك وصفحة الحياة تنشر عن أثرك »
« وهو أدَلُّ عليك من أسارير[2] وجهك وبيان لسانك »

« ليست هـــذه البَضْعة[3] المتحركة باللُّعبة المُلْهِيَة بل هى العالَم الأكبر »
« يضطرب كاضطرابه ، ويتخايل فى مخايله . فانظرى على أى حالة تريدين أن »
« يكون الكون »

« ليس ذلك الدارج بين عينيك بالصبي الخَليّ بل هو خبيئة الدهر وعُدَّته »
« وربما ضم معاطف ثوبه على رجل الدنيا وواحدها . وما ينبئك لعل هناك مُلْكا »
« يترقب سيفه ، أو عرشاً يطمئن لقدميه ، أو أمة متعثرة تنتظر النَّصَفة من »
« وَضَح رأيه ، وفيْض بيانه »

« إن تلك المنزلة التى أعدك الله لها هى تلك التى وصفها بحقّ بطلُ التاريخ »
« الحديث « بونابرت » فقال : إن المرأة التى تهز المهد بيمينها تهز العالم بيسراها »
« ولقد سئل ذات مرة : أى حصون فرنسا أمنع . فقال : المرأة الصالحة . . . »

---

(١) الرؤوم العطوف (٢) الأسارير — واحدها أسرار والأسرار واحدها سرر كعنب — خطوط الجبهة أو الكف (٣) البضعة القطعة من اللحم

ليست المرأة بالْخَلْق الضعيف . فان من احتمل ما احتملته فى ظلمات التاريخ من عَنَت الدهر ، وعسف الأب ، وصَلَف الزوج ، إلى وَقْر الحَمل ، وألم المخاض وسُهد الأمومة — راضياً مطمئناً — لا يكون ضعيفاً

وليست بالْخَلْق الحقير . فان من وكَّلَه الله بابتناء الكون وإنشاء الأمم لا يكون حقيراً

ألاَ إنما المرأة دِعامة الكون لا يزال ناهضاً مكيناً ما نهضت به . فان هى وهنت دونه ، وتخاذلت عنه ، تهاوت عَمَده ، وتصدعت جوانبه

ولقد فتح المعز لدين الله ما يلى إفريقية حتى البحر المحيط ، ثم أخذ يرنو إلى مصر واجماً متهيباً ، فلم يزل ذلك أمره حتى قال قائل إن نساء قصر الاخشيد أغرقن فى الترف واستهنَّ بالفضيلة . . . فما لبث أن قال : اليوم فتحت مصر . . .

وكذلك وهنت نفس المرأة وهى مصدر قوتها وسبيل عملها فانبتَّ نظام الملك وانفصمت عروة الأمة وكان حقاً على الله أن يبدلها ويُديل منها وما ربك بظلام للعبيد ؟

عبد الله عفيفى

المرأة العربيـــة
فى عهد جاهليتها

(١)
نصيبها من الوجود

لم تُطْوَ صفحة التاريخ على امرأة بلغ من الضَّنّ بها ، والإيثار لها ، وبذل المهَج رِخَاصاً فى سبيلها ، ما بلغ بالمرأة العربية فى تلك الحُقَب[1] المتطاولة المترامية

نشأت المرأة العربية فى قوم غلَبت عليهم دِقَّةُ الحِسّ ، وسَوْرة النفس[2] ، وخوضُ مناهل الدم خوفَ انثلام الشرف ، واستباحة الحىّ ، فكانت هى أدقَّ أوتار الحس من قلوبهم ، وأوضحَ مواطن الشرف فى نفوسهم . ولولا المرأة ما كان بالرجل نزوع إلى حِمًى ، ولا رَغْىٌ على وطن

لقد كان العرب رُوَّاد غارات ، وطُلاَّب ثارات . وكان الرجل منهم يغتمِر[3] الموقعة لا يدرى أَوَقَعَ على الموت أم وقع الموت عليه . غير أن خيال ابنته وما عسى أن يصيبها بعده من حاجة وهَوَان كان يتغلغل فى نفسه فيهيج بها حبّ الحياة . فمَثَلُهُ فى ذلك مَثَلُ اسحاقَ بن خَلَف حيث يقول : —

لولا أمَيمة لم أجزع من العدم ... ولم أَجُب فى الليالى حِنْدِس الظُّلَم
وزادنى رغبة فى العيش معرفتى ... ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرَّحِم
تهوى بقائى وأهوى موتها شَفقاً ... والموت أكرم نَزَّال على الْحُرَم
أحَاذِرُ الفقر يوماً أن يُلِمَّ بها ... فيكشفَ السِّتْرَ عن لحم على وَضَم[4]
إذا تذكرت بنتى حين تَندبنى ... فاضت لرحمة بنتى عَبرتى بدم

(١) جمع حقبة وهو من الدهر مدة لا وقت لها (٢) سورة النفس حدتها (٣) يغشى
(٤) الوضم الخوان يوضع عليه اللحم ليشوى و « لحم على وضم » مثل يضرب لكل ذليل لا يعتصم من مكروه

وفى سبيل ذلك يقول حِطَّانُ بن المُعَلَّى :

لولا بُنَيَّات كزُغْب[(١)] القطا رُدِدْنَ من بعض إلى بعض
لكان لى مُضْطَرَب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنمـــا أولادنا بيننـــا أكبادُنا تمشى على الأرض
لو هبّت الريح على بعضهم لامتنعت عينى عن الغُمض

كذلك كانت المرأة تهتف بالرجل أو تلمُّ به تحت ظلال السيوف ، وقد مَلَكَ الروعُ القلوبَ ، وعقد لهول الألسنة ، وانثغرت الأفواه ، وحارت النواظر فى المحاجر ؛ فيستمد عزمًا نبا ؛ ويسترد قوة عَزَبت . ومَثَلُ ذلك ما فعل ابنتا الفِنْد الزِّمَّانى يوم « تَحْلَاق اللمم » وهو يوم انتصاف بكر من تَغْلِب[(٢)] . فقد اشتجرت

(١) زغب جمع زغباء — ما لم يستتم ريشه من الطير

(٢) بكر وتغلب — ابنا وائل بن قاسط — أخوان انكشف كل منهما عن شعب عظيم من العرب . وبرغم ما بين الشعبين من صلة النسب وقرب الجوار دفعا الى النضال مجاذبة للسيادة وتدافعاً فى سبيل الحمية حمية الجاهلية فمانوا فى سبيل ذلك حروباً وأهوالا ثقالا . وأهول ما جد من حروبهم حرب البسوس وكانت بكر هى البادئة بالعدوان فيها — وسيمر بك حديثها — لذلك اعتزل الحرب نفر من سادات بكر حتى لا يعينوا ظالماً على مظلوم وانحازت اليهم عشائرهم . ومن هامات أولئك الفند الزمانى وكان — كما يقول ابن اسحاق — سيد بكر وفارسها وشاعرها . والحارث بن عباد فارس النعامة — وكان فارس ربيعة وشاعرها وما زال أولئك على اعتزالهم حتى عرض مهلهل بن ربيعة — سيد تغلب وقائدها — لبجير بن الحارث بن عباد — وهو فتى لم يخط الى العشرين — فقتله ولم يعرف له حرمته وهو ابن أخته ولا عرف لأبيه سابقته وقد كف عن حربه لأنه مظلوم . هنالك غضب الحارث غضبته الرائعة وصاح فى قومه فلبته يشكر وعجل وبنو حنيفة وبنو قيس بن ثعلبة وساداتهم وفى القوم الفند الزمانى — وكان يقوم بألف رجل — فانحازوا جميعاً الى الحارث بن همام البكرى ولما تراءى الجيشان قال الحارث بن عباد للحارث بن همام هل أنت مطيعى فيما آمرك به ؟ قال ما أنا بتارك رأيك الى ما هو شر منه قال اعلم أن القوم مستقلون لقومك فى السلم فزادهم جرأة فى الحرب فقاتلوهم بالنساء فضلا عن الرجال قال وكيف قتال النساء ؟ قال تعمدون الى كل امرأة لها جلد ونفس فتعطى كل واحدة منهن أداوة .وهراوة فاذا صففت أصحابك فصفهن خلفهم فان ذلك مما يزيد الرجال جلداً وشدة ونشاطاً ثم تعلموا بعلامة تعرفها نساؤكم فاذا جرح منكم انسان فى القتال أمرن بسقيه واذا مررن من عدوكم بانسان ضربنه بالخشب فقتلنه ففعل الحارث بن همام ما أمر به الحارث بن عباد — وهو أول من أشار بحشد النساء مع الرجال — فتحاشدوا لذلك وحلقوا رؤوسهم علامة بينهم وبين نسائهم — ومن أجل ذلك سمى ذلك اليوم بيوم تحلاق اللمم

وكان من أمر الموقعة ما أجملناه فى أصل الـكتاب

الأسنة، واعتنقت الأبطال، ونفذت السيوف إلى أعماق القلوب وظهرت تَغْلِبُ كالجذوة المضطرمة، وبدأت بَكْرٌ تنكشف وترتد . وهنالك حسر الفتاتان البكريتان خِمَارَيهما ونفذتا بين صفوف قومهما وأخذتا تثيران بما تُنْشِدَان نفوسهم، وتذْكيان نار الحفيظة فيهم، وكان مطلع قولهما :

وغى وغى وغى وغى حَرَّ الحَرَار والْتَظَى[1]
ومُلِّئَت منـــه الرُّبَى يا حَبَّذَا المُحَلِّقون بالضحى

وأقبلت من ورائهما كَرْمة بنت ضِلَع، أمُّ مالك بن زيد، فارس بكر وواحدِها فتغنت بما يُحيل الجبان المستطار شهابا ثاقبا، وسعيراً مستطيراً، وكان مما تغنت به قولهـا :

نحن بنـات طارق[2] نمشى على النمـارق[3]
مَشْىَ القُطَىِّ البارق[4] المسكُ فى المَفـارق[5]
والدُّر فى المخـانق[6] ان تقبلوا نعانق
أو تدبروا نفـارق فِرَاقَ غـير وامِق[7]
عِرْسُ المُوَلِّى طالق[8] والعار منـــه لاحق

فلم يلبث القوم أن تدافعوا وراءهن على أعدائهم، واقتحموا صفوفهم، واستباحوا معاقلهم، وأعملوا السيوف فى رؤوسهم، وأنهلوا الأسنة من صدورهم فلم ينكشف

---

(١) حر حرار الشىء اشتد حره والتظى التهب تقولان دونكم الحرب فقد اشتد حرها والتهبت نارها
(٢) طارق كوكب من كواكب السحر ويسمى كوكب الصباح — وهو المعنىّ بقوله جلت آيته « والسماء والطارق » — تريد نحن بنات المجد والسمو (٣) النمارق « جمع نمرق ونمرقه » الوسائد — تريد أنهن يطأن بأقدامهن مواطن الوجوه من الناس
(٤) القطى صغار القطا ومن دأب القطا اذا مشى تثاقل وتباطأ حتى ضربوا به المثل فقالوا « أذل من قطاة » والبارق الحائر أو الفزع (٥) المفارق — جمع مفرق — وسط الرأس وهو الذى يفرق فيه الشعر
(٦) المخانق — جمع مخنقة — القلائد (٧) الوامق المحب (٨) العرس الزوجة والمولى المدبر الفار

الهول حتى كانت تغلب بين قتيل وأسير وشريد . وفى مثل هـذا الموقف يقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بِيضٌ حِسَانٌ   نُحاذر أن تُقَسَّم أو تهونا
أَخَذْن على بعولتهن عهداً   إذا لاقَوْا كتائب مُعلِمينا[١]
لَيَسْتَلِبُنَّ أفراسا وبِيضا   وأسرى فى الحديد مُقرَّنينا
إذا ما رُحْن يمشين الهُوَينَى   كما اهتزَّت متون الشاربينا
يَقُتْنَ جيادنا ويقلن لستم   بُعُولَتَنَا إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا   لشىء بعدهن ولا حيينا

كل ذلك ينبئك أن المرأة العربية مَثَار عاطفة الرجل ، ومَدَار وجدانه ، هى سر حياته وموته ، هى مَهاج غضبه ، ومَعقِد أُلفته ، هى مُجْتَلَى قريحته ، ومطلع قصيدته ، هى موطن غَنَائه[٢] ، ومذهب غِنائه ، هى مَشْرِق وحيه ، ومنار إلهامه ، هى نور الوجود فى ناظريه ، هى كل شىء بين يديه .

لقد بلغ خيال العربى من السموّ بالمرأة أن جعل الملائكة أشباها لهـا ونظائر فقال : هُم بنات الله وصَفِيَّاته . . . تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً
وإذا علمت أن العرب اتخذوا الملائكة آلهةً من دون الله فما ظنك بأشباههم يومئذ؟

بل ما ظنك بامرأة ملكت على الرجل قلبـه ورأيه فلا يكاد يصيب معنى ، أو يطيف بموضوع ، حتى يُلِمَّ بذكْرها ، ويتغنى بمحاسنها ، ويتمدح بشمائلها، ويتأثر بأطلالها ومَعالمها[٣] .

---

(١) البعولة — جمع بعل — الأزواج . والكتائب — جمع كتيبة — الجيوش . والمعلمون من أعلم الفارس اذا جعل لنفسه علامة الشجعان (٢) الغناء — بفتح الغين — الكفاية — وبكسرها توقيع الصوت (٣) الطلل ما شخص من آثار الديار . والمعالم — جمع معلم — ما يستدل به على الشىء

كذلك كان يفعل شعراء العرب، وهم أَلْسِنةُ القوم، وحَفَظَةُ آدابهم وحُماة مجدهم، وشُرّاعُ فضائلهم. حتى لقد بكى مُهَلْهِلُ بن ربيعةَ كُليبا أخاه وهو مُحْرَق الكبد، موصول الكمَد، فبدأ بالمرأة يذكُرها ويصف دارها، قبل أن يذكُر أخاه، وذلك حيث يقول[1]:

الدار قَفْرٌ عفاها بعد ساكنها ... بالريح بعد ارتحال الحىّ عافيها[2]

وغالها الدهر أن الدهر ذو غِيَلٍ ... فأصبحت بَلْقَعاً قَفْراً مغانيها[3]

إلا رَواكدَ سُفْعاً بين مُلتَبِد ... مثل الحمامة منتوفاً خوافيها[4]

دار لمهضومة الكَشْحَين خَرْعَبةٍ ... كالشمس حين بدا فى الضَّوْء باديها[5]

فما زال يستتبع قوله فى وصف صاحبة الدار حتى قال:

كليبُ لاخير فى الدنيا ومن فيها ... إذ أنت خلّيتها فيمن يُخَلّيها

كَذلك فعل الحارث بن عُبَاد بعد أن قتل مهلهلٌ ابنَهُ بجيراً واستَعَرَت جمرة الحفيظة[6] والثأر فى صدره، حتى صبها على آل مهلهل جحيماً وحميماً. فقال يصف فتكه، ويذكُر ولده فى قصيدة ضافية ألَمّ فى أولها بالمرأة فقال[7]:

بانت سعاد وما وفّتك ما تعد ... فأنت فى إثرِها حَرّانُ مُعتَمِدُ[8]

---

(١) بكر وتغلب ص ٤٤ (٢) عفت الريح الديار محتها (٣) غالها أخذها من حيث لا تدرى والاسم الغيلة وجمعها غيل والبلقع الارض التى لا نبت فيها ولا شىء بها ومثلها القفر والمغانى جمع مغنى وهو المنزل الذى غنى به أهله (٤) الرواكد الثابتة. والسفع — جمع سفعاء — الاثافى وهى الحجارة توضع عليها القدر والخوافى من الطائر ريشات اذا ضم جناحيه خفيت يقول أن الدهر لم يبق من تلك الدار الا الأثافى الراكدة بين الدمن المتلبدة فثلها فى خفائها مثل خوافى الحمامة المنتوفة أوكان الدمن المتلبدة وما خفى من بينها من الاثافى حمامة منتوفة الخوافى (٥) الخرعبة الشابة الحسنة الخلق الجسيمة اللينة الرقيقة والكشح ما بين الخاصرة الى الضلع ومهضومة الكشحين نحيلة الخصر (٦) الحفيظة الحمية والغضب (٧) بكر وتغلب ص ٧٦ (٨) بانت فارقت والمعتمد من اعتمد ليلته اذا قطعها ساريا

وما زال يمعن فى وصف سعاد حتى استكمل فيها عشرة أبيات كاملة ، ثم عطف على موضوعه فقال :

سل حى تغلبَ عن بكر ووقعتهم ... بالحِنو إذ خَسِرُوا جهداً وما رَشَدوا[1]

لعمرك ما ترك الحزن لمهلهل ما يشغله عنه ، وما أبقى الزمن للحارث ما يقوى على اللهو به . فما لهما يفعلان ذلك ؟ أمَا إنهما لم يفعلا ما فعلا إلا ليتألفا المعانى النافرة ، ويستقيدا الألفاظ الشاردة . ولولا ذلك ما جاء قولهما كما جاء عذباً فراتاً .

ذلك طبع العرب . وتلك سُنّتهم .

ولقد كان الرجل منهم وما كاد يبتدر صالحة ، أو يسبق إلى مَكْرُمة ، حتى يسبق إلى المرأة ، فيسوق اليها الشعر فياضاً بمأثرته ، حفيلاً بمفخرته ، وأكبر أمله أن تذكره بكلمة طيبة بين نظرائه ، فيروحَ عنها بفخر لا ينفَد ، ومجد لا يبيد . وفى مثل ذلك يقول شاعر قيس[2] :

إنّا مُحيّوكِ يا سَلمى فَحيّينا ... وإن سَقَيْتِ كرام الناس فاسقينا

وإن دعوت إلى جُلَّى ومكْرُمة ... يوماً سَرَاة كرام الناس فادعينا[3]

ويقول شاعر ذُهل يوم ذى قار[4] :

إن كنت ساقية يوماً ذوى كرم ... فاسقى فوارس من ذهلِ بن شيبانا

واسقى فوارسَ حاموا عن ذِمارهم ... واعلى مفارقهم مسكاً وريحانا

بل لقد كان الرجل يأتى الأمر تسوّغه نفسه ، ويحمله عليه موقفه ، وربما كان الخير كله فيه ، فلا تهدأ نفسه ، ولا تطمئن سريرته ، حتى يُفضِىَ اليها بعذره ،

(١) الحنو موضع من مواطن العراق بذى قار نشبت فيه موقعة بين بكر وتغلب فعقد النصر بلواء بكر
(٢) هو بشامة بن حزن النهشلى (٣) الجلى الأمر العظيم (٤) هو الدهان بن جندل

ويكشف عن مكنون أمره . وفى مثل ذلك ما يقول أَزهَرُ بن هِلَال التميمى يعتذر عن فراره :

أعاتِكَ ما ولّيتُ حتى تبددت ... رجالى وحتى لم أجِـد متقَدَّما
وحتى رأيت الوَرد يَدْمَى لَبَانُهُ ... وقد هزه الأبطال وانتَمَلَ الدِّما[1]
أعاتك إنى لم أُلَم فى قتـالهم ... وقد عَضَّ سيفى كبشَهم ثم صمَّما[2]
أعاتك أفنانى السلاح ومن يُطِلْ ... مقارعة الأبطال يرجعْ مُكَلَّما[3]

وشبيه بذلك قول من يقول :

قالت سَلاَمةُ ما أرى لك عادةً ... أن تترك الأعداء حتى تُعذِرا[4]
لو كان قتل يا سلامَ فراحةٌ ! ... لكن فررت مخافةً أن أوسَرا
وسبقت قبل المقرفين فوارساً ... لبنى فزارة دارِعين وحُسَّرا[5]

ولعل أبلغ من هذين معذرة ، وأقوم سبيلاً ، ذلك الذى يعتذر عن قراره فى داره ، ورضاه باليسير من عيشه ، فيقول :

قالت أما ترحل تبغى الغنى ... قلت فمَنْ للطارق المُعتِمِ ؟
قالت فهل عندك شىء له ... قلت نعم ، جُهْدُ الفتى المعْدِمِ
فكم وحقّ الله من ليلة ... قد أُطعِمُ الضيف ولم أَطعَمَ
إن الغِنَى بالنفس يا هذه ... ليس الغِنَى بالمال والدرهم

ومن أمثل ما جاء فى الاعتذار إلى المرأة قول عنترة العبسى :

بَكَرَت تخوّفنى الحتوف كأننى ... أصبحتُ عن غَرَض الحتوف بمعزِلِ
فأجبتهـا : إن المنية منهل ... لا بدَّ أن أُسقى بكأس المنهل

---

(١) الورد من الخيل ما كان أحمر مائلا الى صفرة حسنة ويدمى يسيل دما واللبان الصدر
(٢) كبش القوم سيدهم وقائدهم وصمم السيف أصاب المفصل وقطعه (٣) المقارعة المضاربة والمكلم الكثير الجراح (٤) يعذر أى يصيب العذر (٥) المقرفون الذين ينتمون الى العرب بأمهاتهم لا بآبائهم والدارع الذى يتخذ الدرع للحرب وضده الحاسر

أما ضنُّ الرجل بها ، وإيثاره لها ، وحرصه عليها ، وتفديته إياها بنفسه وما ملكت يمينه ، فقد بلغ من أمره أن كسرى أَبْرَوِيزَ ملكَ الفُرس وسيد ملوك المشرق ، أرسل إلى النعمان يبغى مصاهرته — ولو أن ملكا من أقطاب العالم وأبطاله الفاتحين خَطَبَ اليه كسرى ابنته لوثب عن عرشه زهواً واختيالاً بتلك النعمة السابغة — على أن النعمان وهو مولاه ، وصنيعته ، والقائم بأمره ، والقارّ لسيفه ، والخاضع لسلطانه ، ردَّ رسوله مُقَنَّعاً بالخيبة ضِنًّا ببنات المنذر أن يكُنَّ قعائد بيت أعجمى أيًّا كان مكانه وسلطانه . حتى إذا عاود الرسول مولاه بما لا يرضاه ، اضطرمت فى صدره جذوة الغضب ، وثارت بين جنبيه سَوْرة الملك ، فأرسل يستقدم عاهل العرب !

هنالك أبصر النعمان وميض الموت يلمع من صَوْب المدائن ؛ فأودع ابنته حُرَقة وما يعتزُّ به من سيوف ودروع « هانئَ بن قُبَيصة الشيبانى » وذهب إلى حيث طُرح تحت أقدام الفيلة ، فذهبت بلحمه وعظمه ودمه كل مذهب من ثَغَرَات الأرض ، وسَوَّت معالم جسمه بالتراب .

بذلك نقع كسرى غليل غضبه ، وأراد أن يعاود ما بدأ ، فأرسل الى هانئ يقتضيه ابنة النعمان ، فما كان نصيبه منه بأجمل من نصيبه من صاحبه . هاج كسرى هائجُ الحَنَق على هذه الأمّة التى استأسدت فى وجهه ، واحتجزت فتاتها دونه . فأرسل فيالقه يزحَم بعضُها بعضاً ليوقع الخسف بها ، ويَبْسُط رِوَاق الذل ضافياً عليها . وهنالك قام العرب يدفعون عن حوزتهم ، ويذودون عن أعراضهم فالتقوا بجحافل الفرس على بَطْحاء ذى قار ، فى موقعة احمرَّ لها وجه الأفق ، وارتفع النَّقْع [1] المُثَار ، حتى مَحَا آية الشمس ، فظهرت الكواكب واضحة عند منتصف

---

(١) النقع . الغبار

النهار[١] . وقام من أبطال العرب من قطع وُضُن النساء[٢] حتى لا يجدن سبيلاً إلى الفرار إذا جاشت به نفوس ذويهن؛ فتأججت عند ذلك قلوب القوم، وأُرهِفت أنيابهم ، واستحالوا إلى صواعق ساحقة . ثم انحسر القتال وقد ضربوا أعداءهم ضربة أطارت قلوبهم ، فنكصوا على أعقابهم ، وفَزعوا إلى ديارهم ، وسيوفُ أولئك البواسل ، القلائل ، الاباة الضيم ، الْحماةِ الذِّمار، تَعمَل فى أَقفيتهم حتى أرباض المدائن[٣] . وفى ذلك يقول العُدَيْل العِجْلى :

ما أَوْقَدَ الناس من نار لمَكْرُمة — إلا اصطَلَينا وكنا مُوقِدِى النار
وما يَعُدُّون من يوم سمعت به — للناس أفضلَ من يوم بذى قار
جئنا بأسلابهم والخيلُ عابسةٌ — لما استلبنا لكسرى كل أُسوار[٤]

ذلك يوم ذى قار . ذلك يوم انتصاف العرب من الفرس ، وتحريرهم من رقهم[٥] .

ولم تكن المغالاة بالمرأة وقفاً على ذوات الثراء والسناء منهن . فقد كان يُغَالَى بهـا ، وتُغَالِى بنفسها ، مهما هان أمرها ، أو اتضعت عشيرتها ، ومَثَلُ ذلك ما حَدَّث ابن الأثير أن أحد دَهاقين[٦] الفرس جَهِدَ أن يتزوَّج امرأة من باهِلَة[٧] فأَبت عليه ذلك . كلُّ ذلك رَغم ما لِدَهاقِين الفُرْس من سعة العيش ، ونعومة الحال ، وما بلغته باهلة بين العرب ، من لؤم الحسب ، وانصداع النسب .

كذلك بلغ من غضب العربى للمرأة ، وحرصه على كرامتهـا ، ووَقف شرفه على شرفها : أن يعمِدَ الرجل منهم إلى الملك المُتوَّج فيقصِمَ هامته ، حِياطةً لهذا

(١) كذا يزعم العرب فيما يحدثون عن هذه الموقعة (٢) الوضن جمع وضين وهو بطان عريض للرحل منسوج من سيور أو شعر أو جلد فاذا قطع بقى الرحل لا يعتمد على شىء فيسقط (٣) أرباض المدينة - جمع ربض — ما حولها (٤) الاسوار — بضم الهمزة وكسرها — قائد الفرس والجيد الرمى بالسهام والثابت على ظهر الفرس وجمعه أساورة وأساور (٥) ابن جرير ج ٢ ص ١٥٠ — ١٥٦ والعقد الفريد ج ٣ ص ١١٣ — ١١٤ وحروب بنى شيبان ص ٣ — ٦٩ (٦) الدهاقين واحده دهقان — التاجر وزعيم فلاحى الفرس ورئيس الاقاليم (٧) باهلة قبيلة من أوضع قبائل العرب

الشرف ، وذياداً عنـه أن يُبذَل أو يُذَال . فقد حَدَّثوا أن عمرو بن هند ملك العرب قال لجلسائه : هل تعلمون أحداً تأنف أمه أن تخدُم أُمى ؟ فقالوا : نعم ! لَيلَى بنت مهلهِل ، لأن أباها مُهَلْهِلُ بن ربيعة ، وعمها كليب وائلٍ أعزُّ العرب ، وبعلها كُلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه ، وليث كتيبتهم . فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يُزِيرَ أُمَّهُ أُمَّهُ . فأَقبل عمرو من الجزيرة فى جماعة من بنى تَغْلِب ، وأقبلت ليلى فى ظُعُنٍ[1] من قومها . وأمر عمرو بن هند برواقه فضربه فيما بين الجزيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا . ثم دخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند فى رواقه ، ودخلت ليلى وهند فى قبّة واحدة . وقد كان الملك أمر أمه أن تُنَحِّى الخدم إذا دعا بالطُّرَف[2] وتستخدم ليلى ! . فدعا عمرو بمائدته ، ثم دعا بالطُّرَف . فقالت هند : ناولينى يا ليلى هذا الطبَق . فقالت ليلى : لِتَقُمْ صاحبة الحاجة إلى حاجتها ! فأَعادت هند ما طلبت ، وأَلَحّت فى ذلك وأكثرت . فصاحت ليلى : واذُلَّاه ! يا لَتَغْلِب ! فسمعها عمرو ابنها فانتفض انتفاضة المحموم وقال : لا ذل لتغلب بعد اليوم ! ثم نظر إلى سيف معلق بالرواق ليس هناك غيره . فاخترطه[3] وصدع به رأس عمرو . ونادى بعد ذلك فى بنى تغلب فانتهبوا ما فى الرواق . واستاقوا نجائب[4] الملك . ففى ذلك يقول عمرو معلقته وفيها يقول :

أبا هنـد فلا تعجل علينا ... وأَنظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليقينا
بأَنّا نُورِدُ الرايات بِيضاً ... ونُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قد رَوِينا

---

(١) جمع ظعينة وهى الهودج أو المرأة ما دامت فيه (٢) الطرف — جمع طرفة — ما تعطيه غيرك ما لم يعط أحد قبلك ويراد به هنا ما يتنقل به بعد الطعام (٣) اخترط السيف استله
(٤) النجائب جمع نجيب وهو الفاضل من كل حيوان وأكثر ما يريد بها العرب الابل

حتى يقول :

ألا لا يعلمِ الأقوام أنّا تضعضعنا وأنّا قد وَنينا
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأيِّ مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأيِّ مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلِكم فيها قَطِينا[1]
تَهـدَّدْنا وأوعدنا رويداً متى كنا لأمك مَقْتوِينا[2]

وكأن ما فعل عمرو بن كلثوم لم يغن عن تغلبَ كَثيراً . فقام مُرَّة بن كُلثوم وقتل ولد النعمان وأخاه ليطفئ جذوة من الغضب هاجها تعمد المهانة لأمه[3] .

ألا ان كلمة واحدة قَذَفت بها امرأة فأَصابت موطن الحسِّ من رجل فهاجت لها الحرب أربعين عامًا لم يدرَّ فيها ضرع ، ولم يكتهل بين أثنائها فتى .

وحديث ذلك : ان البسوس ابنة مُنْقذ — خالة جَسَّاس بن مُرَّة سيد بنى بكر نزل بها ضيف من ذويها يدعى سعداً ، فأَفسحت دارها له ، وأناخت بحظيرتها ناقته ، فما كاد يطمئن بالرجل مُقامُهُ حتى انطلقت ناقته ترعى . وقادها حَيْنُها[4] إلى حِمَى[5] لكُلَيب بن ربيعة صهر جساس ، وفتى العرب ، وسيد تغلب — ولم يكن لأحد غير جساس أن يُرْعِيَ إبلَهُ حِمَى كليب — فلما بَصُرَ كليب بها غريبة بين إبله أنفذ سهمه فى ضرعها ، فانطلقت تعدو وهى تَشخُبُ[6] دمًا ولبنًا حتى نزلت بِفناء البسوس . فلما استبانت مابها صاحت وأعولت واندفعت تقول :

(١) القيل الملك من ملوك حمير . وملوك الحيرة — الذين منهم عمرو بن هند — منهم . والقطينة قعيدة الدار (٢) المقتوى — بتشديد الياء وقد تخفف — الخادم ويجمع على مقاتيه ومقتوين
(٣) الأغانى ج ٩ ص ١٧٥ — ١٧٦
(٤) الحين الهلاك (٥) الحمى موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعى وكان الشريف من العرب اذا نزل بلداً فى عشيرته استعوى كلباً فحمى له وحده مدى عواء الكلب وكان كليب أحمى العرب لحماه ولذلك ضربوا به المثل فقالوا : أحمى من كليب (٦) شخبت الناقة سال ضرعها

لَعَمْرُكَ لو أصبحت فى دار مُنقِذٍ ... لما ضيمَ سعد وهو جارٌ لِأبياتى

ولكننى أصبحت فى دار غُرْبةٍ ... متى يَعْدُ فيها الذئب يَعْدُ على شاتى

فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل ... فانك فى قوم عن الجار أموات

ودونك أذْوَادِى[1] فانىَ عنهم ... لَرَاحلةٌ لا يفقدون بُنَيَاتى

سمع جساس تلك الكلمة الأخيرة فأصابت الوتر الأرَنَّ مِن قلبه . فأجفل اجفال الأَخيذة من تلك الوَصمةِ المُنْدِية ؛ وصمةِ العجز عن حياطة بنيات خالته ! فقال : « اسكتى أيَّتُها المرأةُ فَليُقْتَلَنَّ غداً جمل هو أعظم عَقْراً[2] من ناقة جارك » ولم يزل يتوقع غِرَّةَ[3] كليب حتى أنبئ بانفراده ، فاعتقل[4] رُمحه ، وخرج للقائه . فلما أبصره طعنه ، وَدَقَّ صُلْبَهُ ، وأبى عليه الماء أن يُبلِّغَهُ به . وعلى إثر ذلك ثارت حرب البسوس ، وفيها استحَرَّ القتل بالحَيَّين أربعين عامًا حتى كاد يلحقهما الدثور فى أثَرها وما عصفت بها إلا كلمةٌ واحدة كان خليقاً بها أن تذهب لِحينها ، لولا أن نَسَجَتها امرأة ، وحاكَتها على امرأة .

ربما قلت أولئك سَرَوَات القوم وهاماتهم ، غَضِب بعضهم لبعض ، وهاج بعضهم على بعض ، فتدافع العرب فى مَسَاقهم طَوَاعيةً لهم ، وانسياقاً فى أثرهم . فثلهم فى ذلك مثل عامّة الفرس والرومان وأمم القرون الوسطى من أشرافهم .

على أن ذلك ان قيل فيمن سوى العرب من الأمم ، فالعرب أجلّ وأعظم من أن يوصموا به ، أو يكونوا فى شىء منه .

ان شرف المرأة العربية حَلْقَةٌ مُفْرَغةٌ لا طَرَف لها . ولئن تدافعت عامّة العرب فى مَسَاق أشرافهم يوم البسوس ، لقد تدافع الأشراف فى مساق عامتهم

(١) الاذواد جمع ذود والذود الطائفة من الابل قيل من الثلاثة الى العشرة أو العشرين أو الثلاثين
(٢) العقر ضرب قوائم البعير أو الفرس بالسيف (٣) الغرة الغفلة
(٤) اعتقل الفارس رمحه جعله بين ركابه وساقيه

يوم الفِجَار[1] بين قريش وهوازن . وكان من أمر ذلك أن شباباً من كِنانة أطافوا بامرأة من غِمَار الناس فى سُوق عُكَاظ ، فأعجبهم ما رأوا من حسنها ، وسألوها أن تُسْفِرَ لهم عن وجهها . فأبت ذلك عليهم ، فأخذوا يُعنِتُونها[2] ويسخرون بها ، وهنالك نادت : يا آل عامر ! فلَبَّتْها سيوف بنى عامر . ووقف بنو كنانة يدرأون عن فِتيانهم . وهاجت هَوَازِن لعامر ، واغتمرت قريش فى كِنَانة[3] ، وهنالك تفجرت الدماء ، وتناثرت الأشلاء[4] . ولولا حكمة بدرت من حرب بن أمية يومئذ لكان الخطب أفدَح ، والمصاب أطَمّ . فقد وقف بين القوم فحسم ضغينتهم ، واحتمل ديات قتلاهم[5]

لم تقف منزلة المرأة من الرجل عند حد حمايته لها ، وسفك دمه دون البلوغ اليها ، فى ذلك ما عسى أن يُشعر بشىء من رعاية المالك لما يملك ، وما كذلك كان أمرهما . فلقد كانا جميعاً على سواء ؛ يتجاذبان الرأى ، ويتساجلان المعونة ، ويتآزران على نوائب الحياة . وأن من ضعف الأسلوب أن يقال أن العربى كان رفيقاً بالمرأة ، عطوفاً عليها . فان الرفق والعطف يُشعران بالضعف بين يدى القوة ، على حين كان نصيبها من الحياة على قدر نصيبه منها ، وقسطه من الاجلال والاحترام فى قلبها على قدر قسطها فى قلبه

ففى العهد الذى كانت المرأة الرومانية تدين فيه بالعبادة للرجل ، وكانت تعتدُّه من دون الله إلهاً قهاراً ؛ كانت أختها العربية فى الذِّرْوَة والسَّنَام من الحرية والمساواة. لها ما للرجل وعليها ما عليه

---

(١) حروب الفجار حروب نشبت بين العرب فى سوق عكاظ وهى أربع . وانما دعيت بهذا الاسم لأن العرب أباحوا فيها حرمة الأشهر الحرم فقاتلوا فكان ذلك منهم فجاراً أى تفاجراً (٢) أعنته شق عليه
(٣) عامر بطن من بطون هوازن وقريش فرع من فروع كنانة
(٤) الأشلاء — جمع شلو — قطعة اللحم (٥) العقد الفريد ج ٣ ص ١٠٩

وليس أمثلُ بذلك ولا أدلّ عليه من قولهم فيما سار من أمثالهم : —

إن النساءَ شقائق الأقوام[١] يريدون بذلك إن نساءهم فى سواء رجالهم فلا فضل فيهم لامرىء على امرأة . بل لقد كان للمرأة من فرط الكرامة ، وحرمة الكلمة ما لم يستشرف له الرجل على هول قوّته ، ومضاء عزيمته . ولقد عقدت فتاة من العرب أمانا لرجل فلم يستطع ملك العرب وجبارها أن ينقضه أو يبلغ منه

وبيان ذلك فيما حدّثوا أن مَرْوان القَرَظ[٢] بن زنباع غزا بكر بن وائل ، فقصُّوا أَثَرَ[٣] جيشه فأسَرَه رجل منهم وهو لا يعرفه فأتى به أمّه فلما دخل عليها قالت له : إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرَظ . فقال لها مروان : وما ترتجين من مروان ؟ قالت عُظمَ فدائه . قال : وكم ترتجين من فدائه ؟ قالت : مائةَ بعير . قال مروان : ذاك لك على أن تؤديني الى « خُمَاعَة » بنت عوف بن مُحَلِّم — وكان مروان قد أسدى اليها يداً فيما سلف من دهرها — فقالت المرأة : ومن لى بمائة من الإبل ؟ فأخذ عوداً من الأرض فقال : هذا لك بها . فمضت به الى عوف بن مُحَلِّم فأجارته ابنته من كل مكروه . وكان مروان قد أساء الى عمرو ابن هند ملك العرب وطاغية الحيرة فأقسم عمرو لا يعفو عنه حتى يضعَ يده فى يده[٤] . فلما علم بمستقره من عوف أرسل اليه ليأتيه به . فقال عوف : قد أجارته ابنتى وليس اليه من سبيل . فقال عمرو : قد آليت ألاّ أعفو عنه أو يضع يده فى يدى . قال عوف : يضع يده فى يدك على أن تكون يدى بينهما . فأجابه عمرو

---

(١) مجمع الأمثال ج ١ ص ٢٠ والأقوام جمع قوم ويراد بهم الرجال

قال القائل : وما أدرى ولست أخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

(٢) لقب مروان بالقرظ لأنه كان يغزو اليمن وهى منابت القرظ (٣) قص أثره اتبعه

(٤) يريد بذلك أن يملكه نفسه وكان عمرو اذا ملك فتك

الى ما طلب وعفا عن مروان وما كان ليعفو عنه بعد أن ظفِرَ به لولا أن أجارته المرأة . ولو أن عوفا هو الذى أجاره لسامهُ الحرب أو يُسْلِمَه[١]

تجاوزت المرأة موطن الرعاية الى ما هو أسمى وأجل . فقد كان حَسْب الهارب المطلوب أن يعقِدَ رداءه بطُنُب[٢] خبائها فيعود آمناً ليس عليه من سبيل . وكذلك كانت ساحتها حرماً آمناً اليه يفزع الخائفون ، وببابه يتدافع العافون ، ويهتدى السارون[٣]

ومن أبدع مظاهر ذلك ما حدَّثوا أن سُبيعة ابنة عبد شمس بن عبد مناف كانت زوجاً لمسعود بن مالك الثقفى[٤]، فلما عصفت حرب الفِجَار الأكبر — بين كنَانة وقيس — كانت سيادة الأولين لحرب بن أمية ابن أخيها ، وقيادة الآخرين لمسعود زِوجها . وكان مسعود قد ضرب لها خباء وراء جنده ، فدخل عليها فأبصر بالدموع تجول بين خديها ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : أبكى لما عسى أن يصيب قومى . فقال لها : من دخل خباءك من قريش فهو آمن . فأخذت تصل به قطعاً حتى يسع الجمع العديد من قومها

فلما انكشفت قيس وغُلب على أمره مسعود ، قال لها ابن أخيها : من تمسك بأطناب خبائك فهو آمن ، ومن دار حول خبائك فهو آمن ، فلم يبق قيسيٌّ إلاّ اعتصم بها ، ودار حول خبائها[٥]

وإنى لمفضٍ اليك بحديث عن القوم يملأ قلبك روعة وإيماناً بما كان للمرأة يومذاك من سماحةٍ فى الرأى ، ووفور فى الحرية ، وسمو فى المنزلة :

---

(١) مجمع الأمثال ج ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ (٢) الطنب — بسكون النون وضمها — حبل الخباء والسرادق ونحوهما (٣) العافون — جمع عاف — القصاد . والسارون جمع سار — السائرون ليلا
(٤) مسعود بن مالك الثقفى سيد ثقيف . وثقيف بطن من قيس . أما زوجه سبيعة فقرشية وقريش نبعة من كنانة وبين القومين ثارت الحرب (٥) الاغانى ج ١٩ ص ٧٩

ذلك أن سيد العرب الحارث بن عوف المرِّى قال لمن حوله : أتَرَوننى أخطُبُ إلى أحد فيردُنى ؟ قيل : نعم . قال : ومن ذاك ؟ فقيل له : أوس بن حارثة الطائى . فقال الحارث لغلامه : إرحل بنا اليه . فركبا ومعهما خارجة بن سنَان حتى أتوا أوساً فى بلاده ، فألفَوه فى منزله . فلما رأى الحارث قال : مرحباً بك يا حارث . قال : وبك . قال : ما جاء بك ؟ قال : جئتك خاطباً . قال : لستَ هناك ! فانصرف الحارث ولم يكلمه . ودخل أوس على امرأته مُغْضَباً فقالت : من رجلٌ وقف عليك فلم تُطِلْ ولم تكلِّمْه ؟ قال : ذاك سيد العرب الحارث بن عوف المرِّى . قالت : فما لك لا تستنزله ؟ قال : انه استَحْمَق[1] ! قالت : وكَيف ؟ قال : جاءنى خاطباً ! قالت : أفتريدَ أن تزوج بناتِك؟ قال : نعم . قالت : فاذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ قال : قد كان ذلك . قالت : فتدارك ما قد كان منك . قال : بماذا قالت : تلحقه فترُده . قال : وكيف وقد فرط ما فرط اليه ؟ قالت : تقول له « إنك لقيتنى مغضَباً بأمر لم تُقدِّم منى فيه قولاً[2] فلم يكن عندى من الجواب إلا ما سمعتَ ، فانصرِف ولك عندى كل ما أحببت فانه سيُفعل » فركب فى أثْرِهما

قال خارجةُ بن سنَان : فوالله إنى لأسير حانت منى التفاَتةٌ فرأيته ، فأقبلت على الحارث وما يكلمنى غمَّا ، فقلت له : هذا أوس بن حارثةَ فى أثَرنا . قال : وما نصنع به ؟ إمْضِ . فلما رآنا لا نقف عليه قال : يا حارث إرْبَعْ عَلَىَّ[3] ساعة . فوقفنا له ، فكلمنا بذلك الكلام ، فرجع مسروراً

فبلغنى أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته : إدعى لى فلانة — لكُبرَى بناته — فأتتهُ ، فقال : يا بنية ، هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب قد جاءنى طالباً خاطباً، وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين؟ قالت : لا تفعل. قال : وَلِمَه ؟ قالت :

---

(١) استحمق صار الى الحمق (٢) تريد أنك صارحتنى بالأمر من غير تمهيد له

(٣) أربع على قف بى

لأنني امرأة فى وجهى رَدَّة[1] وفى خُلُقى بعض المُهْدَة[2] ولستَ بابن عمه فيرعَى رَحِمِى ، وليس بجارك فى البلد فيستحيِيَ منك ، ولا آمَنُ أن يرى منى ما يكره فيطلقنى ، فيكونَ علىَّ من ذلك ما فيـه . قال : قُومى بارك الله عليك ، ادعى لى فلانة — لابنته الوُسْطَى — فدعَتها ، ثم قال لهـا مقالتَهُ لأختها ، فأجابته بمثل جوابها، وقالت : انى خَرْقاء[3]، وليست بيدى صناعة، ولا آمَن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى ، فيكون علىَّ من ذلك ما تعلم ، وليس بابن عمى فيرعَى حق ، ولا جارَك فى البلد فيَسْتَحْيِيَك . قال : قومى بارك الله عليك ، ادعى لى « بُهَيْسَة » — يريد الصُّغْرَى — فأُتِىَ بها ، فقال لها ما قال لهما، فقالت : أنت وذاك . قال : قد عرضت ذلك على أختيك فأبَتَاه . فقالت : — ولم يَذْكرلها مقالتيهما — لكننى والله الجميلة وجهاً ، الصَّنَاع يداً[4]، الرفيعة خُلْقاً ، الحسيبة أباً ، فان طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير . فقال : بارك الله عليك . ثم خرج الينا فقال : قد زوَّجتك يا حارث « بُهَيْسَة » بنت أوس . قال : قد قبلت . فأمر أمها أن تهيئها ونُصْلح من شأنهـا . حتى إذا حُمِلت إلى زوجها ، وبلغ بهـا جِمَاه كانت حرب داحِسٍ والغَبْرَاء[5] بين عَبْس

---

(١) الردة القبح (٢) المهدة — العيب (٣) الخرقاء التى لا تحسن ما تصنع

(٤) صناع اليدين وصف للرجل والمرأة وجمعه صنع — حاذق ماهر يعمل بيديه

(٥) داحس والغبراء فرسان أولهما لقيس بن زهير العبسى والثانية لحذيفه بن بدر الفزارى وكلا الرجلين سيد قومه . وكان من حديث الفرسين أن رجلا من عبس بارى آخر فزاريا فى أى الفرسين أعتق وأسبق وكلاهما يؤثر فرس صاحبه ثم افترقا متراهنين عليهما عشرا فى عشر « أى يبتدىء الرهان بعشر ثم يضاعف أضعافا اذا اجتمع الفريقان » قالوا وبلغت مقالة الرجلين قيسا وحذيفة فضاعفا فى الرهان حتى أبلغاه الى مائة وتواعدا على السباق بعد أربعين يوماً وأن يكون مداه مائة غلوة « والغلوة مدى السهم » وأودعا الابل رجلا من بنى ثعلبة يعطيها لمن حكم بالسبق له . فلما كانت الليلة التى سيستبقان فى صبيحتها أكمن حمل بن بدر — أخو حذيفة بن بدر — فتياناً من قومه فى شعب من الشعاب المشرفة على المضمار وأمرهم ان جاء داحس سابقاً أن يردوه عن غايته وقد أمضوا فى الصباح ما بيتوه فى المساء فبرز فتى منهم الى داحس — وكان قد جاء سابقاً — فلطمه فكبا فسبقت الغبراء ، فلما انتهى الفارسان الى الغاية تلاحيا وقال كل أنا أحق بالسبق ثم تراضيا على أن يكون الرهان لقيس وعلى أثر ذلك جاء رجال من فزارة فلاموا حذيفة على نزوله عن حقه وأشعروه الندم فأرسل ابنه الى قيس يطلب منه حق أبيه فقتله قيس وقتل حذيفة مالكا أخا قيس فثارت لذلك حرب داحس والغبراء واجتمعت ذبيان بأسرها الى لواء حذيفة وجدت عبس لنصرة قيس ودامت الحرب ناشبة دهراً طويلا ثم انتهت بما أجملناه فى أصل مقالنا

وذُبْيَان قد عَصَفَت هَوْجَاؤُها بهم ، واشتدت نارها فيهم ، فلم تَذَرْ من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرَّمِيم[١] . وهَمَّ من يليهم من العرب بأن يَكْتَوُوا بضِرَامِهـا ، ويَصْطَلوا بلظاها . فلما بَصُرت به مرتدياً مَطَارِف[٢] العُرْس قالت : والله لقد ذكرت من الشرف ما لا أراه فيك ! قال : وكيف ؟ قالت : أتَفرُغ للنسَاء والعرب يقتل بعضها بعضاً ؟ قال : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم . فخرج لساعته إلى صاحبه خارجةَ بن سِنَان وقَصَّ عليـه حديث امرأته . فقال خارجة : والله انى لأرى همة وعقلاً ، ولقد قالت قولاً . قال : فاخرج بنا اليه . فخرج الرجلان فمشيا بين القوم بالصلح واحتملا حمائل[٣] القوم وَدِيَات قتلاهم فكان ما نزلا عنه ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين ! وهى لعمر أبيك ثروة للاعرابى لا تقوم بما مَلَكَ الحضرى من ضياع ، وما اختزن من أموال[٤]

ذاك شيء بلغته المرأة يومَذَاك من سموّ فى الوجود ، وإكبار للرأى ، وبلوغ من النفس . بل لقد كانت وكان الرجل العربى — وهو مَن تَعْلَمُ من صلابة العود ، ورجاحة الرأى ، وفرط الإباء — ينزل تحت حكمها ، ويَفِيء الى ظلها ، ويطمئن لسلطانها . إذا آنَسَ منها القدرة على قيادته وسياسته

وقد نبغ من النساء مشيرات آزرن أزواجهن وذويهن من الملوك والأبطال فأحسَنَّ مؤازرتهم ، وملكات قمن بالأمر من دون الرجال فابتنين مجداً لا يُطَاوَل وبلغن غاية لا ترام

*
* *

ونحن ملمون لك بحياة إمرأتين ملكتا فاختصمها التاريخ بصفحتين خالدتين اصطفاهما بآيتين بينتين . وهما : —

بِلْقِيسُ مَلِكَةُ اليمن و زَيْنَبُ مَلِكَةُ تَدْمُرُ

---

(١) الرميم العظم البالى (٢) المطارف جمع مطرف — بضم الميم وفتح الراء — أردية من الخز مربعة ذات أعلام (٣) الحمائل — جمع حمالة كسحابة — الديات يدفعها قوم عن قوم (٤) الاغانى ج ٩ ص ١٤٢ — ١٤٣

بِلْقِيس

ملكة اليمن

هنالك فوق مشارف الأرض[١]، وبين أفياء الثمَر[٢]، وخمائل الزَّهَر، وفَسَحات الأودية، ومَسَايِل الماء، قامت مدينة مَأْرِب عاصمة اليمن، وقبلة أَقْيالها، ومُسْتَقَر عَوَاهِلِها[٣]

بين يدى هذه المدينة الغانية امتدَّ سَدُّ مأرِب. مَطْلَعُ الحضارة القديمة، وآيتها الناطقة. وأَدْنَى ما يقال عنه أنه ثلاثون قنطرة ذَرعها ثلاثة أميال فى مِثْلها[٤] قد انبسط على جانبيه جنتان، هما صُنع الله وآيته وحجته على تلك الأمة الوثَّابة الطَّمُوح[٥]. ومن حول هاتين الجنتين، وبين أفيائهما، انتثرت قصور مأرب، تلك التى جاذبت دور مصر دقة الوضع، وجلال الصنع، والنزوع الى السماء، ونازعت قصور فارسَ حُسْنَ النسق، وروْعة المنظر، وجمال البناء

تلك هى مأرِب دارَةُ المُلك اليمنى فى عهد بِلْقِيس ابنة الْيَشْرَح أنفذ ملوك اليمن رأياً، وأسناهم ذكراً، وأهداهم سبيلاً.

ورثت بِلقيس عرش زوجها وأبيها، وما كان لهـا بهما من حاجة. فقد اتخذت لنفسها عرشاً بلغ من ابداع صنعه، وجمال نسقه، أن وصفه الله جل ذكره بالعظمة فقال: « وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ »

---

(١) مشارف الأرض أعاليها (٢) الأفياء — جمع فىء — الظلال (٣) أقيال اليمن — جمع قيل بفتح القاف — ملوك أقاليمها. والعاهل — وجمعه عواهل — الملك الأعظم (٤) معجم ياقوت ج ٧ ص ٣٥٤ (٥) وآية ذلك قوله تباركت آيته (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور)

وهو الذى يصفه تُبَّع بقوله :

عرشُها رافعٌ ثمانين باعا كَلَّلَته بجوهر وفريد[1]

وبِدُرٍّ قد قَيَّدَته وياقو تٍ بالتِّبر أيّما تقييد

أقامت بِلقيس فى ملكها خمسة عشر عاماً بلغت فيها من جلال الصولة وكمال القوة أنها حين ركبت إلى سليمان صلوات الله عليه سار فى ركابها مائة ألف من أمراء اليمن[2]

أما وفور عقلها ، ومضاء عزمها ، وسناء منزلتها ، واستمكانها من نفوس رعيَّتها ، فقد بلغ من أمره : أن سليمان حين أرسل إليها يُؤْذِنُها بدينه ، ويدعوها إلى سُنَّته ، كان كلُّ ما كتب إليها : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ » . فأما هى فلم تأخذها العزة بالإثم ولم يَنَلْ من نفسها أن الكتاب لم يحو تكرمةً وتبجيلاً ، ولم يذهب برُشْدِها أن صاحب الكتاب ليس له فى ذات نفسها من بسطة الملك وقوة السلطان ما لها ، بل جمعت كل من يلوذون بطاعتها من الملوك — وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثنى عشر من أقيال اليمن[3] — وبرغم كل ما أسلفنا من أمر الكتاب أحلته محلّاً كريماً فقالت : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ » ثم انثنت إليهم بعد ذلك فقالت : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ » أما هم فوقفوا دون رأيها ، ونزلوا تحت أمرها ، فقالوا : « نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ »

---

(١) الفريد الدر المنظم بفصل بين حباته جوهر آخر (٢) الطبرى عن ابن عباس ج ١٨ ص ٨٧

(٣) الطبرى عن قتادة ج ١٨ ص ٨٦

هنالك بسطت لهم أمر الحرب ، وأنها مدعاة دمار الديار ، ومَتْلَفَةَ البلاد والعباد فقالت : « إنَّ ٱلْمُلوكَ إذَا دَخلوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذٰلِكَ يَفْعَلون » ثم كشفت لهم عن وجه الرأى فقالت : « وَأَنِّى مُرْسِلَةٌ إلَيهِم بِهَدِيَّةٍ » كفيلة بأن تصرف ذوى المطامع وتجتذب بُغَاة الدنيا فإن صرفته عن قصده فهو ملك ولنا من بأسنا وقوتنا ما يَثُلّ عرشه ويَفُلّ غربه[1] وان ردَّها وصُرف عنها فعسى أن يكون نبيًّا يُبَصِّرُنا الحجة ، ويهدينا سواء السبيل

فلما جاءت رُسُلها سليمان بهديتها التى جمعت من كل شىء أسناه وأتمَّهُ قال : « أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِىَ ٱللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَل أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُم تَفْرَحُون »

حتى إذا استبانت بلقيس وضح الهدى من سليمان تبدَّلت بدين آبائها دينَ الله وكان ذلك سبيلاً إلى طمس آية المجوسية بين أرجاء اليمن

تلك آيات من الذكر الحكيم قامت بفضل المرأة ، ورجاحة عقلها ، وسماحة رأيها ، وان قوة الشوكة وعزة الملك لم تصرفاها عن ابتغاء الحق أيًّا كان سبيله ، ومن أى كان مَفِيضه

ولئن صح ما روى الفخر الرازى : أن بلقيس هى التى مَدَّت سدّ مأرب وجعلته طبقات ثلاثا بعضُها فوق بعض[2] ، لتكونَنَّ تلك المرأة مهبط وحى العظمة ومشرق نور الحضارة فى العالم كله . فأما ما بُنى قبل ذلك فجبال تعترض سَرَوات[3] الطرق ، وترهق مناسم الأرواح ، نُشرت على هاماتها ألوية الظلم ، ونُزِفت على أقطارها دماء الضعفاء

تلك هى بلقيس ربة القوم الذين راضوا الزمان ومدوا سد العَرِم وشادوا قصر غمدان .

---

(١) فل السيف ثلمه وغرب كل شىء حده

(٢) الفخر الرازى ج ٥ ص ٢٦٠ (٣) سروات الطرق أواسطها أو ما ظهر منها

زينب

ملكة تَدْمُر

مدينة قاصية قامت بين نطاق من الصحراء ، فتألق لألاؤها ، وتبلج[1] بهاؤها ، وأخذت تبدو كما شق النجمُ رداء الظلماء ، فى كبد السماء . نهضت بها امرأة من العرب ، فبسطت سلطانها ، ونشرت أعلامها ، على ما بين مجاهل السودان ، ومعالم أنقِرَة ، من مسالك وممالك ، وأمم وشعوب[2]

تلك هى تَدْمُر ، فى عهد ملكتها زينب .

تقع تدمر فى طرف بادية الشام إلى الشمال منها ، على مَدَى مائة وخمسين ميلاً من دمشق ، ومسيرة خمسة أيام من الفرات . وهى ملتقى الغادين والرائحين بين الشام والعراق . لذلك كان انتجاع أهل هذا البلد إلى ذينك القطرين لا ينقطع . ومن أجل ذلك جمعوا بين مدنيَّتى الفرس والرومان . فأُرهِفَت لذلك طباعهم ورَقَّت شمائلهم ، ونَفَذَت أفهامهم ، وطفقوا يقيمون الأبنية ترسخ أصولها فى أعماق الأرض ، وتناغى[3] مشارفها منازل الأفلاك . ومن أدل ذلك على ما تقول هيكل الشمس أو هيكل يعل . والقصر الأعظم الذى بلغ ذرعه ألفى ذراع فى مثلها . ولا تزال أطلالهما باقية تعنو لها الوجوه ، وتخشع بين أيديها القلوب

تلك هى الأمة التى قامت بأمرها زينب فبلغت بها غاية ما أسلفنا لك

تَنَقَّل الملك بزينب فى دورين : فكانت مشيرة لزوجها ، ثم وصية على ولدها وفى كلا الدورين كانت الوحى المُلْهِم ، واليد الطائلة

(١) تبلج أسفر (٢) العرب قبل الاسلام ص ٨٧ (٣) المناغاة من ناغت الأم صبيها إذا حدثته بما يسره

كانت زينب على فرط جمالها ، وعذوبة منطقها ، وسماحة أسلوبها ، ونفاذ لبها ، وعظمة قلبها ؛ من أشد الناس بأساً ، وأمضاهم عزماً ، وأرسخهم فى الحروب قدما .

وكانت إذا وقفت الصفوف ، وأُشرعت الرماح ، والتمعت الأسنة ؛ تتقلد سيفها ، وتعتقل رُمحها ، وعلى رأسها خُوذَة[١] مُرَصَّعة بالدر والياقوت ، وقد تَدَلَّت فوق غلائلها أهداب من الحرير الأرجُوانى ، ثم تمر بين الصفوف مُجَرّدة يُمْنَى ذراعيها كما يفعل أبطال اليونان والرومان ، فيُذهَل القوم عن نفوسهم ، وتملك عليهم مشاعرهم ، حتى تكون أبصارَهم التى بها يبصرون ، وأيديَهم التى بها يبطشون ، وقلوبهم التى بها يشعرون ، ثم ينصَبُّون على أعدائهم كما تنصَبُّ النار على هشيم الكلأ . بذلك افتتح جندها ما افتتحوا من بلاد ، واقتحموا ما اقتحموا من معاقل . ولذلك أشادت الأمم قديماً بذكرها ، وأفسحوا لأخبارها وسِيَرها المكان الأوفى من صدور تاريخهم . وبطون صحائفهم

وكانت زينب تجيد لغات الفرس واليونان والرومان وأخلاط من يليها من شعوب وقبائل .

على أن هذه الجمرة المستطيرة نكبت فى آخر عهدها نكبة لم تجد لها من مُقيل . فقد فجأتها جنود الرومان معقودة اللواء بكف أورليان وكان فى جيشها جمع لا يُحصَوْن عدداً ممن انحسر عنهم ظل الروم فى عهدها ، يولونها ظاهر الطاعة وزمام قلوبهم بأيدى سادتهم الأقدمين ، فكانوا نواجم الفتنة والاضطراب فى جندها . وكان سبيل ذلك أن تراجعت جنودها مرة بعد مرة حتى آل أمرها إلى التسليم

(١) الخوذة المغفر وهو ما يلبسه الدارع فوق رأسه من الزرد

لعدوها سنة ٢٨٢ م . فأخذت أسيرة إلى رومة ثم أعيدت إلى موطنها لمكانها من نفوس قاهريها فعكفت على عزلتها ونسكها حتى ماتت

هذا وللعرب حديث عن ملكة تدمر يعزب لب الناقد عنه ، وتضل حقائق التاريخ دونه . وهم يَدْعونها الزَّبَّاء[1] ، وينسبون إلى عمرو بن عَدِيّ اللَّخْمى أنه قادها إلى الموت إنتقاماً لخاله جَذِيمة بن مالك ملك الحِيرة ، ويزعمون أن عمراً خبأ لها الرجال فى الغرائر

وتلك لعمرك أشبه بأساطير الأولين ، منها بحقائق المؤرخين ، والله بكل شىء عليم



(١) معنى الزباء الكثيرة شعر الحاجبين والعينين ولعل ذلك مما غلب على ملكة تدمر

السباء والوأد

أما بعد فانّا لا نخدع التاريخ فى ماضيه ، فنمثله زهراً لا شوك فيه . فلئن كان من الحب ما يُمِضُّ ويؤذى ، ومن الصداقة ما يضر ويؤلم ، لقد أصيبت المرأة العربية فى سبيل اعزازها والحرص عليها بلوازع بلغت فى بعض المواطن حبة قلبها ، ومستقر حياتها ·

فمن ذلك السباء . وذلك أن العرب كانوا يُعْقِبُون صفوف القتال بنسائهم ، وذوات أرحامهم ، تثبيتاً لأنفسهم ، وتشديداً لعزائمهم . وربما أحيط بهم ، وغلبوا على أمرهم ، فيكون همُّ الظافر أن يتخذ نساء المقهور سبايا يسوقهن إلى بيته ، ويحتكم فيهن كما يحتكم فى ماله ، لا لحاجته إليهن ، بل ليقطع باستلابهن آخر عرق ينبض من قلب عدوه فيعيش ذليل الناصية ، مُقَنَّع الوجه أمَدَ الحياة .

على أنهم وان غلظت الى هـــذا الحد أكبادهم على أعدائهم فهم يعرفون لسباياهم منازلهن بين قومهن فيخلطونهن بأنفسهم ، إلا قليلاً ممن أَرَّثَ[1] الحقد صدورهم ، وملكت الضغينة منازع الرحمة من قلوبهم . وفى أولى الحالتين يقول حاتم بن عبد الله الطائى :

فما أنكحونا طائعين بناتِهم ... ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادها فينـــا السباء مذلة ... ولا كُلِّفت خبْزاً ولا طبخت قِدرا
ولكن خلطناها بخـــير نسائنا ... فجاءت بهم بيضاً وجوهُهم زُهْرا
وكائن ترى فينا من ابن سَبِيَّةٍ ... إذا لقى الأبطال يطعنهم شَذْرا

(١) أرث النار أوقدها

ويأخـذ رايات الطعان بكفه فيوردها بيضاً ويُصدِرُها حمرا
كريم إذا اعتز اللئيم تخاله إذا ما سرى ليل الدجى قمراً بدرا

وهناك كثير من سادات العرب وذوى زعامتهم انكشفت عنهم السبايا فلم يضع ذلك من منازلهم أو يُهَجِّنْ من أحسابهم . ومن بين أُولئك دُرَيدُ بن الصِّمَّة حكيم العرب وشاعر فرسانهم وفارس شعرائهم وأُمُّه رَيحانة بنت معد يكرب أسرها الصِّمَّة بن عبد الله ثم تزوجها فأنجبت دريداً واخوته . وهى التى يقول عمرو فى حديث إسَارِها

أمِن رَيحانةَ الداعى السَّميعُ يؤَرِّقنى وأصحـابى هُجُوع
سباها الصِّمَّةُ الْجُشَمِىُّ غصبا كأنَّ بياض غُرَّتِها صديع[1]
وحالت دونهـا فرسان قيس تَكَشَّفُ عن سواعدها الدروع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى مـا تستطيع

وبرغم كل ذلك كان النساء يبذلن ما ملكن من جُهد وحيلة فى الخلاص من الأسر ولو إلى الموت أنفة واستحياء وابقاء على ذكر آلهن وذويهن . ومن أمثلتهن فى ذلك : « المنية ولا الدنية » كما حدثوا أن فاطمة بنت الْخُرْشُب لما أسرها حَمَل بن بدر رمت بنفسها من الهودج منكسة فماتت[2] . ومن أمثال العرب : « شرُّ يوميها وأغواه لها » وأصل ذلك أن امرأة من طَسْم يقال لها عَنْز أُخذت سَبِيَّة فحملوها فى هودج وألطفوها بما ملكت ألسنتهم وأيديهم فقالت عند ذلك : « شرُّ يوميها وأغواه لها » تريدان شر أيامى حين صرت أكرم للسباء[3]

---

(١) الصديع ضوء الفجر (٢) الأغانى ج ١٦ ص ٢١
(٣) لسان العرب ج ٧ ص ٢٥٠ والميدانى ج ٢ ص ٤٢٣

بل ربما تزوج الرجل بسبيته وأقام بها أمداً طويلاً مقام العشير الكريم من عشيرته الوفية ، حتى إذا أتاح لها القدر معاودة أهلها أقامت بينهم وأنفت أن تعود سيرتها الأولى من زوجها وبنيها . ومن ذلك ما حدث به احمد بن معاوية الباهلى قال : أن رجلاً من العرب استبى امرأة فولدت له سبعة بنين ثم قالت له : أَزِرْنى أَهلى ليذهب اسم السباء عنى ، ففعل . فلما نزلت بقومها وتذاكروا ما فى السباء من ذل وعار قالت لزوجها : قد أبى القوم إلاّ أن ينتزعونى منك . فقال : لا أُفارقك حتى تثنى علىّ بما تعلمين . فقالت : العشية إذا اجتمع القوم . فاجتمعوا وحضر الرجل وزوجه فقال :

نشدتك هل خُبِّرْتِنِى أَو علِمْتِنِى ... كريماً إذا اسود الكراسيع أزهرا[1]

فقالت : نعم . فقال :

نشدتك هل خبرتنى أو علمتنى ... شجاعاً إذا هاب الجبان وقصرا

فقالت : نعم . فقال :

نشدتك هل خبرتنى أو علمتنى ... صبوراً إذا ما الشىء ولّى وأدبرا

قالت : نعم . فانصرف نادماً حزيناً وهو يقول :

تُبَكِّى على ليلى بحق بلادها ... وأنت عليها بالملا كنت أقدرا[2]

ومثل ذلك ما فعلت سَلْمَى الكنانية زوج عروة بن الورد

وكان عروة شاعراً بطلاً كريماً . وله فى صفاته تلك مواقف لا يستهان بها ، وكان قد أصاب سلمى فى غزاة غزاها لبنى كنانة ، فأعتقها وتزوجها وحلّت من نفسه وعشيرته محلاً كريماً ، فأقامت عنده بضع عشرة سنة . وولدت له أولاداً ،

---

(١) نشدتك حلفتك . والكراسيع — جمع كرسوع — وهو طرف الزند مما يلى الخنصر وسواد الكراسيع كناية يكنون بها عن البخل واللؤم (٢) بلاغات النساء

وهو لا يشك فى أنها أرغب الناس فيه . وكانت تقول له : لو حججت بى فأمُرَّ على أهلى وأراهم ؟ فخرج بها، فأتى مكة ثم أتى المدينة فنزل فى بنى النَّضير — وكانت له بهم صلة وصداقة — وكان قومها يخالطون بنى النَّضِير فأتوهم وهو عندهم ، فقالت لهم سلمى : أنه خارج بى قبل أن يخرج الشهرُ الحرام[1] فتَعالَوا إليه وأخبِرُوه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب صحيحتُهُ سبَيَّةً وافتدونى منه فانه لا يرى أنى أفارقه ولا أختار عليه أحداً . فأتوه فسقوه الشراب . فلما ثمل قالوا له : فَادِنَا بصاحبتنا فانها وسيطة النسب فينا معروفته ، وان علينا سُبَّةً أن تكون سبية ، فاذا صارت إلينا وأردت معاودتها فعلنا . فقال لهم : ذلك لكم . ولكن لى الشرط فيها أن تخيروها ، فان اختارتنى انطلقت معى إلى ولدها . وان اختارتكم انطلقتم بها ، قالوا : ذلك لك . فلما كان الغد جاؤوه فامتنع من فدائها . فقالوا له : قد فاديتنا بها منذ البارحة ، وشهد عليك بذلك جماعة ممن حضر . فلم يجد إلى الامتناع سبيلاً ، وفاداها . فلما فادوه بها خيروها ، فاختارت أهلها ، ثم أقبلت عليه فقالت : يا عروة أما أنى أقول فيك — وان فارقتك — الحق : والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سِترها على بعل خير منك . وأغضَّ طرفاً ، وأقلَّ فحشاً ، وأجودَ يداً ، وأحمى لحقيقته ، وما مَرَّ علىَّ يوم منذ كنت عندك إلاّ والموت فيه أحب إلىَّ من الحياة بين قومك ، لأنى لم أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أَمَةُ عروة كذا وكذا — إلاّ سمعته والله لا أنظر فى وجه غَطَفانية أبداً ، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم .

فانصرف عنها حزيناً حسيراً . وفيها يقول قصيدته التى مطلعها :

أرِقت وصُحبتى بمضيق عُمْقٍ ... لبرق من تِهامةَ مُستطير

سقى سلمى وأين ديار سلمى ... إذا كانت مجاورة السَّدير[2]

---

(١) تريد قبل أن يظهر هلال الشهر الحرام (٢) الأغانى ج ٢ ص ١٨٥

أَقول : ولم يكن غريباً عند العرب أَن تفعل المرأة ما فعلته سامى إذا استطاعت إلى الخلاص سبيلاً . ولكن الغريب أَلَّا تفعله وهى قادرة عليه . كما حدثوا أَن ربيعة أُغير عليهم ، فسبيت ابنة لأمير لهم ، فجَهد الأمير فى استردادها . حتى إذا خُيِّرت بين أَبيها وسابيها ، آثرت من هى عنده . فراعَ الأميرَ ذلك ، وغضب له قومه ، وسَنَّ لهم وأْد البنات ، وسنوه هم لمن سواهم ، ويروون شبيه ذلك عن قيس بن عاصم

* * *

أَما الوأْد فأشد وأَشنع ما اقترفته يد ظالمة آثمة ، فى نفس بريئة طاهرة . وذلك أَن يعمد الرجل إلى وليدته وقد بدأَت تستقبل الوجود وتستنشى نسيم الحياة ، فيقذفها فى حفرة من الأرض ، ويَهيل على جسمها التراب ، ثم يدعها فى غمرة الموت بين طِباق الأرض ! ! . ولو أَننا افترضنا تلك الجريمة الموبقة بين جمهور العرب لما آمنا بتلك الجيوش الخضارم[1] التى وطئت نواصى الأرض ، وطوّقت أعناق الأمم ، وهم أبناؤهم وحَفَدَتهم . والحق أن الوأد لم يكن معروفاً إلاَّ فى فرائق من ربيعة وكِنْدة وتميم ، وأفذاذ[2] مغمورين لا يُعَدُّون قلةً من مختلف القبائل[3] وهم بين رجلين : رجل أملق من عقل ومال ، فهو يخشى أن يسىء الفقر الى أدب ابنته ، ويهتك من سترها ، ويبذل من عرضها . وذلك جبان لا عزم له ولا ثقة ولا إيمان . والعرب براء منه . وآخر من سَراة القوم ذهبت بعقله الغَيرة ، وهوى بنفسه الإِشفاق من تبدل الحوادث ، وتداول المَثُلاَت[4]، وما عسى أن يصيبها من ذل أو سباء . وذلك وأمثاله شرٌّ مكانًا وأقل عدداً

---

(١) الخضارم — جمع خضرم بكسر الخاء والراء — الكثير الوفير من كل شىء (٢) أفذاذ — جمع فذ — أفراد (٣) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٤٢ — ٤٣ (٤) المثلات — جمع مثلة — العبر

ذلك وقد نهض من سادات العرب من حال دون الوأد بما بذل من مال جم، وسعى حميد.

ومن بين هؤلاء صَعْصَعَة بن ناجية التميمى. فقد كان يتامس مَن مسها المخاض فيغدو اليها ويستوهب الرجل حياة مولوده إن كان بنتاً على أن يبذل له فى سبيل ذلك بعيراً وناقتين عُشَرَاوَين[١]. فجاء الاسلام وقد افتدى أربعمائة وليدة[٢]

ومنهم زيد بن عمرو بن نُفَيل القرشىّ. كان يضرب بين مضارب القوم فاذا بَصُر برجل يَهُم بوأد ابنته قال له: لا تقتلها، أنا أكفيك مؤونتها. فيأخذها ويلى أمرها حتى تشِبّ عن الطوق فيقول لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها[٣]

وللعرب غير السباء والوأد هَنَوات ظلموا بها المرأة، وموعدنا بذكرها والوفاء بها عند الكلام عن المرأة العربية فى عهد إسلامها إن شاء الله.

ولعمرى اذا نحن أرخينا الستر على تلك المظالم وضربنا صفحاً عن أولئك الوائدين من القوم، فانا واجدو العرب من وراء ذلك يكادون يذوبون عطفاً وحناناً على بناتهم، فهم ينزلون عما ملكت أيمانهم اغلاء لهن، وايثاراً للعز والنعمة والدلال فيهن. وأذكر أن صعصعة بن معاوية خطب الى عامر بن الظَّرِب حكيم العرب ابنته عمرة فقال: يا صَعْصَعة، إنك أتيتنى تشترى منى كَبِدى، فارحم وَلدى قبلتك أو رددتك، والحسيب كفء الحسيب، والزوج الصالح أب بعد أب، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك، أفِرُّ من السر إلى العلانية. يا معشر عَدْوَان خرجَتْ من بين أظهركم كريمتكم، من غير رهبة ولا رغبة؛ أقسم لولا قَسْم الحظوظ على الجدود، ما ترك الأول للآخر ما يعيش به[٤]

(١) الناقة العشراء التى أتى عليها من وقت حملها عشرة أشهر (٢) الأغانى ج ١٩ ص ٣
(٣) تيسير الوصول ج ٣ ص ١١٣ (٤) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٢

(٢)
سمو أدبها ونفاذ لُبّها

أن المرأة التى انحسرت عن أشد أمم الأرض بأساً ، وأسماها نفساً ، وأدقّها حِسًّا وأرسخها فى المكرُمات أقداماً ، وأرفعها فى الحادثات أعلاماً ، وأوفرها فى المشكلات أحلاماً ، وأمدّها فى الكرم باعاً ، وأرحبها فى المجد ذراعاً ؛ تلك المرأة التى انحسرت عن هـذه الأمة ، وأحَلَّها الرجل أسمى المواطن من نفسه ورأيه ومشورته ، لحرىٌّ بالقلم أن يقف دون وصفها خاشعاً متراجعاً

نشأت المرأة العربيـــة ونشأ معها نصيبها من عزة الجانب وحرمة الرأى . « وقد علمت مما أَسلفنا لك وستعلم مما يمر بك أنها بلغت منهما غايتهما » فأنالها ذلك فضل ما وصلت إليه من شرف النفس ، ومضاء القلب ، ونفاذ الرأى ، وسموّ العاطفة .

أن المرأة التى سُلِبَتْ نفسَها ورأيَها ، وحُرمت نصيبَها من الوجود ، ووُسِمَتْ بوِسام[١] من الذل والهوان ، لا تَـكون امرأَة فاضلة ، ولا تنكشف عن أُمَّة فاضلة . ذلك لأن المرأة اذا استشعرت المهانة من ذويها هانت عليها نفسها . وأَحر بمن هانت عليه نفسه أَلا يمتنع عن دنِيّة ، ولا يعتصم من منقصه .

كل ذلك أدركه العرب منذ التاريخ القديم . فقد ذكر كلاى (Clay)[٢] — فيما وصل من مباحثه عن دولة بابل الأولى أو العمالقة الأقدمين (٢٤٦٠ — ٢٠٨١ ق . م) — أن المرأة يومذاك كانت ممتعة بحرياتها كاملة غير منقوصة وانها كانت هى والرجل على سواء فى تصريف الرأى ، وتسنُّم المناصب

---

(١) الوسام ما وسم به الحيوان (٢) Clay 166 ويذكرنا قول كلاى هذا بما روى الميدانى أن أول مثل قالته العرب قولهم « المرأة من المرأة وكل أدماء من آدم » يريدون أن ليس هناك ما يفرق بين المرء والمرأة . واذا علمت أن الأمثال كلمات خلقت مع العرب وخلطت بماء نفوسهم فما ظنك بأول أمثالهم والى أين يصل الظن بعهده ويوم مقاله

كذلك كان نساء العرب منذ أربعة وأربعين قرناً لا فرق بينهن وبين أحدث نساء هذا العصر مدنية إلا أنهن فطرة الله وصِبْغته، ونثار الطبيعة وأنوارها[1]، لم تثقلهن كلْفة، ولم تحجب صفاءهن صناعة. قلب نقيّ، ووجه غير مخضوب ان الكذب والزور والخديعة والخيانة وأشباه تلك الدنايا لا تجد السبيل إلى قلب المرأة العربية، لأنها جميعاً من فضول النفس الضعيفة، وهى بمنجاة عن ذلك الضعف.

وأين للضعف من سبيل إلى المرأة التى تقول وقد استَحَرَّ القتل بقادتها والُحْمَاةِ المدافعين عنها:

أبوا أن يفروا والقَنَا فى نحورهم ... ولم يبتغوا من رهبة الموت سُلَّما

ولو أنهم فروا لكانوا أعزة ... ولكن رأوا صبراً على الموت أكرما

تلك هى المرأة العربيـة فى قَصِىّ عهدها، وبعيد أمدها. قوة فى حياء، ورقة فى مضاء، وذكاء فى صفاء، ورعى ووَفاء، وصبر على اللَّأْوَاء، وحَدَب على الأزواج والأبناء.

ونحن أولاء موفون لك الكلام على المرأة العربية فى حياتها الزوجية، ثم فى عهد الأمومة، ثم فى حياتها العامة.

حياتها الزوجية

ما أسبغ الله على امرئ نعمةً أعظم أثراً، ولا أسنى خَطَراً، ولا أجمع لشَتَات النعم، ولا أجلَبَ لنعيم الحياة من المرأة الصالحة. هى عُدَّة فى الشدة، وزينة فى الرخاء. هى منار أمل الرجل، منها يستمده، وبها يستفيده، وإليها يعود به.

تلك هى المرأة الصالحة. فأما أحفل مشاهدها، وأخصب منابتها، فبين تلك

(١) أنوار — جمع نور بفتح النون — وهو الزهر أو الأبيض منه

المهامه[1] القَفْرة ، والأطلال البالية من بلاد العرب . وإليك آية ما نقول :

يقوم صلاح الزوجة على دعائم ثلاث إذا تكاملت لها وتوافرت فيها صُرِفت عن كل شيء إلاَّ الوفاء بواجبها

أُولاها : حسن اختيارها . الثانية : رعايتها وبذل الود والوفاء لها . الثالثة : شرف الرجل وعفته وبعد همته

اختيار الزوجة

كان مرجع العربى فى اختيار عشيرته إلى شرف الحسب وسناء الذكر، وليس بضائره ما عسى أن ينال ذلك من فقر وإقتار . . بل قد يطلب السيد الكريم فى زوجه أَن يخالط شرفَها فراغُ يدها حتى يدرأَ بذلك ما عسى أن يحدثه الثراء من الصَّلَف والكبرياء ، فقد نزع قيس بن زهير سيد عبس وبطلها إلى النَّمِر بن قاسط[2] بعد أن أسرف فى الدماء يوم الهَبَاءَة[3] فقال :

---

(١) المهامه — جمع مهمه — المفاوز البعيدة (٢) بطن من بطون ربيعة (٣) الهباءة مستنقع ببلاد غطفان وقعت دونه وقعة رائعة من وقائع « داحس والغبراء » فيها استحر القتل بالفريقين من عبس وذبيان حتى انتصف النهار وحجز الحر بينهم . فلما تحاجز الفريقان أقبل حذيفة ابن بدر ومن معه من سادات ذبيان الى جفر الهباءة — والجفر البئر الواسعة — ليتبردوا فيه فعلم قيس ابن زهير بمسيرهم فتأثرهم هو وخاصة أصحابه ووقفوا بهم والسيوف مصلتة بأيديهم وأخذ قيس ينادى بملء فيه لبيكم لبيكم — يخاطب أطفالا من عبس كانوا رهائن عند حذيفة فغدر بهم حذيفة وأخذ ينصب الطفل غرضاً على مشهد من قومه ويقول ناد أباك فينادى أباه فلا يزال يرميه بالنبل حتى يموت — فقال حمل بن بدر نشدتك الرحم ياقيس فقال قيس لبيكم لبيكم وقال حذيفة خذ بنى حمل بابنائكم ونرد السبق فقال قيس ابيكم لبيكم ثم عمدوا الى القوم فزقوهم بالسيوف ومثلوا بجثمان حذيفة تمثيلا معيبا وأدركت قيسا الملامة مما فعل وساوره الحزن على حمل بن بدر فقال فيه :

تعلم ان خير الناس ميت … على جفر الهباءة لا يريم
ولولا ظلمه ما زلت أبكى … عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر … بغى والبغى مرتعه وخيم
أظن الحلم دل علىّ قومى … وقد يستجهل الرجل الحليم
ألاقى من رجال منكرات … فأنكرها وما أنا بالظلوم
ومارست الرجال ومارسونى … فمعوج علىّ ومستقيم

يا معشر النَّمِر ، نزعت اليكم غريباً حزيناً ، فانظروا الى امرأة أتزوجها ، قد أَذَلَّها الفقر ، وأَدَّبها الغنى ، لها حَسَب وَجَمَال . فزوجوه على هيئة ما طلب فكانت آثر الناس عنده وأذهبهم لبلواه[1]

ومنهم من كان يخطب فى المرأة سعة الحيلة ، ومضاء الذكاء . وما أرادوا بذلك إلا أن يكون ذكاؤها تراثا لبنيها . كما زعموا أن امرأ القيس الكندى آلى بأليَّة[2] أَلا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين . فجعل يخطب النساء فإذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر . فبينا هو يسير فى جوف الليل إذا برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمامه ، فأعجبته ، فقال : يا جارية ما ثمانية وأربعة وثنتان . فقالت : أما ثمانية فأَطْبَاء الكلبة[3] ، وأما أربعة فأَخْلَاف الناقة ، وأما اثنتان فثديا المرأة . فخطبها إلى أبيها ، فارتضى خِطبَتَهُ ، وشرطت هى عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال ، فجعل لها ذلك ، وعلى أن يسوق إليها مائة من الإبل . فلما بلغ الموعدُ استاق اليها الإبل ومولًى له معه ، حتى إذا كانا ببعض الطريق وامرؤ القيس على شفير بئر يشرب رمى به مولاه ، وذهب بالإبل حتى أتى الفتاة . فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ؟ ولكن انحروا له جَزُوراً[4] وأطعموه من كَرِشها وذنبها[5] . ففعلوا . فقالت : اسقوه لبناً حاذراً[6] . فسقوه فشرب . فقالت : افرشوا له بين الفَرْث والدم[7] . ففرشوا له ، فنام . فلما أصبح قالت : عليكم العبدَ فشدوا أيديكم به . ففعلوا . وما عرفت ذلك منه إلا لرضاه بالدنية وقراره على الهوان

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٣ (٢) آلى بألية أقسم يمينا (٣) الأطباء — جمع طبي — بضم الطاء وكسرها — حلمات ضرع الحيوان ومثلها الاخلاف — جمع خلف بكسر الخاء — للبهائم . ومثلها الاثداء جمع ثدى للمرأة (٤) الجزور الناقة المجزورة وجمعها جزائر وجزر (٥) حتى تعرف ان كان لئيم الحسب فيأكل أو شريفاً فيمتنع (٦) حاذراً حامضاً (٧) الفرث الروث فى الكرش

قالوا : ومرَّ قوم فاستخرجوا امرأَ القيس من البئر فعاود حيّه واستاق مائة من الإبل وقصد إلى فتاته ، فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ؟ ولكن انحروا له جزوراً فأطعموه من كرشها وذنبها . فلما أتوه بهما قال : وأين الكَبِد والسَّنَام ؟ وأبى أن يأكل . فقالت : اسقوه لبناً حاذراً . فأباه ، وقال : أين الصريف والرثيئة[1] ؟ فقالت : افرشوا له بين الفرث والدم . فأبى أن ينام ، وقال : افرشوا لى فوق التَّلْعَة[2] الحمراء ، واضربوا عليها خباء . ثم أرسلت اليه : هلم شريطتى اليك فى المسائل الثلاث . فأرسل اليها أن سلى عما شئت . فقالت : مِمَّ تختلج شَفَتَاك[3] ؟ قال : لشربى المُشَعْشَمات[4] . قالت : فمِم يختلج كشحاك[5] ؟ قال : للبس الحِبِرَات . قالت : فمِم يختلج فخذاك ؟ قال : لركض المطهَّمات[6] . قالت : هذا زوجى لعمرى فعليكم به ، ودونكم العبد فاقتلوه[7] .

وهل أتاك حديث « شَنّ » — وكان رجلاً من دهاة العرب وعقلائهم — إذ قال : والله لأُطَوِّفَنَّ حتى أجد امرأة مثلى أتزوجها . فبينما هو فى بعض مسيره إذ وافقه رجل فى الطريق ، فسأله شَنٌّ : أين تريد ؟ فقال : موضع كذا — يريد القرية التي يقصدها شَنّ — فوافقه ، حتى إذا أخذا فى مسيرهما قال له شَنٌّ : أتحملنى أم أحملك ؟ فقال له الرجل : يا جاهل أنا راكب وأنت راكب ، فكيف أحملك أو تحملنى ؟ ! فسكت عنه شَنٌّ . وسارا حتى إذا قرُبا من القرية إذا بزرع قد استحْصَد[8] . فقال شَنٌّ : أتَرَى هذا الزرعَ أُكِل أم لا ؟ فقال له الرجل : يا جاهل تَرَى نبتاً مُسْتَحْصِداً فتقول أُكِل أم لا ؟ ! فسكت عنه شَنٌّ . حتى

---

(١) الصريف الخمر الطيبة أو اللبن لا يمزج بشىء والرثيئة أن تحلب حليباً على حامض فيروب ويغلظ (٢) التلعة مجرى الماء من أعلى الوادى الى بطون الأرض (٣) الاختلاج الاضطراب أحياناً (٤) الخمر المشعشعة الممزوجة بالماء (٥) الكشح ما بين الخاصرة الى الضلع الخلف (٦) الركض الاسراع والمطهم من الخيل الحسن التام كل شىء منه على حدته (٧) الأغانى ج ٨ ص ٧١ — ٧٢

(٨) استحصد الزرع حان حصاده

إذا دخلا القرية لَقِيَتْهُما جِنَازة ، فقال شَنٌّ : أترى صاحب هذا النعش حيًّا أو ميتاً ؟ فقال له الرجل : ما رأيت أجهل منك ! ترى جِنَازة تسأل عنها أميت صاحبها أم حيٌّ ؟ ! فسكت شَنٌّ وأراد مفارقته ، فأبى الرجل أن يتركه حتى يصير به إلى منزله ، فمضى معه . وكان للرجل بنت يقال لها «طَبَقَة» ، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه . فأخبرها بمرافقته إياه ، وشكا اليها جهله ، وحدثها بحديثه . فقالت : يا أبت ما هذا بجاهل ! أما قوله : أتحملنى أم أحملك ؟ فأراد أتحدثنى أم أُحدثك ، حتى نقطع طريقنا . وأما قوله : أترى هذا الزرع أُكِل أم لا ، فأراد هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا . وأما قوله فى الجِنَازة ، فأراد هل ترك عقباً يحيا بهم ذِكْرُه أم لا . فخرج الرجل فجلس إلى شنّ ، فحادثه ساعة ، ثم قال : أتحب أن أُفسر لك ما سألتنى عنه ؟ قال : نعم . ففسره . فقال شن : ما هذا مِن كلامك ، فأخبرنى مَن صاحبه ؟ قال : ابنة لى . فخطبها اليه ، فزوجه إياها ، وحملها إلى أهله . فلما رأوها قالوا : وافق شَنٌّ طَبَقَة . فذهبت مثلاً لكل اثنين متوافقين[1] .

وكان مرجع الرأى فى الأمر كله إلى الفتاة . فقد كان لها — إذا ذُكِر عن خطيبها ما يُهجّنه ، أو وُصِف منه ما ينبو الطبع عنه ، أو نزلت من الأمر على ما يحول دون الزواج به — أن تَرُدَّ خِطْبَتَهُ ، وليس لأهلها أن يساقوها قسراً اليه . بذلك تجمل أشرافهم واستَنّ فى أثرهم مَن دونهم . وفى سبيل ذلك أبت الخَنْسَاء بنت عمرو بن الشَّريد أن تساق إلى دريد بن الصِّمة — وكان سيد قومه وفارسهم وشاعرهم — لأن بينهما من تفاوت السن ما يرنّق[2] صفو العيش ويسىء طبع العشير

ولما أقبل سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب على عتبة بن ربيعة يخطبان اليه ابنته هندا عرض عليها أمر كل منهما وحسر لها عن بَيِّنة أمره فى نفسه ،

(١) مجمع الأمثال ج ٢ ص ٢١١ (٢) يرنق يكدر

وأسرته ، وعشيرته ، فآثرت أبا سفيان فزُوِّجت منه .

وقالوا : ان الحارث بن سَلِيل الأسدى زار عَلْقَمة بن خَصَفة الطائى — وكانا حليفين ، وكلاهما سيد قومه — فأبصر ابنته الزباء — وكانت كأجمل أهل دهرها — نخطبها اليه ، فقال له علقمة : أنت كفء كريم يُقْبَل منك الصفو ويُؤْخَذ منك العفو ، فأقم ننظر فى أمرك — وأبى أن يَقْطَع القول له — ثم انكفأ إلى أمها فقال لها : ان الحارث بن سَلِيل سيد قومه حَسَباً ومَنْصِباً[2] وبيتاً وقد خطب الينا الزباء فلا ينصرفن إلا بحاجته . فنهضت المرأة إلى ابنتها ، وأنشأت تؤامرها[3] فى أمر الحارث — وكان الحارث شيخاً لا شباب فيه — فكان أول ما بدأتها أن سألتها : أىُّ الرجال أحب اليك الكهل الجَحْجاح[4] ، الواصِلُ المَنَّاح[5] ، أم الفتى الوضَّاح[6] ؟ وهنالك تجاذبا الحِوار[7] فى أيهما أمثل بالفتاة وأولى لها . وكلٌّ يؤثر شكله ، ويضرب الأمثال فى نفاذ قوله . على أن الأمَّ كانت أدلَّ بحجتها . فنزلت ابنتها دون رأيها . . . فهل رأيت مدى فى الحرية أبعد من هذا[8] ؟

وشبيه ذلك ما حدثوا أن زَيْد الخيل[9] ، وأوس بن حارثة ، وحاتم بن عبد الله الطائيّين نزعوا إلى ماويَّة ابنة عَفْزَر احدى ملكات الحِيرَة[10] يخطبونها ، فقالت : لِيَصِف كل إنسان منكم نفسه . فقال زيد : أنا زيد الخيل ، تفخر بى طيّئ على العرب ، ولى فى كل مِرْباع[11] غنيمة ، وغزوت ثلاثاً وسبعين غزاة ، لم تشكل طائية

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٤ (٢) المنصب الأصل (٣) آمره شاوره

(٤) الجحجاح السيد وجمه جحاجح وجحاجحة وجحاجيح (٥) المناح الكثير العطاء

(٦) الوضاح الجميل (٧) الحوار المحاورة (٨) أمثال أبى هلال ص ١٨٣ — ١٨٤ والميدانى ج ١ ص ٨١ — ٨٢ (٩) زيد الخيل بطل من أبطال العرب وسيد من سادات طيء لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى يديه أسلم وقال فيه صلى الله عليه وسلم : ما وصف لى أحد من العرب الا رأيته دون ما وصف لى الا زيد الخيل فقد رأيته فوق ما وصف . وسماه رسول الله زيد الخير

(١٠) كذا يقول صاحب الأغانى ويقول صاحب لسان العرب انها كانت قينة من قيان الحيرة وأظن ذلك بعيداً عن الحق فكيف لامرأة مبتذلة ان يسارع ثلاثة من هامات العرب الى زواجها

(١١) المرباع ربع الغنيمة الذى كان يتقاضاه الرئيس فى الجاهلية . يريد : ان له على كل رئيس سلطاناً

فيها ولداً ، ولم تُفْجَع فيها بخليل ، ولم أخب فى شىء منها ، ثم إنى لم أُرُدَّ سائلاً ، ولم أُلَاحِ[١] جاهلاً ، ولم أنطق باطِلاً ، ولم أبت على وَغَم[٢] . فقال أوس : أوَّلُ ما أخَذْتُ من لحيتى قامت سُعْدَى فالتقطت كل شعرة سقطت منها فأعتقت بها نسمة من معد . فقال حاتم : أنهبت مالى ثلاث عشرة مرة ، وأَحَلَّتْ لى طيٌ أموالها ، آخذ ما شئت وأدَع ما شئت . قالت : هاتوا بذلك شعراً . فتنازعوا ذلك القول شعراً . فلما انتهوا قالت : أما أنت يا زيد فقد وَتَرْت العرب ، فمقام الحرة معك قليل . وأما أنت يا أوس فرجل ذو ضرائر ، والدخول عليهن شديد . وأما أنت يا حاتم فرجل كريم المُنْتَسَبَ ، قريب المنصب ، وقد تزوجتك ، ورضيت بك . فتزوجها[٣]

وقد أسلفنا لك حديث أوس بن حارثة ، ومؤامرَته بناتهِ فى زواجهن، وفيه بلاغ

وَقلَّ أن غُلِبت امرأة من العرب فى أمر زواجها على أمرها . ومن حديثهم أن ملكاً من ملوك غسَّان[٤] كان يَغْدِر النساء ، لايبلغه عن امرأة جمال إلاَّ أخذها ، غيرَ آبه برأيها ورضاها ، فأخذ بنت يزيد بن الصَّعِق الكِلاَبى — وكان أبوها غائباً — فلما قَدِم الخبر، فوفد إليه ، فصادفه مُنْتَدِياً[٥] — وكان الملك إذا انتدى لا يُحجَب عنه أحد — فوقف بين يديه فقال :

يأيها الملك المُقِيت[٦] أَما ترى ليلاً وصبحاً كيف يختلفان

هل تستطيع الشمس أن تأتى بها ليلاً وهل لك بالمليك يدان

فأعلمْ وأيقن أن ملكك زائل وأعلم بأنَّ « كما تَدين تُدَان »

---

(١) الملاحاة المشادة فى القول والافراط فى الجدل فيه (٢) الوغم الثأر أو الحقد أو القهر

(٣) أمثال أبى هلال ص ١٥٤ والأغانى ج ١١ ص ١٠٤ — ١٠٦ (٤) هم ملوك الشام وهم بقية من ملوك اليمن (٥) انتدى الرجل جلس فى نادى قومه (٦) المقيت المقتدر

فأجابه الملك فقال :

إن التى سَلَبت فؤادَك خُطَّةٌ ... مرفوضة مِلْآنَ[1] يا ابن كلاب

فارجع بحاجتك التى طالبتها ... والحق بقومك فى هِضَاب إراب

ثم نادى أن هذه السُّنَّة مرفوضة[2]

وربما اختارت المرأة لنفسها وهى فى الشرف الصميم ، والمجد القديم ، من قومها ، فلا لوم ولا نكير ، وما كانت تخطب منه إلا صفو الخلق ، وكرم الضريبة . فقد وُصف لخديجة بنت خويلد محمدُ بن عبد الله — صلوات الله عليه — وما كمله الله به ، من أدب طاهر ، وخُلُق عظيم ، فخطبته لنفسها ، وكانت أكرم زوجاته عليه ، وأبقاهن أثراً عنده ، وأسناهن ذكراً فى الحياة .

وقد حدثوا أن بنى كنانة توقعت غارة يفجؤها بها بعض الضاربين حولها من القبائل ، فخرجت إحدى كرائم الحى ، وجلست بين صواحبَ لها ، ثم دعت وليدة من ولائدها وقالت : ادْعى لى فلانا ، فدعت لها رجلاً من الحى ، فقالت له : أن نفسى تحدثنى أن خيلاً تُغير على الحى فكيف أنت ان زوجتك نفسى ؟ قال : أفعل وأفعل — وجعل يطنب فى وصف نفسه ويفيض — فقالت له : انصرف حتى أرى رأيى ، وأقبلت على صواحبها فقالت : ليس عنده غَنَاء . ادعى لى فلانا فدعت آخر . فخاطبته بمثل ما خاطبت صاحبه ، وأجابها بمثل جوابه . فصرفته . ثم قالت للوليدة : ادعى لى رَبِيعة بن مُكَدَّم . فقالت له مثل قولها للرجلين قبله . فقال لها : أن أعجز العجز أن يصف الرجل نفسه ، ولكنى ان لقيت أَعْذَرت[3] ، وحسبُ المرءِ غَنَاءً أن يُعذِر . فقالت له : قد زوجتك نفسى ، فاحضر غداً مجلس الحى ليعلموا ذلك . فلما كان الغد تزوجها ، وخرج من عندها ، ودافع الخيل ، وردَّ كيد المعتدين .

---

(١) ملآن أصلها من الآن (٢) أمثال أبى هلال ١٥٤ — ١٥٥ (٣) أعذرت أى أصبت العذر

وكذلك كان حسن الاختيار مجاذبة بين المرء وزوجه ، هى تختار منه شرف الهمة ، وسناء القدر ، وهو يخطب فيها كرم المنبت ، وجلال الخلال

لقد نشأت الفتاة بين أم كريمة ، وأب كريم ، فليس عجيباً أن تبتغى العشير الكريم . لقد أحلَّها أبوها موطن الرعاية والإكرام ، وزودتها أُمها بزاد من الأدب والفضائل ، وليس من الحق أن يضيع كل ذلك عند زوج مُضيع .

كذلك كانت المرأة العربيـة زهرة طيبة الغرس ، كريمة المجتنى ، خرجت من دارة العز ، إلى دارة الجد وصدق العمل .

ذلك وكان من حق النساء أن يجلسن إلى خطابهن من الرجال[1] ، ويجاذبنهم عقدة الأمر ، وشجون الحديث .

وأكثر ما كان يخطبُ الرجلُ إلى غير عشيرته . وحجتهم فى ذلك أن الغرائب من النساء أَوْلَدُ للنجباء من الأبناء ، فأما بنات العم فلا يلدن فيما زعموا إلا ضعاف الأجسام ، والأحلام . قال قائلهم :

أُنْذِرُ مَن كان بعيد الهمِّ   تزويجَ أولاد بنات العمِّ
فليس ناجٍ من ضَوَى[2] وسُقْم

وقال آخر :

أَلا فتًى نال العلى بِهَمِّه   ليس أبوه بابن عم أُمِّه
ترى الرجال تهتـدى بأَمِّه[3]

وعلى هـذا النسق سار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « اغتَرِبوا لا تُضْوُوا » أى تزوجوا الغرائب ولا تتزوجوا بنات العمومة — حتى لا ينكشفن عن الضعاف[4] —

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٢ (٢) الضوى دقة العظم وقلة الجسم خلقة أو هزالا
(٣) الأم — بفتح الهمزة — القصد (٤) تاج العروس ج ١٠ ص ٢٢١

ومن حديثهم أن عمر بن الخطاب نظر إلى قوم من قريش صغار الأجسام فقال : مالكم صغرتم ؟ قالوا : قُرْبُ أُمهاتنا من آبائنا . قال : صدقتم . فتزوجوا فى البعداء فأنجبوا[1] .

على أن من العرب من كان يُؤْثِر بنات العم لأنهن أصبر على نَبْوَة[2] الْخُلُق وريب الزمان . وكان بنو عبس يؤثرونهن ، وقد سئلوا أىَّ النساء وجدتم أصبر ؟ فقالوا بنات العم[3] .

ومن قول شَقِيق بن السُّلَيْك ، وقد خطب امرأة من قومه فردته :

ونُبِّئْتُهَا أَحْرَمَتْ قومها ... لِتَنْكِحَ فِى مَعْشَرٍ آخرينَا
فَإِمَّا نَكَحْتِ فلا بالرِّفاءِ ... إذا مَا نَكَحْتِ ولا بالبنينَا
وَزُوِّجْتِ أَشْمَطَ فى غُرْبَةٍ ... تَجُنُّ الْحَلِيلَةُ مِنْهُ جُنُونَا
خَلِيلَ إماءٍ يُرَاوِحْنَهُ ... وَلِلْمُحْصَنَاتِ ضَرُوبًا مُهِينَا
إِذَا ما نُقِلْتِ إلى دارِهِ ... أعدّ لظهرك سوطاً مَتِينَا
وَقَلَّبْتِ طرفك فى ماردٍ ... تَظَلُّ الْحَمَامُ عليهِ رُكُونَا
يُشِمُّكِ أَخْبَثَ أضراسِهِ ... إذا ما دنوتِ لتَسْتَنْشِقِينَا
كأَنَّ المساويك فى شِدْقِهِ ... إذاهُنَّ أَكْرِهْنَ يَقْلَعْنَ طينَا

* * *

وبعد فكل ما أسلفنا من حق المرأة فى الزواج لم يكن كل ما تملك المرأة منه ، بل كان لها فوق ذلك فصل القول فى فصمه . لقد كان من حق المرأة فى حاشية الجزيرة العربية ، وبين أعطاف الزمن السحيق العميق ، أن تطلق الرجل ، كما كان

---

(١) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٥٩ (٢) نبوة الخلق ما يشوبه أحياناً من السوء
(٣) عيون الأخبار ج ١ ص ١٩٧

لها الحق أن تختاره ! قال أبو الفرج « وكان النساء أو بعضهن يطلقن الرجال فى الجاهلية[1] .

ولم يكن النساء يومذاك فى حاجة إلى المصارحة بالطلاق ، بل كان حسب البدويات منهن أن يحولن أبواب أخبيتهن إن كانت إلى الشرق فالى الغرب ، أو كانت إلى الجنوب فالى الشمال[2] .

كذلك طلقت ماوِيّة بنت عَفْزَر زوجها حاتماً حين أمعن به جنون الكرم فلم يُبْقِ لأبنائه ما يتبلغون به .

وفى سبيل ذلك أرسل إليها قصيدته التى استهلّها بقوله :

هل الدهرُ إلا اليومَ أو أمْسِ أو غَدُ   كذاك الزمان بيننا يتردد

وفيها يقول :

فأقسمت لا أمشى على سر جارتى   مَدَى الدهر ما دام الحمام يُغَرِّد
ولا أشترى مالاً بغدر علمته   ألا كلُّ مال خالط الغدر أنكدُ
إذا كان بعض المال ربًّا لأهله   فانى بحمد الله مالى مُعَبَّــدُ
يُفَكُّ به العانى ويؤكل طيباً   ويعطى اذا مَنَّ البخيل المُطَرَّدُ[3]
اذا ما البخيل الخَبُّ[4] أخمد ناره   أقول لمن يصلى بنارِىَ أوْقِدُوا

ولهن — اذا لم يكنَّ ذوات أخبية — أساليب يدللن بها الرجال على الطلاق ، فليس لهم عليهن من سبيل .

قال أبو هلال : وكانت عَمْرَة بنت سعد ، ومَارِيَة بنت الْجُعَيد العَبْدِية ، وعاتِكَة بنت مُرَّة السُّلَمِيَّة ، وفاطمة بنت الْخُرْشُب الأنمارية ، والسَّوْداء العَنْزِيَّة

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٠٢   (٢) الأغانى ج ١٦ ص ١٠٢   (٣) المطرد المرجون شبه به البخيل لجود نفسه وانقباض يده   (٤) الخب — بفتح الخاء وقد تكسر — المخادع الكثير الخداع

وسَلْمَى بنت عمرو بن زيد النجارية وهى أم عبد المطلب بن هاشم ، اذا تزوجت الواحدة منهم رجلاً وأصبحت عنده كان أمرها اليها ، وتكون علامة ارتضائها للزوج أن تعالج له طعاماً إذا أصبح .

على أن من النساء من تناسين هذا الحق فنزلن عنه حياء لأزواجهن . ولكنَّ الرجال بغوا فى ذلك وأسرفوا حتى أن الرجل ليموت فيقول وليّه — وربما كان أخاه أو ابن عمه :— أنا أحق بامرأته . فينقلها إلى داره ، ثم ان شاء استبقاها لنفسه ، وان شاء زوجها وذهب بمهرها ! ذلك ما نهى الإسلام عنه . وقطع أسباب الأخذ به[١]

كرامتها على زوجها

هنالك فيما أوردنا من حديث القوم . وأسلفنا من مساق أشعارهم ، وشتات آرائهم ، علمت مكان المرأة من زوجها ، واستمكانها من نفسه ، واحتكامها بذات يده ، واستئثارها بالصميم من قلبه ، ورأيت كيف حرصه عليها ، واحتفاظه بها ، ووفاؤه لها ، وتفديته إياها بالتالد والطريف من ماله ، والحر الشريف من دمه .

لقد كان العربى يعتد زوجه العشير الأدنى ، والمشير الأمين ، وكان يُطرق لقولها ، ويطمئن إلى رأيها ، ويسكن دون الصفىّ العذب من لفظها ، وكان عزيزاً عليه أن تطلب فلا تجاب ، أو تشفع فلا تُشَفَّع .

ولقد كان من أمر عمرو بن حُجْر يوم خطب الى عوف بن مُحَلِّم ابنتـه أن أمهرها ضيعة له فى كندة . وأضاف الى ذلك أن يمنحها حاجات قومها ، فلا تُرَدُّ لأحد منهم حاجة ، وكان ذلك شرطاً معقوداً .

---

(١) وانا لعائدون الى هذا الموضوع فوفوه البيان فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ان شاء الله

أمَا لقد نَشِبَت الحرب بين أعظم شعوب العرب — عدنان وقحطان — حتى انقلب بها ميزان القوة ، واستحالت لها مقادة الملك للطمة أصابت امرأة من زوجها .

ذلك أن ملوك اليمن كانت لهم سيادة العرب جميعاً . وكانوا يرسلون ولاتهم وعمالهم يجمعون لهم الأتاوى[١] ، ويرهقون العرب فى سبيلها ارهاقاً لا يطاق ، وكانت ربيعة قد انتقضت على اليمن فرماها الملك بوالٍ عتيد شديد هو لَبيد بن عَنْبَسَة الغسَّانى فأقام فيهم وتزوج امرأة منهم يقال لها عَمْرَة بنت الحَبَاب التَّغْلَبية فبينا هو يحدثها ذات يوم قال لها : ما بال كلَيب — عظيم ربيعة — ينصر مُضَر ويتهدد الملوك ؟ قالت : لا أعلم فى ولد اسماعيل ذا لِبْدَة[٢] هو أشد منه ! فهاج ذلك القول لبيداً حتى عمد اليها فلطمها وقال لها : أتَرَين أنك حرة ؟ أنت أمتى فاقبلى ما يأتيك منا معشر الملوك . قالت : أنا أكرم منك . ثم خرجت مُغْضَبة حتى انتهت إلى كليب وهى تقول :

ما كنت أحسب والحوادث جمة ... أنا عبيد الحى من غسَّان
حتى علتنى من لبيد لطمة ... سُجِرَت لها من حَرها العينان[٣]
أن ترض تَغْلِب وائل بفعالهم ... تكن الأذلة عند كل رهان
لولا الوجيهة قطَّعتنى بَكْرَةٌ ... جرباء مُشْعَلة من القَطِرَان[٤]

فلما سمعها كليب خرج حتى هتك على لبيد قُبَّته ، وصدع بالسيف هامته ، وهنالك ساقت اليمن جحافلها ، وجمعت مضر وربيعة جموعها ، وقاد الأولين عمرو بن بابل اللَّخْمى ، ورأَس الآخرين كليب بن ربيعة التغْلَبي ، واقتتل الفريقان

---

(١) الاتاوى — جمع أتاوة بكسر الهمزة — الخراج (٢) اللبدة الشعر المجتمع بين كتفى الأسد
(٣) سجرت عينه خالط بياضها حمرة (٤) الوجيهة أم عمرة وآباؤها من الأزد وهم بطن من اليمن فبينها وبين لبيد صلة النسب وكان لبيد قد قال لعمرة لولا أمك الوجيهة قرنتك الى ناقة مشعلة بالقطران ثم زجرتها بك حتى تقطعك

من صبيحة اليــــوم إلى أصيله فى موقعة بذلت فيها المهج ، و بيعت الأرواح بيع السماح ، ثم حمل كليب على عمرو فخال أصحابه دونه بالرماح . ويقولون أن أربعة آلاف سيف عرضت دونه فشقها كليب جميعاً حتى انتهى الى عمرو فطعنه فقصم صلبه ، وحملت ربيعه فى أثره ، ومضر من ورائها ، حتى أوقعوا بجيوش اليمن ، ومزقوها كل ممزق ، وحرروا العرب من وسم عارها ، وذل أسارها[1] .

ولعمر أبيك ما كان مثل الزوجين فى توادهما وتآلفهما وتجاذب الود والولاء بينهما إلا كما قالت صفية الباهلية فى رثاء زوجها :

عشنا جميعاً كغصنى بانة سمقا	حيناً على خَيرِ ما تَنْمى له الشجر
حتى إذا قيل قد طابت فروعهما	وطال قنواهما واستنضر الثمر
أخنى على واحدى ريب الزمان ولا	يبقى الزمان على شىء ولا يذر
فاذهب وحيداً على ما كان من أثر	فقد ذهبت فأنت السمع والبصر
وما رأيتك فى قوم أسر بهم	ألا وأنت الذى فى القوم تشتهر
كنا كأنجم ليــــل بيننا قمر	يجلو الدجى فهوى من بيننا القمر

وربما نادى الرجل امرأته فذكر اسمها مجرداً لأنه للود أوثق ، وبالقلب ألصق ، وقد يذكره مصغراً لأن ذلك أروح لنفسها وأبقى على الدلال فيها . وقد يكنى عنه بما هو من خاصة شأنها ، ولِزَام أمرها ، فيقول : ياربة البيت . كما يقول مُرَّة بن مَحْكان التميمى :

يا ربة البيت قومى غيرَ صاغرة	ضمى إليك رِحَال القوم والقربا

أو يا ربة الِخدْر كقول من يقول :

ألم تعلمى يا ربة الخــدر اننى	أبىٌّ اذا رام العــدوّ تهضمى

---

(١) بكر وتغلب ص ١٥ — ٢٥

وربما سما بندائها فألطفه بأسنى مفاخرها ، كما يقول قيس بن عاصم المِنْقَرى يخاطب زوجه مَنْفُوسة بنت زيد الخيل — وكانت قد أتته بطعامه فى الليلة الثانية من بنائه بها فقال لها : أين أكيلى ؟ فلم تعلم ما يريد حتى قال :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ... ويا ابنة ذى البردين والفرس النَّهْدِ[١]
اذا ما صنعت الزاد فالتمسى له ... أكيلاً فانى لست آكله وحدى
قصيًّا كريمًا أو قريبًا فاننى ... أخاف مذمات الأحاديث من بعدى
وانى لعبد الضيف ما دام نازلاً ... وما فى صفاتى غيرَها شِيَمُ العبد

شرف الرجل وعفته

إذا رأيت الرجل يغشى مواطن السوء ، ويغتمر مكامِن الريب ، ويَعتَام خفيات الدنايا ، فاشفق على زوجه أن يصيبها ما أصابه . لأن القرين سُنَّة القرين ، والرجل مرآة أخيه . فكيف بزوجه وهى ألزم له ، وأعلم بخبيئة أمره ؟

إِن سيرة الرجل فى نفسه هى الجزء الأكبر من عرضه . ومن فرَّط فى النصيب الأوفر أوشك أن يتبعه بالأقل . ومن لا أمانة له فى نفسه ، لا أمانة له فيمن سواه .

وان تعجب فعجب ما يقول الرجل ، ان الله اصطفاه وفضله وآثره بوفر العقل ، ورياضة النفس ، وغلبة الهوى ، وان المرأة إنما هى حِسٌّ ثائر ، وعاطفة نَزَّاعة ،

---

(١) ذو البردين عامر بن احيمر بن بهدلة وانما لقب ذا البردين لأن وفود العرب اجتمعت بين يدى محرق ملك العرب فأخرج بردين من ثيابه وقال ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما فقام عامر بن احيمر فأخذهما فاتزر بأحدهما وارتدى بالآخر فقال محرق أنت أعز العرب قبيلة ؟ فقال نعم لأن العز كله فى معد والعدد فى معد ثم فى نزار ثم فى مضر ثم فى تميم ثم فى سعد ثم فى كعب فمن أنكر ذلك فليناظرنى فسكت الناس فقال له هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت فى نفسك وأهل بيتك فقال أنا أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة وخال عشرة وها أنا فى نفسى وشاهد العز شاهدى ثم وضع قدمه على الأرض وقال من أزالها من مكانها فله مائة من الابل فلم يقم اليه أحد فخرج بالبردين فضرب بعزه المثل

والفرس النهد الحسن الجميل الجسيم المشرف

يتضاءل العقل بينهما ، ويَتَفَيَّل[1] الرأى دونهما ، ثم هو يجرى فى اللهو مخلوع العذار ، لا عاصم له من عقل ودين ، حتى إذا آنس منها ما يكره ، أو نزل من أمرها على ما يريب ، طاش لبه ، وانخلع قلبه ، والْتَفَع بقناع العار وجهه ، وحَمَّلها من التَّبعة ما لو حمّل نفسه اليسير الدنئ منها لبلغ نظام الكون أقصى مداه من الكمال . ولكنه أساء إلى نفسه ، فأساء إلى عشيرته ، وتنكب الطريق السوىّ ، فعمت النكبة ، وتوالت المَثُلات ، وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللهُ وَلَـكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

ذلك مثل ما يختلج بنفوس القوم الذين وهنت إرادتهم دون نزعات أهوائهم وناءت نفوسهم بعقبى جرائرهم ، والرجل العربى أبعد ما يكون عن هؤلاء .

ان الذى يَكْلِمُ العربى فى سيرته ، ويرميه فى عفته ، انما يطعنه فى أمَسِّ صفاته به ، وأبقاها أثراً فيه ؛ فى شجاعته التى أُرهِف عليها ، وشرفه الذى يموت دونه ، وهمته التى تضطرم بين جنبيه

ان الرجل الذى يتأثر النساء فى مسيرهن ، ويجعل همه ابتغاء المهينات منهن جَبان ، ساقط الهمة ، مغمور العرض ، وليس العربى فى شىء من ذلك .

لقد كان الرجل من هؤلاء القوم يزهيه ويهز عطفيه أن يمدح بعفة المئزر أكثر مما يكون لو مدح بشجاعته واعتزامه . وكان إلى ذلك مرجع فخره بنفسه وتمدحه بشمائله . لأن مغالبة النفس ، وقمع الهوى أدل على الشجاع ، وأمثل به من مغالبة الأسد فى غيلها ، واقتياد العُصْم[2] من جوها .

على أننا لا نَكْذِبُ التاريخ ، ولا نَتَبغَّى المحال ، فنقول ان العرب سنيَّهم ودنيَّهم ، شريفهم ومشروفهم ، كانوا على سواء فى اطِّرَاح المآثم ، واجتناب المحارم ،

---

(١) يتفيل يخطىء

(٢) العصم — جمع أعصم — وهو الغراب الأبيض الجناحين الأحمر الرجلين والمنقار وذلك عزيز فى جنسه

فذاك سبيل أهل الخيال ، الذين يرون من كل شيء غايته ، ويأخذون من كل مورد أصفاه . فإن في تنزيه العرب أنفسهم عن الدنايا دليلاً على وجودها . وكما افترضنا بين غمار العرب الجبان المستطار حق لنا أن نفترض الفاحش المريب . على أن هؤلاء أوزاع من صعاليك العرب وشرادهم كان مغداهم إلى اماءٍ قلَّ ينهن من تنتسب إلى العرب ، وكن يتوارين عن العيون بمنجاة عن المدائن والقرى ومضارب خيام البادية . وكان الرجل إذا غدا إليهن ادَّرع الظلام وأرخى ازاره على أثر خطاه فوق الرمال حتى لايتعرف الناس أثره . وكان العرب يَدْعون المرأة المَهينة بالمظْلِمة من أجل ذلك . ومن جوامع كلمهم في المدح : فلانٌ لا يُرْخَى لمظْلِمةٍ إزارُه . قالت العَوْراء بنت سُبَيع :

أبكى لعبـــد الله إذ حُشَّتْ قُبَيل الصبح نارُه[1]
طَيَّانَ طاوِى الكَشْح لا يُرْخَى لمُظْلِمـةٍ إزارُه[2]

أما بغاة الشرف وأبناء سادات العرب فهم بنجوة عن كل ذلك . وقد أُطرد امرأ القيس أبوه ، ووكل به من يقتله ، لأنه اشتمَّ روح الفجور من شعره .

وقالوا : ليس سيداً من غلبته شهوته .

وكان من أكبر المآثم عند العرب أن يلتقى الرجل بالفتاة فيبدأها بالكلام أو يُلقى اليها السلام ، وربما هاج ذلك شراً عقاماً . وقد يكون من ذوى قرباها والراغبين في خطبتها فتحول تحيته دون ما يبتغى . وفي ذلك يقول حُمَيد بن ثور :

وما لى من ذنب اليهم علمته سوى اننى قد قلت يا سَرْحةُ اسلمى

(١) حشت ناره أوقدت . قال التبريزى « أرادت أنه قتل قبيل الصبح فضربت لقتله مثلاً لايقاد النار والعرب تقول أوقدت نار الحرب اذا هاجت »

(٢) الطيان صفة مشبهة من الطوى وهو الجوع والعرب ترى من السيادة الا يشبع رجل وطاوى الكشح ضامر ليس بضخم الجنبين والأصل في المظلمة المرأة التى أظلم عليها الليل ثم أطلقت على المهينة من النساء .

نعم فاسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى ثلاث تحيات وان لم تَكَلَّمى

وقد كف عنترة عن طلب عبلة جارية أبيه وسام نفسه البعد عنها ، والحرمان من زواجها ، لأنه ذكرها فى شعره ، حتى لا يثلم سنة العرب ، ولا يحل حرامهم[1].

ومن أمثال العرب : « كل شىءٍ مَهَهٌ ما خلا النساءَ وذكرَهن » أى كل شىء يسير يحتمله الحر إلا أن يذكر النساء وتذاع أجبارهن .

*
* *

لذلك كله ولفرط ما طبعت المرأة عليـه منذ نشأتها الأولى من صفاء الفطرة وسماحة الخلق ، وكرم التأديب ، اشتملت الزوجة العربية على خير ما اشتمل عليه فضليات النساء ، من مواتاة الزوج ، والبر به ، والإخلاص له ، والحدب عليه

ولئن ذكر عن الرجال أنهم يموتون ذوداً عن حريمهم ، لقد أثر مثل ذلك عن النساء أنهن يمتن دون الدنية فى أحرج المواقف وأضيقها ، إيثاراً لشرف أزواجهن على غوالى حياتهن ، وان لك فيما أسلفنا من أمر فاطمة بنت الْخُرْشُب وقتلها نفسها دون أن تتخذ سبية أسيرة ودون أن يوصم اسم زوجها وبنيها ما فيه غناء

ومن أمثلتهن فى ذلك : « المنية ولا الدنية »

لقد كانت الزوجة العربية من الزوج بحيث لا يملك أمر مادته ولا معناه إلا بها . فهى تعلم من أمر الحياة ما يعلم، وتحسـن من رياضة الـكلام ما يحسن، وتجيد من اجالة الرأى ، وتصريف الأمر ما يجيد . فهى عديل نفسه ، ومِلاك أمره ، وقوام نظامه . ان أعوزه السمر أطربته ، أو جدَّ به الأمر آزرته ، أو التبس عليه الرأى أوضحته ، أو ضاق به الصدر فرجته .

وحدثوا أن رجلاً من سَراة قريش — جمع بين ضيق الخلق وسماح اليد —

---

(١) بلوغ الأرب ج ١ ص ١٤٢

خطب إحدى كرائم قومه وحسيباتهم ، فلما وفق إلى قبولها ذهب إليها فقال لها : يا هذه ان فىَّ سوءَ خلق يعود إلى احتمال وتكَرُّم ، فان كان بك علىَّ صبر وإلا فلست أغُرُّك منى . فقالت له : أن أسوأ خلقاً منك لَمَن يحوجك إلى سوء الخلق . . . . فما جرت بينهما كلمة حتى فرق بينهما الموت .

وليست تلك بالمتفردة فى خلقها ، فان آثر ما عرف عن نساء العرب جميعاً سعة الصدر، وطول الأناة . وقد راضهن على ذلك كثرة ما رأينه من تبدل الحال بين عسر ويسار ، وطول ما أَلِفْنَهُ من نشوة الكرم ، وجنون السخاء فى أزواجهن ، حتى لا يبقون على ما يتبلغ به أطفالهم . كل ذلك إلى ما عهدنه من تتابع الخطوب، وموالاة الحروب ، وما إليها من ثُكل وفجائع ، مما وطنهن على احتمال الأذى ، وجعل مدى الصبر فى صدورهن بعيداً مديدًا .

* * *

والصبر والوفاء توأمان متشابهان، ورفيقان متلاحقان، إذا اكتمل أحدهما استتم الآخر . ولئن كان حميداً من المرأة أن تعاشر زوجها على الوفاء له ، فان أحمد من ذلك أن تفى له بعد طلاقها منه ، فتذكر له ولآله خير ما عرفت عنهم . وليس ذلك بعزيز على امرأة أقامت كريمة وفارقت كريمة « إمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ باحسان » وسأورد لك من أمرها فى ذلك ما يطمئن به قلبك ، ويسكن له ثائر نفسك .

حدث محمد بن زياد الأعرابى ، قال :

قامت امرأة عروة بن الورد العبسى فى نادى قومه بعد أن طلقها ، فقالت : أما والله انك لَلضَحُوك مقبلاً ، السَكُوت مدبراً ، خفيف على ظهر الفرس ، ثقيل على مَتْنِ العدو ، رفيع العماد ، كثير الرماد ، ترضى الأهل والأجانب . قال : فتزوجها رجل بعده فقال : أثنى علىَّ كما أثنيت عليه . قالت : لا تحوجنى الى ذلك فانى

انْ قلت قلت حقًّا . فأبى . فقالت : ان شِمْلَتَكَ الالتفاف[١] ، وان شِربتك الاشتفاف[٢] ، وانك لتنام ليلة تخاف[٣] ، وتشبع ليلة تضاف .

وحدث أبو عمرو بن العلاء قال : تزوج رجل من بنى غَدَانة بامرأة من جَمدة ثم وقع بين الحيين ما حمله على فراقها ، فمسه من ذلك غمٌّ وأحزان ، فلما اعتزمت الرحيل قال : استمعى ويستمع من حضر : أمَا لقد اعتمدتك برغبة ، وعاشرتك بمحبة ، ولم أجد عليك زَلَّة ، ولم تدخلنى لك مَلة ، وان كان ظاهِرُكِ لَسروراً ، وباطنك للهوى ، ولكن القدر غالب ، وليس له صارف . فقالت له المرأة مجيبة : أثنيتَ وأنا مثنية ، فجزيت من صاحب ومصحوب خيراً ، فما استربتُ خيركَ ، ولا شكوت ضيركَ ، ولا تمنت نفسى غيركَ ، وما ازددت اليك إلاَّ شرهاً ، ولا أحسست فى الرجال لك شبهاً . ثم افترقا .

وحدث المدائنى قال : تزوج حِصْن بن خُلِيد بنت الورد بن الحارث ثم طلقها فجاء اخوتها ليحملوها فقالت : مُرُّوا بى على المجلس بالحى أسلم عليهم فنعم الأحماء كانوا . فأقبل هو وهى فى قبتها فقالت : جزاكم الله خيراً ، فما أكرم الجوار ، وأكف الأذى ! قالوا : ما الذى كان عن ملأمنا ولا هوى . فقالت : اللهم انى لم أُطَلق مِن بغض ولا قِلَى فعليكم السلام[٤]

---

(١) الشملة — بكسر الشين — هيئة الاشتمال بالشملة — بفتحها — وكانو يعيبون من الرجل أن يلتف بها ويعدون ذلك من اللؤم (٢) الاشتفاف أن يشرب الرجل جميع ما فى الاناء وذاك من اللؤم (٣) ليلة تخاف أى ليلة تغدو الى الحرب (٤) بلاغات النساء ص ٨٧ — ٩٠

الأم العربية

هى مَنْبِتُ فتيانِ العرب ، ومَعقِدُ فخرهم ، ومَثَارُ حَمِيَّتِهم ، ومُستَقَى أدبهم ، ومَلاذهم ان جَدَّبهم الدهر ، ومفزَعهم ان اشكل عليهم الأمر ، ومُعَوَّلهم ان فدح الخطب ، وعَزَّ المعين .

تلك هى الأم العربية موطن ثقة الأب ، ونخر الابن ، وعِزّ العشيرة .

لقد نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم بفخره — وهو أكرم العالمين خليقة وأكملهم كمالاً — الى أمهاته فى الجاهلية فقال : « أنا ابن العواتك مِن سُلَيم[1] » . وما كان ذلك إلاّ لأن الله قرن منزلته الملكية العلية بأسمى مراتب البشر ، وتلك التى هيأته لها منذ القدم أرحام أمهاته الطاهرة وأرواحهن الزكية .

وشبيه بذلك قول علىّ عليه السلام للأشعث بن قيس وقد خطب اليه ابنته : غَرَّكَ ابن أبى قحافة إذ أعطاك ابنته وليست من الفواطم من قريش ولا العواتك من سليم[2] .

---

(١) قال ذلك — صلى الله عليه وسلم — يوم حنين . وسليم قبيلة من أعز قبائل العرب نفرا وأكثرها فخاراً . اما العواتك اللاتى يفتخر عليه الصلاة والسلام بالنسبة اليهن فثلاث هن عاتكة بنت هلال بن فالج بن ذكوان ام عبد مناف بن قصى وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج أم هاشم بن عبد مناف وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال أم وهب بن عبد مناف جد رسول الله أبى أمه فالاولى عمة الثانية والثانية عمة الثالثة — لسان العرب ج ١٢ ص ٢٥١ (٢) أما العواتك فقد عرفتهن . وأما الفواطم فثلاث الاولى سيدة النساء فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج علىّ عليه السلام والثانية فاطمة بنت أسد زوج أبى طالب ابن عبد المطلب . والثالثة فاطمة بنت عبد الله بن عمر بن عمران جدة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحسن والحسين عليهما السلام يدعيان بابنى الفواطم لذلك — لسان العرب ج ١٥ ص ٣٥٣ . وأما الأشعث فهو الأشعث بن قيس بن معديكرب الكندى وكان من حديثه انه ارتد فى جملة أهل الردة فأتى به أبو بكر رضى الله عنه أسيراً ثم أطلقه وزوجه أخته فروة بنت أبى قحافة فخرج من أبى بكر ودخل السوق فاخترط سيفه ثم لم تلقه ذات أربع — من بعير وفرس وبقر — الا عقرها فريع الناس لذلك وظنوه ثائرا ففزعوا الى أبى بكر فقالوا هذا الأشعث قد ارتد ثانية فأما هو فقد أشرف من سطح بيت أبى بكر وقال ياأهل المدينة انى غريب ببلدكم وقد أولمت بما عرقبت فليأكل كل انسان ما وجد وليغد علىّ من كان له قبلى حق فلم تبق دار من دور المدينة الا دخلها اللحم ولا رئى يوم أشبه بيوم الاضحى من ذلك اليوم فضرب أهل المدينة به المثل فقالوا أولم من الأشعث بن قيس . . على ان ناسا من المسلمين لم ترضهم هذه المصاهرة لأن احدى كرائم قريش أصبحت قعيدة بيت رجل اسلم بعد ردة — الميدانى ج ٢ ص ١٣٤

واذا كان من القبائل من اتخذت آباءها منتهى أنسابها كَمُضَرَ وربيعة فان منها من آثرت الانتساب الى أمهاتها كخِنْدِف وجَدِيلة[1]

واذا كان من الملوك من نسب الى أبيه كالنعمان بن المنذر ، فمنهم من نسب الى أمه كعمرو بن هنـد . على أن المناذرة جميعاً نسبوا الى أمهم « ماء السماء » وهى ماوِيَّة بنت عوف بن جُشم ملكة العراق وأم ملوكها . واليها ينتهى جلال الجمال وجمال الخلال ، وعنها ورث ملوك العراق سناء الشرف ، ومضاء الذكاء وبها كان العرب يَعْتَزُّون ، وباسمها يقسمون ويمتزمون .

واذا كان شديداً على الرجل أن يقال له : لا أب لك ، فان أوجع من ذلك وأشد أن يقال له : لا أمَّ لك .

وليس عجيباً بعد ذلك أن يقوم لَبيد بن رَبيعة فى جماعة بنى عامر بين يدى النعمان بن المنذر فيقول : « نحن بنو أم البنين الأربعة » . وكذلك يجعل المرأة منزع القوم بأسرهم فى فخرهم .

وما كان لأحد من العرب أن يجاذب امرأته فخر تربية أبنائها ، وفضل تأديبهم فكل ذلك منها مفيضه ، واليها مرجعه . حتى لقد كانوا يلقبون المرأة اذا انحسرت عن ثلاثة بنين فنبُه ذكرهم وذاعت بين الخافقين مآثرهم بالمُنْجِبة[2] ، ويتخذونها لذلك مضرب أمثالهم ، ومسار أشمارهم ، ومساق مفاخرهم ، وما كان الرجل فى شيء من ذلك اللقب الكريم المجيد .

---

(١) خندف هى ليلى بنت حلوان بن عمران زوج اليـاس بن مضر بن نزار وعنها انشعب أكثر بطون العرب ومن هؤلاء هذيل وكنانة وأسد والهون وأما جديلة فهى ابنة مدركة بن الياس ومن بطونها العظيمة عدوان واليها ينزع ذو الاصبع العدوانى خطيب العرب وعامر ابن الظرب حكيمها . وهنالك عدد غير قليل من قبائل العرب وبطونها نزع الى امه وآثر النسبة اليها ومن هؤلاء بجيلة ومزينة وعاملة وعفراء وباهلة وسلول وحبابة وتجيب وبنو رقاش وبنو طفاوة وبنو العبدية وبنو طهية وبنو حطى — على وزان حبلى —

(٢) الميدانى ج ٢ ص ٢٠٥

وقد حَلِي بذلك اللقب كثير من عقائل العرب نذكر منهن :

(١) فاطمة بنت الْخُرْشُب وهى التى أنجبت الكَمَلة لزياد العبسى وهم : ربيعُ الكامل ، وقيْسُ الحفاظ ، وعِمارَة الوَهَّاب ، وأنَس الفوارس . وقيل لها : أى بنيك أفضل ؟ فقالت الربيع ، لا بل قيس ، لا بل عمارة ، لا بل أنس ، ثَكِلْتهم ان كنت أدرى أيهم أفضل ، هم كالْحَلْقة المُفْرَغة لا يُدْرَى أين طرَفاها

(٢) أم البنين ابنة عامر بن عمرو زوج مالك بن جعفر ، وأبناؤها : مُلاَعب الأسنة ، وطُفَيل الخيل ، وربيع المُقْتِرِين ، ونَزَّال المضيف ، ومُعَوِّذ الحكماء ، وهى التى أسلفنا فيها قول لبيد : «نحن بنو أم البنين الأربعة» وقد أثكلتها القافية ولداً ، وإلا فهم خمسة كما بيَّنا .

(٣) خَبيثة بنت رِيَاح الغَنَوِية هتف بها هاتف فى منامها فقال : أعشرة هَدَرَةٌ[1] أحب اليك أم ثلاثة كالعشرة ؟ ثم هتف بمثل ذلك فى الليلة الثانية فقصت رؤياها على زوجها فقال : ان عاد ثالثة فقولى : ثلاثة كعشرة . فولدت خالداً الأصبغ ، ومالكا الطَّيَّان ، وربيعة الأحْوَص .

(٤) عاتكة بنت هلال السُّلمية . أنجبت لعبد مناف بن قُصَيّ هاشما ، وعبد شمس ، والمُطَّلِب[2] .

(٥) ريحانة بنت معديكرب . ولدت للصِّمة بن عبد الله دريداً ، وعبد الله وعبد يغوث ، وقيساً ، وخالداً[3] .

ولولا خشية الإطالة ، وأن نخرج من حديث النساء الى حديث الرجال لعقدنا الفصول الطوال فى مآثر أولئك الرجال وآثارهم وما منهم إلا السيد الكريم ، والبطل العظيم .

---

(١) هدرة جمع هادر وهو الساقط (٢) الميدانى ج ٢ ص ٢٠٥ (٣) الاغانى ج ٩ ص ٢

كل ذلك وأمثاله ممـــا جعل نساء العرب يَشْخَصْن بأبصارهن ، ويرمين بأمانيهن الى أبنائهن .

إن حَسْب الطفل أن يضطرب فى أحشاء أمه حتى يدعوها إلى الإطراق الطويل ، والتفكير الكثير ، وربما هاج ذلك ضرباً من الخيال ينبعث من أعماق صدرها فيثير دمها ، ويرهف حِسَّها ، ويتمثل بين مسارب سمعها صوتاً واضح المنطق ، فياض المعانى ، يسوق لها البشرى ، ويضيء بين يديها مناهج الأمل ، ويهديها إلى خير العمل ، فتحسب ذلك هاتفاً يهتف بها . وما هو الا صوت القلب يشدو بايقاع الأمانى .

واكثر ما يستمع النساء الهواتف إذا هدأت عيونهن ، فيستيقظن على صوته . وقد يستمعنه وهن يقظات .

وممن سمعن الهاتف وعينه ليلى بنت مُهَلهِل أم عمرو بن كلثوم . هتف بها الهاتف حين حملت بابنها فقال لها :

يا لَكِ لَيلى من ولد   يُقدِم إقدام الأسـد

من جُشَم فيه العـدد   أقول قولاً لا فَنَد

فلما استكمل وليدها سنة أتاها ذلك الآتى حين اشتمل عليها الليل فأشار إلى الطفل وقال :

إنى زعيم لك أمَّ عمـــرو   بماجدِ الَجدِّ كريم النَّجْرِ[1]

أشجعَ من ذى لِبَدٍ هِزَبْرِ   وَقَّاصِ آدابٍ شديد الأسرِ[2]

يسودهم فى خمسة وعشر

---

(١) الزعيم هنا الكفيل والنجر الأصل   (٢) ذو اللبد الهزبر الأسد والوقاص القاطع وأكثر ما تستعمل فى قطع الاعناق ولا أحسب فى نسبة وقاص الى الآداب إلا تحريفاً من الرواة ولعل أصلها وقاص أعناق أو أقران

قيل فساد قومه ، ولم يجاوز الخامسة عشرة من سنِيه[١] .

ومنهن عُتْبَة بنت عفيف أم حاتم الطائى سيد سُمَحاء العرب وامام أجوادهم هتف بها الهاتف فقال لها : أغلامٌ سمح يقال له حاتم أحب اليك أم عشرة غلمة كالناس ، ليوث ساعة الباس ، ليسو بأوغاد ولا أنكاس ، فقالت : حاتم[٢] .

وأمثال هاتين كثيرات لا يُحصين عددا

على أثر ذلك يولد الطفل فتبدأ تربيته بتسميته — وكانت تَشرك زوجها فى تسمية بنيها — فان كان وليداً تخيرت له كل صُلْبٍ شديد من الأسماء ، يَنمى به حِسُّه ، وتُنبت عليـــه شجاعته . فمن أسمائهم : صَخْر، وحَرْب ، وحَنْظَلَة ، وعَلْقَمة ، وأَسَد ، وذئب ، وأشباهها مما لا يشعر بوهى عند النداء ، ولا انثناء عن الأعداء

ومن طريف أمر التسمية وغريب أثرها ما حدَّث ابن حبيب أن اسماء بنت دُرَيْم كانت فى خباءٍ لها ، وكان بنوها يرعونَ بمنجاة عنها ، فمر بها وائل بن قاسط فنظر اليها نظرة مريبة . فقالت : لعلك أسررت فى نفسك منى شيئاً ؟ فقال : أجل . قالت : لئن لم تنته لأستصرخن عليك أسبُعِى . فقال : والله ما أرى بالوادى أحدا . قالت : لو دعوت سباعه لمنعتنى منك وأعانتنى عليك . فقال : أوَ تَفهَم السباع عنك ؟! قالت : نعم . ثم رفعت صوتها : يا كلب ، ياذئب ، يا فهد ، يا دب ، يا سِرْحان ، يا أسد . فجاء بنوها يتعاوَوْن ويقولون : ما خبرك يا أماه ؟ قالت : ضيفكم هذا أحسنوا قِراه . ولم تَرَ أن تفضح نفسها عند بنيها . فذبحوا له وأطعموه . فذهب وهو كالمأخوذ عجباً مما رأى . وسمى ذلك الوادى بوادى السباع فهو اسمه منذ ذلك اليوم[٣] .

(١) الأغانى ج ٩ ص ١٧٥ (٢) ديوان حاتم (٣) خزانة الأدب ج ٣ ص ٥٢٢

أما البنات فيختار لهن كل خفيف المسمع ، بديع الموقع من الأسماء . فمن أسمائهن : حُبَّى ، وحَبِيبة ، والنَّضِيرة ، وسُعْدَى ، ومَيَّة ، وأُمَيْمة ، ونظائرها .

الى ذلك يأتى دور الرضاع . وهنالك تمهد طفلها لما هو أهل له من عظمة الحياة ، فتَجْهَد ألا يصدع سَمْعَه شىء من دنىّ الألفاظ ورَذْلها . بل تردد له فى ارضاعه ومداعبته ألفاظ الشرف والسؤدد ، وتلقنه آيات المجد والكرم .

وللنساء فى سبيل ذلك ما لا يناله العد من الأناشيد القصار، يُغَنِّين بها أولادهن ويرقصنهم بها ، وفيها من غُرّ المكارم ، وحُرّ العظائم ، ما هو خليق بأشبال أولئك الأبطال .

ومن قول منفوسة بنت زيد الخيل وهى ترقص ولدها :

أشبِهْ أخى أو أشْبِهَنْ أباكا   أما أبى فلن تنال ذاكا
تَقْصُرُ عن مَنَاله يداكا

ولقد يظن قصار النظر فى قولها شيئاً من تعجيز الطفل وتقصير همته . على أنه من ذلك بعيد . فهو مبالغة فى الإغراء ، وافتنان فى التشويق ، وخليق بالغلام أن يفكر حين يستمع ذلك الكلام فى منزلة جده قبل منزلة أبيه .

ومن قول فاطمة بنت أسد وهى ترقص ولدها عَقِيل بن أبِى طالب :

أنت تكون ماجدٌ نبيل   اذا تهب شمأل بَليل

ومن قول أم الفضل بنت الحارث وهى ترقص ابنها عبد الله بن عباس :

ثَكِلْتُ نفسى وثكلت بكرى   ان لم يسد فِهْراً وغيرَ فِهْرِ
بالحسب الوافى وبذل الوفر

وليس بفائتنا ونحن فى أول عهد الأم بابنها أن نسوق اليك حديثين لاثنتين من نساءِ العرب . وستعلم من تناسق رأيها ووثوق الصلة بينهما الى أى

حد وصلت المرأة العربية من تربية طفلها واعداد نفسها له منذ الاشتمال عليه .

قالت أُمَيمة أم تأبط شرا — وقد سئلت عن أمر تربيتها لولدها : —

والله ما حملته تُضعاً ولا وُضعاً ولا ولدته يَتْناً ولا أرضعته غَيْلاً ولا أَبَتُّه مَئِقاً ولا أَنَمْتُه تَئِدًا ولا سَقَيتُه هُدَبِداً ولا أطعمته قبل رِئَةٍ كَبِداً[1]

وقالت فاطمة بنت الخرشب — وقد سئلت أى بنيك أفضل : —

والله ما أدرى ، انى ما حملت واحداً منهم تُضَعاً ولا ولدته يَتْناً ولا أرضعته غَيْلاً ولا منعته قَيْلاً ولا أنمته تَئِداً ولا سقيته هُدَبِداً ولا أطعمته قبل رئة كبداً ولا أبتُّه على مأقة[2].

ونحن أولاء موفون لك القول فى شرح هذه الألفاظ ورأى الطب الحديث فى حالاتها .

فالحمل التُّضَع أن تحمل المرأة قبيل الحيض . والوُضَع أن تحمل فى أعقابه . وفى كلتا الحالتين ينضَحُ الرحم سائلاً يؤذى النطفة ويضعفها وهى فى أول منابتها ومُقْتَبَل عهدها بالحياة ولها ما لها من سوء نشأة الطفل وضعف تركيبه .

أما ولادة الطفل يَتْناً فأَنْ يولد منكساً ، رِجلاه قبل رأسه ، وهنالك تصاب عظام الطفل اللدْنة الناعمة بتأثيرٍ من الضغط الذى ينالها وقَلَّ أن يتلافاه مهما تطاول به العمر وامتدت بأيامه الحياة .

وأما الإرضاع غَيْلاً فأن تُرضع وليدها وهى حامل واللبن حينذاك فاسد موبق يكاد يكون مسموماً وقد يكون قاتلاً .

وأما القَيل الذى لا تمنعه طفلها فتناول اللبن وقت اشتداد الهاجرة واتقاد

(١) لسان العرب مردداً فى أجزاء متفرقة عند الكلام على كل من الفاظ الجملة والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ (٢) الميدانى ج ٢ ص ٢٠٥

الرمضاء وهو يطفئ الحر وينقع غلّة الجسم . فأما بلوغ ذلك بالماء فقد يعقبه كثير من الأذى .

وأما المبيت مئقاً فأن يقضى الطفل ليله مُغضَباً أو حزيناً . وفى ذلك من التأثير على نوم الطفل وذات نفسه ما فيه وليس هنالك شيء أزكى لنفس الطفل وأنهض بعقله وأصفى لدمه وجسمه من أن يكون مبتهجاً فى نومه ويقظته .

وأما النوم تئداً فأن ينام على موضع نكِد لصلابته أو استقذاره ولكليهما تأثير قوىٌّ شديد فى عظام الطفل ونمائه واتجاه صحته .

وأما الهُدَبِد فاللّبن المتكبّد الذى لَانَ بعضه وجف بعضه وذلك إما لقرب انقطاعه وإما لحالة نفسية أو جثمانية أصابت الأم . وذلك لعمرك السم النقيع يتناوله الطفل فيَذْوِى عوده وينحَلُّ جسمه وليس وراء ذلك إلاّ الموت أو الحياة على شر من الموت .

وأما الرئة والكبد فكل منهما يحتاج فى هضمه الى لُعاب الاسنان فاذا لم يستوف طعامها ذلك اللعاب كان وَخِماً ثقيلاً لا تملك المعدة أن تتخذ منه نصيبها من الفائدة فيستحيل الى اسهال شديد يعقبه ضعف شديد(١)

لذلك كله لم يكن بدعا أن يتمدح أبو كبير الهذلى بعض رفاقه ببعض تلك الحالات ثم ينسب اليها قوته وصلابة عوده وبعد همته . فذلك حيث يقول :

ومُبَرَّإٍ من كل غُبَّر حَيْضَةٍ   وفساد مرضعة وداءٍ مُغْيِلِ(٢)

---

(١) مرجع الفضل فى تعليل هذه الحالات وتطبيقها على الطب الحديث الى الطبيبين الكريمين أحمد سعيد بك وسليم صبرى بك   (٢) غبر الحيض بقاياه وفساد المرضعة يريد به ما يعترى لبنها من الفساد

ثم يقول في وصفه :

واذا رميت به الفِجاج رأيته   يهوى مَخَارِمَها هُوِيَّ الأجدل[١]

واذا نظرت إلى أسِرَّة وجهه   برقت كبرق العارض المتهلّل[٢]

صعب الكريهة لا يرام جَنَابه   ماضى العزيمة كالحسام المِقْصَلِ[٣]

يحمى الصحابَ إذا تكون عظيمة   واذا هُمُ نزلوا فمأوى العُيَّلِ[٤]

ولم يكن ذلك شأن من ذكرنا من النساء فحسب ، بل لقد كانت العرب تعيّر من قصّرت به أمه في بعض ذلك وتسبه به[٥] .

وبعد فذلك ما تواصى به نساء العرب في تربية أطفالهن وهن في جاهليتهن الأولى وما يبتغى الأطباء بعد بضعة عشر قرناً من عهدهن أن يكون النساء أتم عناية بأبنائهن وأشد حرصاً عليهم من كل ذلك .

يدرج الطفل بعد ذلك فتجعل الأم مسلاته حديث الأبطال ، وآيات النزال ، وبذل النوال ، واصطناع الرجال . ثم يشب فتنشر بين يديه من جليل المظائم كتاباً ، وتقيم بين عينيه من جميل المكارم محراباً ، وتتعاهده كما يتعاهد الزارع الضَّنين منابت الغَرْس ، ومساقط الغَيْث . إن احتكمت به نزوة الشر ، وطاشت بلبه سورة الحقد ، بغير حق وفي غير حزم ، عطّفت صدره ، وألانت جانبه ، وأوضحت نَهْج الخير له . وإن سكنت همته ، وفترت عزمته ، أذكت حميته ،

---

(١) الفج الطريق الواسع في الجبل ونحوه وجمعه فجاج والهوى — بضم الهاء — القصد الى أعلى — وبفتحها — الى أسفل والمخارم جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل والأجدل الصقر (٢) الأسرة الخطوط في الجبهة والعارض من السحاب ما يعرض في جانب السماء والمتهلل من تهلل الرجل اذا افتر عن أسنانه تبسما ، يقول : اذا نظرت في وجهه رأيت أساريره تشرق اشراق السحاب المتشقق بالبرق يصفه بحسن البشر وطلاقة الوجه — التبريزى ج ١ ص ٤٥ (٣) المقصل القاطع (٤) العيل جمع عائل وهو الفقير (٥) عيون الاخبار ج ١ ص ٤٠٤

وأثارت حفيظته ، وهاجت غضبته . ونحن أولاء نضرب لك الأمثال ومنها تعلم إلى أى منزلة من نفاذ الرأى ، وقوة التأثير ، وحسن الهداية ، وَصَلَت الأم العربية فى ذلك العهد السحيق .

جعل قوم لبشر بن أبى حازم الأسدى — وكان عبداً — جُعلاً على أن يهجو أوس بن حارثة بن لام . فأخذ يتلقفه بلسانه فى كل مجتمع وناد حتى إذا ضاق بأوس أمره أرسل رسولاً من لدنه ليشترى الشاعر العبد من مولاه بالغاً ما بلغ . فلما اشتُرى له وجىء به اليه قال له : هجوتنى ظالماً لى ، أنت بين قطع لسانك ، وحبسك فى سرب حتى تموت ، أو قطع يديك ورجليك وتخلية سبيلك ، ثم دخل على أمه سُعْدَى — وكانت قد سمعت كلامه — فقالت له : يا بنىَّ ، مات أبوك فرجوتك لقومك عامّة فأصبحت أرجوك لنفسك خاصة ، وزعمت أنك قاطع رَجُلاً هجاك فمن يمحو ما قاله غيره ؟ قال : فما أصنع ؟ قالت : تكسوه حلتك وتحمله على راحلتك وتأمر له بمائة ناقة . ففعل ما قالت . فملأ بشرٌ عِراض الآفاق بمدائح أوس . وكان مما مدحه به قوله :

إلى أوس بن حارثة بن لام ليقضى حاجتى ولقد قضاها
فما وطىَّ الحصى مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها[1]

وشبيه بهذا ما حدث أبَانُ بن تَغلِب قال : خرجت فى طلب الكلأ فانتهيت إلى ماء من مياه كلب ، واذا أعرابى على ذلك الماء ومعه كتاب منشور يضطرم وعيداً وتهديداً ، وجعل يقرأه على مَن بين يديه من القوم . فقالت له أمه وهى فى خبائها — وكانت مُقْعَدَة كِبَراً : — ويلك ! دعنى من أساطيرك ! لا تَحْمِل عقوبتك على من لم يحمل عليك ، ولا تتطاول على من لم يتطاول عليك ، فانك

(١) بلاغات النساء ص ١٤٠ — ١٤١

لا تدرى ما تُقَرِّبُكَ اليه حوادث الدهر، ولعل من صيرك إلى هذا اليوم أن يصير غيرك الى مثله غداً، فينتقم منك أكثر مما انتقمت منه، فاكفف عما أسمع منك، ألم تسمع الى قول الأول :

لا تعاد الفقير علّك أن تر كع يوماً والدهر قد رفعه[1]

وأما ابتعاثها الهمم من مكامنها، وانتضاؤها العزائم من أغمادها، فذلك ما لا يكلفها جهد القول، ولا مُرَّ الوعيد، فحسب الكلمة أن تخرج من فيها هادئة وادعة، فيكون لها ما بعدها . ومَثَلُ ذلك ما روى الراوون ان ذؤاب ابن أسماء العبسى قتل عبد الله بن الصِمّة — وكان ذؤاب بطلاً أيّداً عتيداً — فلبث دريد يترقبه حتى أعياه . فلما انقضى الحول ولم يأخذ بثأر أخيه قالت له أمه ريحانة بنت معديكرب : يا بنى ان كنت عجزت عن طلب الثأر بأخيك فاستعن بخالك وعشيرته من زَبيد . فأنف لذلك، وحلف لايدّهن ولا يكتحل، ولا يمس طيباً، ولا يأكل لحماً، ولا يشرب خمراً، حتى يدرك ثأره . ثم استجمع لعبس وفاجأهم وأوقع بهم واقتاد ذؤاباً أسيراً وذهب به الى فِناء أمه فقتله بمرقب منها ثم قال لها : هل بلغت ما فى نفسك ؟ قالت : نعم مُتِّعت بك[2] .

ألا ان أشد ما يملك النفس من أمر أولئكم النساء، أن يدفعن بأبنائهن فى غمرة الواجب، ومن دونها رَصَد الموت، وبذل المهجات . لأن مِيتة العز أروح فى نفوسهن، وأمثل بأبنائهن، من حياة العجز . ودونك حديثاً، لولا ان تاريخ العرب حافل بالكثير من مثله، لكان أنشودة العظمة والفخار لتلك الأمة المجيدة الكريمة .

ذلك ان ظعائن من بنى كنانة خرجن فى ركبهن، وكان على خفارتهن ثلاثة

---

(١) ان هذه الحادثة وان كان مرجعها الى أول العهد الاسلامى فان بداوتها وذهاب الكبر بالمروءة فيها يسوغان روايتها فى هذا الجزء من هذا الكتاب (٢) الأغانى ج ١٤ ص ٢٦

من رجال القوم أحدهم ربيعة بن مكدّم — وكان غلاماً فتيًّا له ذؤابتان — فبينما هم في طريقهم أبصروا بجمع من بني سُلَيم يملك عليهم عُرض الطريق ، وبين الحيَّين ثارات وأحقاد لا تلتئم جراحها ، ولا تخمد جذوتها . فقال ربيعة لِمَن معه : أنا آتيكم بخبر القوم . فلما همَّ بالسير قالت امرأة : هرب ربيعة ! فقالت أخته : أين تنتهي نَفرة الفتى ؟ ! فعطف عليهن وقد رجف جسمه بما سمع منهن وقال :

لقد علمت انني غير فَرِق   لأطعننَّ طعنةً وأعتنق[١]

أصبحهم صاحي بمحمَرّ الحدق   عَضْباً حساما وسنانا يأتلق

ثم انطلق يعدو به فرسه ، فأصاب رجلاً من بني سليم فقتله ، ورماه رجل منهم بسهمه فأصاب يده فنزف دمه ، فلحق بالظعائن يستدمي[٢] حتى انتهى الى أمه ، فقال : اجعلي على يدي عصابة ، ثم أخذ يقول :

شُدِّي عَلَيَّ العصب أُمَّ سَيَّار   فقد رُزِيت فارساً كالدينار

يَطعَنُ بالرُّمح أمام الأدبار

أما أمه فلم يذهب بلبها ما رأت ، ولم يلفتها ما سمعت من شطر قلبها عن السير به في سبيل الواجب . فما كان جوابها إلا قولها :

إنا بنـو ثعلبة بن مالكْ   مُرَزَّأٌ أخيـارُنا كذلكْ

من بين مقتول وبين هالكْ   ولا يكون الرزء إلا ذلكْ

قالت ذلك بينا هي تشد العصابة على يده ، فاستسقاها ماء فقالت : ان شربت الماء مُتَّ ، ولكن كُرَّ على القوم . فكرَّ راجعاً يشتد على القوم وينزفه الدم ، وقال للظعائن أوضعْنَ[٣] ركابكن حتى تنتهين الى أدنى البيوت من الحي فاني لمائت

---

(١) الفرق الجبان واعتنق يريد بها اعتناق الأبطال عند النزال (٢) استدمى الرجل طأطأ رأسه يقطر منه الدم (٣) الاتضاع السير بين القوم

وسوف أقف دونكن لهم فأعتمد على رمحى فلا يقدمون عليكن لمكانى . ثم وقف على فرسه يعترض طريق القوم وركز رمحه فى الأرض واعتمد عليه ، وهنالك فاضت رُوحه والقوم بمنجاة عنه ، لا يقدمون هيبة له ، ورعباً من بلائه واعتقاداً منهم بأنه رابض فى موقفه ربضة الأسد المستجمع المتحفز . فلما طال بهم موقفهم ورابهم مكان صاحبهم ، رماه أحدهم بسهم فأصاب فرسه فوقع جثة هامدة ، على حين اعتصم النساء بالحى فلم يكن اليهن من سبيل . فلُقِّبَ ربيعة منذ يومئذ بحامى الظُّعُن ، وهو الذى حماهن حيًّا وميتاً[1] .

كذلك تقذف الأم بولدها فى لهوة الموت وما به من هوان عليها ، ولا بها من غَناء عنه . فهو عَرْف الحياة تتنسمه ، ونور الوجود تتلمسه . ومن أجل ذلك آثرته بحياة الخلود ، حياة المجد والحمد والذكر الكريم .

ألا أن الناس ليظلمون تاريخ العرب أن زعموا أن حاتماً مُسْتَنُّ الجود بين العرب فذلك ميراث أمه ائتمنته عليه ، وسجيتها طبعته عليها ، فما كان له إلاّ أن يكون جواداً كريماً .

لقد كانت عُتْبة بنت عفيف أم حاتم الطائى موفورة الثروة ، فياضة اليد ، فكانت لا تبقى على شىء إذا قصدها سائل ، أو هبط بفنائها نزيل . فلما رأى اخوانها اتلافها حجروا عليها مالها ، حتى إذا ظنوا أنها قد وجدت ألم ذلك أعطوها طائفة من أبلها ، فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتيها كل سنة تسألها فقالت لها : دونك هذه الإبل فخذيها ، فوالله لقد عضنى الجوع ما لا أضيِّع معه سائلاً . وأنشأت تقول :

لَعَمرك قِدْماً عضنى الجوع عضة فآليت ألّا أمنع الدهرَ جائعا

(١) الأغانى ج ١٤ ص ١٢٦

فقولا لهذا اللائمى اليوم اعفنى ... وان أنت لم تفعل فعَضَّ الأصابعا
فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم ... سوى عذلكم أوعذل من كان مانعا
وماذا ترون اليوم الا طبيعة ... فكيف بتركى يا ابن أمَّ الطبائعا[1]

تلك أثارة من نفاذ المرأة العربية فى بنيها واحتكامها بنفوسهم ، واستثارتها روح الفضائل والمكارم فيهم . وما بلغت ذلك إلا بفرط حبهم لها ، ولياذهم بها ، وعكوفهم عليها . ومن أمثالهم : « الى أمه يَلهَفُ اللَّهْفان »

ولقد بلغ من كرامتها عليهم ، ووفور منزلتها بينهم ، أن السُّلَيك بن السُّلَكة السَّعْدِى — وأمه جارية حبشية — أطار نومه ، وأثار همه ، أن تشتمل بلاد العرب على خالاته ، ونظائر أمه ، جوارىَ قد ملكهن الرق ، وأزرى بهن التبذل ، وودَّ لو وجد من ذات يده ما يمكنه من افتدائهن جميعاً . فذلك حيث يقول[2] :

أشابَ الرأسَ انى كل يوم ... أرى لى خالة بين الرحال
يَشُقُّ عَلَىَّ أن يَلقين ضيما ... ويَعْجِزُ عن تخلُّصِهِنَّ مالى

ذلك أمر المرأة فى بنيها . فأما بناتها فهن أتم بها ائتماماً ، وأطول معها مقاماً ، واكثر لها لزاماً . ومن أجل ذلك كن بها أشبه ، وكان أدبها بهن أمثل ، ولعمر أبيك انهن لزَهر الروض شبيه بعضه ببعض ، وهن لأمهاتهن أولى بقول من يقول :

فان يك سيار بن مكرم انقضى ... فانك ماء الورد ان فقد الورد

ولا تزال الفتاة عاكفة على أدب أمها حتى تحمل الى زوجها فاذا احتملت طوقتها بوصية تجمع بين شتاتها أشد ما يحوجها فى دار زوجها .

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٩٣
(٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٥١

وأن لك فيما أنا سائقه اليك من الحديث لآية بالغة بما كان للمرأة يومذاك من تكرِمة وتأديب .

ذلك أن الحارث بن عمرو ملك كندة خطب الى عوف بن مُحَلِّم الشيبانى ابنته . فلما كان يوم بنائه بها وأرادوا أن يحملوها اليه قالت لها أمها :

أى بنية ، أن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما اليها ، كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال ... أى بنية انك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت ، إلى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أَمَة ، يكن لك عبداً ، واحفظى له خصالاً عشراً ، يكن لك ذخراً ، أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة ، وحسن الطاعة . وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلاّ أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فان تواتر الجوع مَلْهَبَة ، وتنغيص النوم مَغْضَبَة . وأما السابعة والثامنة فالاحتراس بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ، ومِلاك الأمر فى المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير . وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصينّ له أمراً ، ولا تُفْشِنَّ له سراً ، فانك ان خالفت أمره ، أوغرت صدره ، وان أفشيت سره ، لم تأمنى غدره .

ثم إياك والفَرَحَ بين يديه ان كان تَرِحا ، والتَّرَحَ بين يديه إذا كان فرحا ، فان الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له اعظاماً ، يكن أشد ما يكون لك اكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما يكون لك مرافقة .

واعلمى أنك لا تصلين الى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت أو كرهت ، والله يخيرُ لك .

ثم احتُملَت اليه فعظم موقعها منه وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن[١]

وقالوا ان النعمان بن المنذر تزوج أربعاً من أربع قبائل تأييداً لعرشه وتثبيتاً لملكه : واحدة أنمارية ، والثانية سُلَمية ، والثالثة نَمَرية ، والرابعة أسدية

فقال للأولى : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لى . عَطِّرِى جلدك ، وأطيعى زوجك ، واجعلى الماءَ آخر طيبك .

وقال للثانية : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لى . لا تجلسى بالفِناَء ، ولا تكثرى المراء ، واعلمى أن أطيب الطيب الماءَ .

وقال للثالثة : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لى . لا تطاوعى زوجك فتُمِلِّيه ، ولا تعاصيه فتُشْكِيه[٢] ، وأصْدُقيه الصفاء . واجعلى آخر طيبك الماء .

وقال للرابعة : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لى . أَدْنى سِترَكِ ، واكرمى زوجك ، واجتنبي الإباء ، واستنظفى بالماء[٣]

(١) الميدانى ج ٢ ص ١٤٤ والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٢

(٢) تشكيه تحملينه على الشكوى (٣) بلاغات النساء ص ٩٢

(٣)

المـــرأة العربيـــة

فى عامة حياتها

١ — عملها

الوَرَهُ والُخرق خَلتان ينبو عنهما طبع الحرة الشريفة ، فلا تطيقهما ولا تحتمل أن توصم بهما

فأما الورهاء فالهَوجاء التى لا يتم لها عمل . وأما الخرقاء فالتى تدَّعى العمل ولا تحسنه . وهما بغيضتان الى العرب جميعاً . وقديماً تحامَوْهما وتواصَوْا باجتنابهما مهما أوتيتا من بسطة الثراء ، ودرجتا بين مهاد النعماء . لأن الفراغ مدعاة الملل ، والملل سبيل الفساد .

وفى سبيل ذلك يقول الحارث بن كعب المِذْحَجى لبنيه — وقد جمعهم بين يديه فى آخر عهده بالحياة : — أياكم والورهاء ، فانها أدوأ الداء ، وتجنبوا الخرقاء ، فان ولدها الى أفن يكون .

ان امرأة واحدة من قريش عرف عنها الُخرق فكانت تجتلب الصوف فتغزله ثم تنقض ما تغزله . وبرغم ما كان لها من سعة العيش ودعة الحياة اتخذها العرب مثلاً سائراً . كلما رأوا رجلاً رزق اليسار وحُرِم حسن التصرف فيه قالوا : خرقاء وجدت صوفاً[1] . واليها أشاروا ، وبها شبهوا . وهى التى جعلها الله جل ذكره مضرب المثل فى ذلك فقال : « وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً » .

---

(١) أمثال أبى هلال ص ٢٨٣

لذلك لم يكن بدعا أن تأبى ابنة أوس بن حارثة على نفسها أن تكون زوجا للحارث بن عوف ، لأنها لا عمل لها ، فهى لا كفاية لها ، وهى التى ستحتمل من دار سيد العرب إلى دار سيد العرب ! .

تلك أثارة من البيان بما كان للمرأة يومذاك من داعية إلى العمل

فأما ذلك العمل فعلى نوعين :

نوع شامل ينضوى تحته النساء جميعاً وفيهن الفتاة المدلَّلَةُ ، والسرية السنية ، قضاء للواجب ، ودفعاً للملل ، وتفادياً من سوء الأحدوثة . وآخر يتحذنه مَجْلَبَةً للرزق ، ومَعْدَاة على الحاجة ، وعونا على الزمن ، ودفعاً لسؤال اللئيم

فمن الأول :

١ — أَسْوُ الجراح ، وشد العظام ، وحياطة الدم دون النزيف . ونفاذهن فى ذلك شبيه بنفاذ الرجال فى أساليب القتال ، ومقارعة الأبطال ، لحاجتهن اليه إذا اتقدت الحرب ، واشتجرت السيوف ، ونفذت الرماح إلى أعطاف الصدور . فهنالك يغتمرن الموقعة حاملات أداوَى الماء[1] ، وإلى جانب كل منهن ما تحتاج اليه الجراح من لفائف وجبائر وما سوى ذلك

وهن يُسَمَّيْنَ لذلك بالأواسى . وفيهن يقول قَيْسُ بن الخَطيم وقد طعن عدوّه طعنة منفسحة الجوانب جمة الشعاب :

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر ‌ ‌ ‌ ‌ لها نَفَذٌ لولا الشُّعَاع أضاءها[2]

يهون علىّ أن تَرُدَّ جراحُها ‌ ‌ ‌ ‌ عيونَ الأواسى إذ حَمِدت بَلَاءها

فجعل أقصى طعنته القاتلة أن تردَّ جراحُها عيون الأواسى فلا يجدن إلى شفائها سبيلاً .

---

(١) الأداوى — بفتح الهمزة — جمع اداوة — بكسرها وهى وعاء من الجلد يتخذ للماء

(٢) النفذ النافذة أو النفوذ والشعاع ما تطاير من الدم أراد أن طعنته ثغرت فى جسم عدوه ثغرة أضاءت ما وراءها لولا الدم المنفجر منها

وقد انبلج صبح الإسلام على كرائم حسيبات رافقن الغزاة الفاتحين مسعفات آسيات فكن فى المحل الأمكن من نفوس المسلمين جميعاً . ولنا إليهن عودة فى الكلام على المرأة المسلمة ان شاء الله .

ب — غزل أصواف الغنم وأوبار الإبل . وذلك مُسْلَاتُهُنَّ وأداة لهوهن . ومن أمثالهن فى ذلك : نِعْمَ لَهْوُ الْحُرَّةِ المِغْزَل .

ح — الضرب على المَعَازف من دفوف وطبول وصنوج ومزاهر ومزامير وطنابير وأشباهها[1] . بذلك كن يلهون فى أفنيتهن أيام مواسمهن ومجامعهن وبذلك كن يخرجن مبتهجات لملاقاة بطل مظفَّر أو عند نبوغ شاعر مبين . وقد خرج نساء بنى النجار وولائِدهُنَّ للقاء النبي صلى الله عليه وسلم عازفات على المزاهر صادحات متغنيات[2]

وممن برع فى الغناء ماويّة ابنة عَفْزَر إحدى ملكات الحيرة وهى التى زوجت نفسها فيما بعد من حاتم الطائى . وكانت على سمو مكانها فتتلقى فتيان العرب فيفضون اليها باشعارهم فتروِّقه وتلقيه اليهم بصوت يميد بأجسامهم ويهزما ضُمَّت عليه صدورهم

ومما ذكروا أن الحارث بن ظالم أساء اليه خالد بن جعفر بين يدى النعمان فخرج يهدُر غضباً حتى انتهى الى ماوية فاقترح عليها أن تغنى هذه الأبيات[3] :

تعلَّم أَبَيْتَ اللَّعْنَ انى فاتك ... من اليوم أومِنْ بعدِهِ يا ابن جعفر
أخَالِدُ قد نبهتنى غـــير نائم ... فلا تأْمَنْ فتكى يَدَ الدهر واحذرا

(١) المعازف جمع معزف ومعزفة — بكسر الميم فيهما — أدوات اللهو أخذت من العزف وهو اختلاط الصوت . والدفوف جمع دف قال ابن منظور ، والدف الذى يضرب به النساء . والصنوج جمع صنج — بفتح الصاد — وهو على نوعين نوع لا وتر له وهو شبيه بالدف وآخر ذو أوتار وذلك مما نقله العرب عن الفرس قال ابن منظور ويقال امرأة صناجة ذات صنج . والمزاهر جمع مزهر — بكسر الميم — وهو العود والطنابير جمع طنبور وطنبار وهو من المعازف ذات الاوتار (٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٠ — ٧٨
(٣) الأغانى ج ١٠ ص ١٨

أَعَيَّرْتَنِي أنْ نِلْتَ منا فوارساً غداة حُرَاضٍ مثلَ جنات عَبْقَرِ[1]
أَصابهُمُ الدهر الخَتُورُ بِخَتْرِهِ ومن لا يقِ الله الحوادثَ يَعْثُرِ

نخرج من عندها ينتفض كالمحموم لفعل الصوت به ، ونفاذ الإيقاع فى نفسه ، حتى عثر بخالد فقتله .

على أن الغناء من حيث هو فنٌّ ومرتزق لم يكن فى شىء من نساء العرب ، بل كان صناعة موقوفة على الْقِيَان ، وهن اللواتى يُجْتَلَبْنَ من أطراف بلاد الفرس والروم

وأول من شدا بالغِناء فى زعم العرب قَيْنتان لمعاوية بن بكر أحد العماليق الأُوَل تدعيان بالجرادتين[2] ثم ذاع الغنـاء على أثرهما بين القِيَان لأنهن كن يغنين الشعر العربى بالألحان الفارسية واليونانية فيكون له فى أسماع العرب تأثير لا يناله الوصف

وفى أولئك القِيَان ومجالس غِنَائهن يقول عمرو بن الإِطْنَابة ملك الحجاز :

عَلِّلانى وعللا صاحبَيَّا واسقيانى من الْمُرَوَّق رَيّا[3]
ان فينا القيان يعزفن بالدَّ ف لفتياننـــا وعيشا رخيَّا
يتبارين فى النعيم ويصبُبــــن خِلالَ القرون مسكاً ذكيا
إنما هَمُّهُنَّ أن يتحليـــن سُموطا وَسُنْبُلاً فارسيا
من سُمُوطِ المَرْجَانِ فُصِّلَ بالدُّ ر فَأَحْسِنْ بِحَلْيِهِنَّ حُلِيَّا

ء — إلى كل ذلك تقوم المرأة بأمر البيت ، وما اليه من إعداد المطاعم ، ورعاية الخيل ، وهنء الأبل[4] .

---

(١) حراض واد قرب مكة أغار فيه خالد على عشيرة الحارث فقتل رجالهم واستبق نساءهم وأطفالهم وعبقر موطن يزعمه العرب من مواطن الجن فينسبون اليه كل غريب عندهم (٢) الميدانى ج ١ ص ٨٧ (٣) يريد بالمروق الشراب المصفى (٤) هنأت الجارية البعير طلته بالهناء — بكسر الهاء — وهو القطران ليبرأ من الجرب

ولا يفوتنا وقد ذكرنا حاجة المنزل أن نلمّ بشيء من مطاعم العرب لأنها أمسّ الأعمال بالمرأة ، وألزم لها ، فنقول :

قِوَام هـذه المطاعم اللبن والتمر والبر والشعير والعسل والسكر والأرُز والزُّبد واللحم والزيت والشحم والسَّمن .

وأشمل مطاعمهم الثريد والحَيْس وهو التمر يغلى مع اللبن والسمن ثم يدهك بعضه ببعض . وقد يضاف اليه بعد ذلك السَّوِيق .

ولهم فيما عدا هذين مطاعم مألوفة .

منها الفالوذج   وكان عبد الله بن جَدعان القُرَشِيّ قد أكله على مائدة كسرى فلما بلغ من نفسه سأل عنه فقيل له هو لُبَاب البُرّ يُلْبَكُ مع العسل فابتاع غلاماً فارسياً وقدم به مكة فصنع بها الفالوذج ومن هنالك ذاع بين العرب .

والسَّخِينة   وهى متخذة من الدقيق دون العصيدة فى الرقة وفوق الْحَسَاء . وأكثر ما عرفت عند قريش . وأشد ما يألفونها عند جَهد الدهر وشدة الأزمات . وكانوا يعيّرون بها حتى سميت قريش فى موطن التعريض والتنابز بالألقاب « بالسخينة » .

قال حسان بن ثابت يهجو قريشاً :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها   وليَغلبَنّ مُغَالب الغُلاّب

والبَرِيك   وهو الرطب يؤكل بالزبد أو السَّمِن .

والخزيرة   وهى أن ينصب القدر بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير فاذا نضج ذر عليه الدقيق فان لم يكن لحم فهو عصيدة .

والرَّبِيكَة وهى التمر يعجن بالسمن والأَقِط فيؤكل وربما صب عليه الماء فشرب . وفى المثل : غَرْثَانُ فاربُكوا له . وذلك أن رجلاً قدم على أهله وهو جائع عطشان فبشروه بغلام وأتوه به فقال : والله ما أدرى أآكله أم أشربه ؟ فقالت امرأته : غرثان فاربُكوا له . فلما طعم وشرب قال : كيف الطَّلا[١] وأمُّه ؟

والبسيسة وهى الدقيق أو السويق يُلَتُّ بالسمن أو الزُّبد

والفَرِيقة وهى شيء يعمل من البُرِّ ويخلط فيه أشياء للنُّفَسَاء

ومما يصنع للنفسَاء أيضاً :

الفُؤَارَه وهى الْحُلْبَة تطبخ بالتمر .

والْحَرِيرة الْحسَاء من الدَّسَم والدقيق .

والبَهَطّ وهو الأُرْز يطبخ باللبن والسَّمِن .

والمتتبع لمعاجم اللغة يستوقفه كثير من هذه المطاعم . وهى على امتزاج موادها بسيطة هينة لا تُعْنِتُ صانعتها ولا تُثْقِلُ طاعمها .

وأما أعمال الارتزاق فالمرأة فيها قسيمة الرجل وشهرتها فيها تكاد تتمشى مع شهرته .

فهم يقولون عن رُدَيْنَة أنها صانعة رماح بالبحرين . واليها تنسب الرماح الرُّدَيْنِية[٢] وهى أكرم الرماح جوهراً وأسرعها نفاذاً وأمنعها على اغتماز

وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها على نُبْلها وسناء شرفها ذات متاجر واسعة يتنقل بها أتباعها بين الحجاز والشام . ومثلها فى معاناة التجارة هند بنت عُتْبَة زوج أبى سفيان بن حرب سَرِيُّ قريش وثريُّها

---

(١) الطلا ولد الغزال (٢) لسان العرب ج ١٧ ص ٣٧

وهنالك أعمال يتناولها ذوات الْخَصَاصة من النساء دفعاً للحاجة واستدفاعاً لذل السؤال .

ومن ذلك جمع الكَمْأَة[1] من الأدوية وبيعها ، ودبغ الجلود ، وتنميق الحصير وانتجاع الأسواق ، وارتيـاد مختلف الأحياء ، لابتياع التمر والعسل والسَّمن ، أو بيعها ، أو استبدالها بأمثالها ، واعتراض الركبان فى مغداهم ورواحهم بالقُدُور والأَدَم يبِعْنها عليهم ، والطواف على الفتيان والفتيات بالعطر يُطَيِّبْنَهم به ، والنداء فى الأحياء بين النساء بالخرز لتحلية الثياب وبالعقود والدمالج والقِرَطَةِ وودعات الأطفال وهى عقودهم من الودع .

ومن النساء من اتخذن النياحة على الموتى عملاً ومهنة . ومن أمثال العرب فى ذلك : ليست النائحة الثَّكْلَى كالمستأجَرة .

ومنهن من همُّهن تَعَرُّفُ الغيب وكشف حجب المستقبل . ولهن فى ذلك وسائل منها زجر الطير . وذلك أن تضرب الطير بحصاة أو تصيح به فيطير فإن كان ما تراه منه ميَامِنَـه فهو سانح وإن أراها مياسره فهو بارح . وأكثر العرب يتفاءلون بالسانح ويتشاءمون بالبارح . قال ذو الرُّمَّة :

خَلِيلَيَّ لا لا قيتُمَا ما حييتما ... من الطير إلا السانحاتِ وأسعدا

ومنهم من يتفاءلون بالبارح ويتشاءمون بالسانح . قال الأعشى :

أجارَهما بِشْرٌ من الموت بعد ما ... جرى لهما طير السنيح بأشأم

وشبيه بالطير عند العرب الظباء فهى تزجر كما تزجر . غير أن لهذه قوماً ، ولتلك آخرين .

ومنها الطرق بالحصى . وذلك أن تضرب المرأة على الرمال بالحصى وتخط

(١) الكمأة — جمع كمء — نبت أبيض حلو

عليها خطوطاً متعارضة ، ثم تلقى على من بين يديها ما يَنِمُّ عنه ذلك النظام من كوامن السر وخفيات الأمور . وهاتان الصناعتان وإن آمن بهما دَهماء[1] العرب وعامّتهم فقد سخر بهما عقلاؤهم وذوو آرائهم . وفى ذلك يقول لَبيد بن ربيعة :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصا   ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ويقول ضابئ بن الحارث :

وما عاجلات الطّير تدنى من الفتى   نجاحًا ولا عن رَيْثِهِنَّ يَخِيبُ
ورب أمور لا تَضِيرُك ضَيرة   وللقلب من مَخْشَاتِهِنَّ وَجِيبُ
ولا خَيْرَ فِيمَنْ لا يُوطِّنُ نفسه   على نائبات الدهر حين تنوب

ويقول المرقّش :

ولقد غدوت وكنت لا   أغدو على واقٍ وحاتِم
فإذا الأشائمُ كالايا   مِن والايامِنُ كالأَشَائِم
وكذاك لا خَيْرٌ ولا   شَرٌّ على أحد بدائم

ويقول النابغة :

تَعَلَّمْ أَنَّه لا طَيْرَ إلا   عَلَى مُتَطَيِّرٍ وَهُوَ الثُّبُورُ
بَلَى شيء يوافق بعض شيء   أَحَايِينًا وباطلُه كثيرُ

ويقول جَهم الهُذَلى :

يَظُنَّانِ ظنا مَرَّةً يُخطئانهِ   وَأُخْرَى عَلَى بَعْضِ الَّذِى يَصِفَانِ
قَضَى اللهُ أن لا يَعْلَمَ الْغَيْبَ غيره   ففى أى أمر الله يَمْتَرِيَانِ

ومنها الكهانة والعرافة . وهما آثر علوم القوم ، وأنفذها فى نفوسهم ، وأجلبُها لتصديقهم واقرارهم ، ولهما القول الفصل فى حكومتهم وخصوماتهم . وهم يقولون

(١) دهماء القوم جماعتهم

أن مرجع هذين العلمين الى الملائكة لأن رفاق الكهان والعرافين من الجن يعلو بعضهم بعضاً حتى يقاربوا السماء فيسترقوا السمع مما يتحدث به سكانها . والكهانة والعرافة كلتان تكادان تترادفان . إلا أن من اللغويين من فرّق بينهما بأن الكهانة علم إدراك الماضى ، والعرافة علم إدراك المستقبل .

وهذان العلمان وان ادعاهما الرجال والنساء على سواء فان جمهور العرب يرى أن النساء فيهما أعمق ، وأن أخبارهن أصدق ، ورفاقهن من الجن أدق وأوثق .

وفى الحديث الذى أورده عليك يتبين لك رأى العرب فى الكواهن ومبلغِهن من علمهن :

حدث محمد بن ظَفَر فى كتابه خير البُشرَ بخير البَشَر فقال : رُوِى أن مَرْثَدَ بن عبد كُلاَل قفل[١] من غَزَاة غزاها بغنائم عظيمة . فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه ، فرفع الحجاب عن الوافدين وأوسعهم عطاء ، واشتد سروره بهم . فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا فى المنام أخافته وأذعرته وأهالته وهو نائم ، فلما انتبه نسيها حتى لم يذكر منها شيئاً ، وثبت ارتياعه فى نفسه بها ، فانقلب سروره حزناً ، واحتجب عن الوفود حتى أساء به الوفود الظن . ثم انه حشر الكهان فجعل يخلو بكل كاهن كاهن ، ثم يقول له أخبرنى عما أريد أن أسألك عنه فيجيبه الكاهن بأن لا علم عندى ، حتى لم يدع كاهناً عَلِمَهُ إلا كان اليه منه ذلك . فتضاعف قلقه ، وطال أرقه . وكانت أمه قد تكهنت ، فقالت له أبيت اللعْنَ أيها الملك ! أن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه ، لأن اتباع الكواهن من الجان ألطف وأظرف من اتباع الكهان . فأمر بحشر الكواهن اليه وسألهن كما سأل الكهان . فلم يجد عند واحدة منهن علماً مما أراد علمه . ولما يئس من طَلِبَتِهِ سلا عنها . ثم

---

(١) القفول العودة

إنه بعد ذلك ذهب يتصيد فأوغل فى طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرُفِعت له أبيات فى ذرى جبل ، وكان قد لفحه الهجير ، فعدل إلى الأبيات وقصد بيتاً منها كان منفرداً عنها ، فبرزت اليه عجوز فقالت له : انزل بالرَّحْب والسَّعة ، والأَمن والدَّعة ، والجَفْنة المُدَعْدَعة[1] ، والعُلْبة المتْرَعة[2] . فنزل عن جواده ودخل البيت . فلما احتجب عن الشمس ، وخفقت عليه الأرواح ، نام . فلم يستيقظ حتى تَصَرَّم الهَجير . فجلس يمسح عينيه ، فاذا بين يديه فتاة لم ير مثلها قَوَاماً ، ولا جمالاً . فقالت : أبيتَ اللعْنَ أيها الملك الهمام ، هل لك فى الطعام ؟ فاشتد اشفاقه ، وخاف على نفسه لما رأى أنها عرفته ، وتصام عن كلمتها فقالت له : لا حذَرَ ، فَدَاكَ البشَر ، فجَدُّكَ الأكبر ، وحظُّنا بك الأوفر . ثم قربْت اليه ثَريداً وقَديداً[3] وحَيْسًا . وقامت تَذُبُّ عنه ، حتى انتهى أكله . ثم سقته لبناً صَرِيفاً وضَرِيباً[4] . فشرب ما شاء وجعل يتأملها مقبلة مدبرة ، فملأت عينيه حسناً ، وقلبه هوى . فقال لها : ما اسمك ياجارية ؟ قالت : اسمى عُفَيْراء . فقال لها : يا عفيراء ، مَن الذى دعوته بالملك الهمام ؟ قالت مَرْثَدٌ عظيم الشان ، حاشرُ الكواهن والكهان لِمُعْضِلة بَعُدَ عنها الجان . فقال : يا عفيراء ، أتعلمين تلك المعضلة ؟ قالت : أجَلْ أيها الملك ، أنها رؤيا منام ، ليست بأضغاث أحلام . قال الملك : أصبت يا عفيراء ، فما تلك الرؤيا ؟ قالت : رأيت أعاصيرَ زَوَابع[5] ، بعضها لبعض تابع ، فيها لَهَبٌ لامع ، ولها دخان ساطع ، يَقْفُوها نَهَرٌ مُتَدَافع[6] ، وسمعتَ فيما أنت سامع ، دعاءَ ذى جَرْسٍ صادع[7] ،

---

(١) الجفنة أكبر القصاع والمدعدعة الملأى من الثريد واللحم (٢) العلبة قدح ضخم من الخشب أو من جلود الابل يحلب فيه اللبن ويستقى فيه الماء . والمترعة الملأى (٣) القديد اللحم المملوح المجفف فى الشمس (٤) الصريف اللبن الذى ينصرف من الضرع حاراً اذا حلب فاذا زالت رغوته فهو الصريح . والضريب اللبن يحلب من عدة نياق فيخلط بعضه ببعض

(٥) الاعاصير — جمع اعصار بكسر الهمزة — وهى الرياح التى تهب من الأرض فتثير الغبار فترتفع كالعمود الى نحو السماء ومثلها الزوابع (٦) يقفوها يتبعها والنهر المتدافع الفياض يدفع فيه الماء بعضه بعضا

(٧) الجرس الصوت خفياً كان أو شديداً والصادع الواضح المبين منه

هَلُمُّوا الى المَشَارع[١]، فرَوِىَ جارع[٢]، وغَرِق كارع[٣]. فقال الملك : أجَل ، هذه رؤياى ، فما تأويلها يا عفيراء ؟ قالت : الأعاصيرُ الزوابع ، ملوك تبابع[٤]، والنهر عِلْمٌ واسع ، والداعى نبى شافع ، والجارع وَلِىٌّ تابع ، والكارع عدوٌّ مُنازع . فقال الملك : يا عفيراء ، أَسِلْمٌ هذا النبىُّ أم حرب ؟ فقالت : أُقسم برافع السماء ، ومنْزل الماء من العمَّاء[٥]، إنه لَمُطِلّ الدِّماء[٦]، ومُنْطِق العقائل نطق الإماء[٧]. فقال الملك : الامَ يدعو يا عفيراء ؟ قالت : الى صلاة وصيام ، وصِلَة أرحام ، وكسر أصنام ، وتَعْطيل أَزْلام[٨]، واجتناب آثام . فقال الملك : يا عفيراء ، اذا ذَبح قومَهُ فمن أعضاده ؟ قالت : أعضاده غَطاريفُ يَمانون[٩]، طائرُهم به ميمون ، يُغْزِيهم فيَغْزُون ، ويُدَمِّثُ[١٠] بهم الحُزُون[١١]، والى نصره يعتزون . فأطرق الملك يؤامر نفسه فى خِطْبَتِها . فقالت : أبيتَ اللعنَ أيها الملك ، أن تابعى غَيُور ، ولأمرى صَبُور ، وناكحى مَثْبور[١٢]، والكَلِفُ بى ثَبُور . فنهض الملك وجال فى صهوة جواده وانطلق . فبعث اليها بمائة ناقة كوماء[١٣]

ومن النساء من يَنْفُثن العُقَد ، وتلك احدى قواعد السحر . وذلك أن تأتى المرأة بخيط أو وتر وتقرأ عليه شيئاً من مبهم القول ومعجمه ، وبينا هى تقرأ تنفث فى الخيط وتعقد عقدة منه ثم تدفنه فى مَعْطن من الأرض فلا تزال الجن موكلة بأذى المسحور به ما دام الخيط فى موطنه . وأولئك هن اللواتى أمر الله نبيه

---

(١) المشارع — جمع مشرعة — المواضع التى ينحدر الى الماء منها (٢) الجارع الشارب شيئاً فشيئاً (٣) الكارع الذى يخوض الماء (٤) التابع والتابعة ملوك اليمن سموا بذلك لأنه يتبع بعضهم بعضاً كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابعا له (٥) العماء السحاب (٦) مطل الدماء مهدرها (٧) عقائل النساء الحسيبات المخدرات منهن والأماء تريد أنه يسوى بين الناس جميعا (٨) الازلام جمع زلم — بضم الزاى وفتحها — السهام التى كان أهل الجاهلية يستقسمون بها (٩) الغطاريف — جمع غطريف — سادة القوم وأشرافهم وتريد بهم الأنصار فهم الى اليمن ينسبون (١٠) دمث مهد (١١) الحزون — جمع حزن بفتح الحاء — ما صلب من الأرض (١٢) المثبور من الثبور وهو الهلاك (١٣) للناقة الكوماء العظيمة السنام الطويلته

صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ منهن فقال : « وَمِنْ شَرِ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِي ٱلْعُقَدِ »

وهنالك المراضع . وكان نساء من البادية يأتين المدائن والقرى مِلَاءَ الأثداء فيؤبن بولدان الحضر يُرْضِعنهم ، ويتعهدن منابتهم ، بين ملاعب البدو ، ومضارب الخيام .

وكانوا يختارون المُرْضِع فى نفسها وعشيرتها فأيهن كانت أسمح خُلُقاً ، وأقوم خَلْقاً ، وأبينَ بيانا ، وأعزّ نفراً ، فهى الظافرة السابقة .

وكان من شيم العرب وأخلاقهم اذا ولد لهم ولد أن يلتمسوا له مرضعة فى غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد وأفصح له[1] . ومن أجل ذلك دفع النعمان بن المنذر بابنه الى بنى مرة ليُسْترضَع فيهم فأرضعته سلمى بنت الحارث بن ظالم[2]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرْجِع فصاحته المُعْجِزَة الى منبته فى قريش واسترضاعه فى بنى سعد وهو الذى يقول : « أنا أعْرَبُكُم[3] وُلدت فى قريش واستُرْضِعت فى بنى سعد » . وقال له أبو بكر : ما رأيت أفصح منك يا رسول الله . فقال له : ما يمنعنى ! وُلدت فى قريش وأُرضِعت فى بنى سعد[4] .

وفى حديث حليمة بنت أبى ذؤيب مرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم تجد خبر المراضع وخروجهن الى قرى العرب يبتغين المآب بأطفالهم .

قالت : خرجت فى نسوة من بنى سعد عشرة يطلُبْنَ الرُّضَعاء ، فى سنة شَهْبَاء[5] ، على أتَان قمراءَ[6] ، ومعنا شارِف ما تَبِضُّ[7] ، وما كنا ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذى معنا[8] ، ما فى ثديي ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه ، حتى قدمنا مكة . فما منا امرأة إلاّ وقد عُرِض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه

---

(١) انسان العيون ج ١ ص ٩٦ (٢) الأغانى ج ١٠ ص ٢١ (٣) افصحكم عربية
(٤) انسان العيون ج ١ ص ٩٦ (٥) شهباء جدباء (٦) قمراء شديدة البياض
(٧) الشارف الناقة المسنة وتبض ترشح بقطرة من اللبن (٨) تريد بالصبي ابنها

إذا قيل لها يتيم . وذلك أنّا إنما نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول يتيم ما عسى أن تصنع أمه وجدة ؟ فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة معى إلا أخذت رضيعاً غيرى . فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبي : ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن الى ذلك الرضيع فلآخذنه . قال : لا عليك ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، فذهبت اليه فأخذته

وفى حديث آخر أن حليمة قالت : استقبلنى عبد المطلب فقال : من أنت ؟ فقلت : أنا امرأة من بنى سعد ، قال : ما اسمك ؟ قلت : حليمة ، فتبسم عبد المطلب وقال : بَخٍ بَخٍ سعد وحلم ، خصلتان فيهما خير الدهر ، وعز الأبد ، يا حليمة أن عندى غلاماً يتيماً ، وقد عرضته على نساء بنى سعد فأبين أن يقبلنه ، وقلن ما عند اليتيم من الخير؟ إنما نلتمس الكرامة من الآباء ، فهل لك أن ترضعيه ، فعسى أن تسعدى به؟ فقلت : ألا تذرنى حتى أشاور صاحبي ؟ فانصرفت الى صاحبي فأخبرته ، فكأن الله قذف فى قلبه فرحاً وسروراً . فقال لى : يا حليمة خذيه . فرجعت الى عبد المطلب فوجدته قاعداً ينتظرنى فقلت : هلم الصبيَّ . فاستهلَّ وجهه فرحاً . فأخذنى وأدخلنى الى بيت آمنة فقالت لى : أهلاً وسهلاً ، وأدخلتنى فى البيت الذى فيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فاذا هو مُدْرَج فى صوف أبيضَ من اللبن ، وتحته حريرة خضراء ، راقد على قفاه يغط ، تفوح منه رائحة المسك ، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله ، فوضعت يدى على صدره فتبسم ضاحكاً وفتح عينيه إلىَّ ، فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر ، فقبّلته بين عينيه وأخذته[١] .

والعرب يأبون أن تؤجر الحسيبات منهن على الرضاع ، ويقولون فى ذلك : « تجوعُ الحُرَّة ولا تأكل بثَدْيَيْها »

---

(١) انسان العيون ج ١ ص ٩٦ — ٩٧

على أن هذه الصناعات وان آذن بعضها باتضاع فى منزلته، وهبوط فى مادته فليس منها ما يؤذن بضعَة فى الُخلق ، ولا ثَلْمة فى العقل ، ولا ذلة فى الحياة . وان كان شريفاتُ العرب وربات الحسب منهم يتعالين عن الارتزاق بالصناعة فلم يتجاوزن بذلك حد الإدلال بالعز، والمباهاة بالغنى . فأما شرف النفس ونقاء العرض وصدق القول، وفرط الإباء، فهن فيهـا على سواء . وبين يدينا حديث عن امرأة تبيع الخرز بالبادية . وتلك المرأة وان تأخر بها الزمن الى أول العهد الاسلامى فان فى عراقة بداوتهـا ما يلحقها بالجاهليات . وقَلَّ من نساء الاعراب من غيَّرَها الاسلام فى طبع أو عادة أو خُلُق .

أما الحديث فقد رواه رُسْتَم العَبْدِىّ قال :

خرجت من مكة زائراً لقبر النبي صلى الله عليه وسلم اذا جُوَيرية تسوق بعيراً وتترنم بصوت حلو بهذا الشعر :

فيا أيها البيت الذى حِيلَ دونه · بِنا أنت مِن بيت وأهلُك من أهل

بنا أنت من بيت دخولك لذة · وظلك لو يُسْطاع بالبارد السهل

ثلاثة أبيـات فبيت أُحِبُّــه · وبيتان ليسا مِنْ هواى ولا شكلى

فقلت : لمن هذا الشعر يا جُوَيرية ؟ قالت : أما ترى تلك الـكَوَّة[1] التى عليها الحمراء ؟ قلت : أراها . قالت : من هناك نَجَمَ[2] الشعر . فقلت : أَحَىٌّ قائله ؟ قالت : هيهات ! لو أن لميت أن يرجع لطول غيبة كان ذلك ! . فأعجبنى فصاحة لسانها ، ورقة ألفاظها . فقلت : ألك أبوان ؟ فقالت : فقدت أكبرهما وأكثرهما وأجلَّهما ، ولى أم . قلت : فأين أمك ؟ قالت : منك بمرأى ومسمع . واذا امرأة تبيع الخرز على ظهر الريق بالُجحْفَة . ثم قالت : يا أم ، شأنك ، فاستمعى من عمى

(١) الـكوة — بفتح الـكاف وقد تضم — النافذة فى الحائط (٢) نجم ظهر

ما يلقى اليك . فقالت : حيَّاكَ الله هِيهِ ، هل من جائية بخير ؟ قلت : هذه بُنَيَّتك ؟ قالت : كذا كان أبوها يقول ! قلت : أتزوجينيها ؟ قالت : لعلةٍ ما رغبتَ فيها ! فوالله ما لها جمال ، ولا لها مال . قلت : لحلاوة لسانها ، وحسن عقلها . قالت : أيُّنا أمْلَك ، هى . أم أنا ؟ قلت : هى . قالت : إياها نخاطب ! قلت : تستحى أن تجيب إلى مثل هذا . قالت : ما هذا عندها ، أنا أخبرُ بها . فقلت : يا جارية : أما تسمعين ما تقول أُمك . قالت أَسمع . قلت : ما عندكِ ؟ قالت : بحَسْبك أن قلتَ تستحى فى مثل هذا ! فاذا كنتُ أَستحى من شىء فلِمَ أفعله ؟ ! . . . قالت ذلك ثم اعتزمت فى ابائها وانصرفت .

وشبيهُ هذا الحديث وما ضمَّ من صراحة فى الرأى ، ومجانبة للكُلفة ، وحسن نَسَق فى الكلام ، بما أسلفنا من أحاديث ذوات الشرف والسناء من النساء . وفى ذلك وأمثاله ما يدلك على أن الدم العربى يتدفق إلى تلك القلوب من مَعين واحد ، ويجرى إلى غاية واحدة .

﴿ وبعد ﴾ فان لأولئك النساء على ما بينهنَّ من تباين فى العمل ، وتناء فى الحالات ، عملاً عامًّا ، يجتمعن اليه ، ويشتركن فيه . ذلك هو اقتياد مشاعر الرجال وتصريف أزمّتها ، بما أوتين من نفاذ فى الرأى ، وسعة فى الحيلة . وقوة فى الأسلوب لا لرجالهن وأبنائهن فحَسْب . بل للقوم جميعاً : ان عصفت برؤوسهم عاصفة الشر واحتكمت بنفوسهم الحمية : حمية الجاهلية ، سكَّنَّ الثائرة وأطفأن النائرة . وان بردت دماؤهم ، وخمَدت عزائمهم ، وقرّوا على الذل ، وأغضَوْا على القذى ، هِجْن أشجانهم ، وابتعثن أضغانهم ، ورمينهم بكلمات دونها حرّ الطعان ، ووخز السنان . فهن ركن الأمة ، وعماد البلاد ، ان رجفت بها الأرض ومادت بأطرافها الحادثات

ولقد أخذ الربيع بن زياد العامرى درع قيس بن زهير العبسى وغصبه اياها وأبى

أن يعيدها وكلاهما سيد قومه . وبرغم ما بينهما من المصاهرة استحكمت حلقات الخلاف بينهما ، وقام كل يستصرخ قومه . وكاد السيف يكون حكماً بين الحيَّين ، لولا كلمات من امرأتين حسمت الجرح ، ورأبت الصدع ، وردت إلى ذى الحق حقه

فأما أولاهما ففاطمة أم الربيع . عرض لها قيس فى طريقها وهى على راحلتها فى مسيرها . فأراد أن يتخذها رهينة بدرعه . فقالت له : أين عزب عنك عقلك يا قيس ؟ أترى بنى زياد مصالحيك وقد ذهبت بأُمهم يميناً وشمالاً وقال الناس ما قالوا وشاؤا ؟ وانَّ حَسْبك من شرٍ سماعُه . فأخجل ذلك القول قيساً وتركها وهو يفكر فى أمره .

وأما الثانية فالجُمَانة بنت قيس ، قالت لأبيها لما شَرِق ما بينه وبين الربيع : دعنى أناظر جدى ، فان صلح الأمر بينكما والا كنت من وراء رأيك . فأذن لها فأتت الربيع فقالت[1] : اذا كان قيس أبى فانك يا ربيع جدى ، وما يجب له من حق الأبوة علىَّ الا كالذى يجب عليك من حق البنوة لى ، والرأى الصريح تبعثه العناية ، وتجلى عن محضه النصيحة ، انك قد ظلمت قيساً بأَخذ درعه ، وأَجدُ مكافأته اياك سوء عزمه ، والمعارض منتصر ، والبادى أظلم ، وليس قيس ممن يخوَّف بالوعيد ، ولا يردعه التهديد . فلا تركنن إلى منابذته ، فالحزم فى متاركته ، والحرب مَتلفة للعباد ، ذهّابة بالطارف والتلاد ، والسِلم أرخى للبال ، وأبقى لأنفس الرجال ، وبحقّ أقول لقد صدعت بحكم ، وما يدفع قولى الا غير ذى فهم . ثم أَنشأت تقول:

أبى لا يرى أَن يترك الدهرَ درعَه ❊ وجدى يرى أن يأْخذ الدرع من أبى

فرأْى أَبى رأى البخيـــل بماله ❊ وشيمة جدى شيمة الخائف الأبى

ولعمرى لقد صدع الرجل بقول ابنة ابنته ، وكان ذلك فصل الخطاب .

(١) الميدانى ج ١ ص ١٣١ (٢) بلاغات النساء ص ١٢٥ — ١٢٦

أما صيحتها بالقول ان طالت رقدتهم ، وهانت شوكتهم واطمأنت نخوتهم فأهون منها الوثوب على أنياب الأفاعى ، وركوب أطراف الأسنة

وأى جبان أمة يسمع قول عفيرة بنت عفان :

وان أنتمو لم تغضبوا بعد هذه   فكونوا نساء لا تعاب من الكحل

ودونكمو طيب العروس فانما   خلقتم لأثواب العروس وللغسل

فبعداً وسُحقاً للذى ليس دافعاً   ويختال يمشى بيننا مِشْية الفحل

أَو يسمع قولها بين مشتجر القنا وتحت ظلال السيوف : أَلا أن خضاب النساء الحِنّاء وخضاب الرجال الدماء .

ويسمع قول بنت حُكَيم بن عمرو العبدى العبدى :

فان لم تنالو نيلكم بسيوفكم   فكونوا نساء فى المُلاء المُخَلَّق[١]

أَى جبان أُمة يستمع هذا القول وأَشباهه من بين شفاه النساء فلا يترشف الدماء ، كما يترشف الظماء برد الماء .

ولما خرجت قريش الى أُحد لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج معهم نساؤهم يحملن الدفوف ويبكين على أصواتها المشجيات قتلى بدر فيوقدن بذلك نار الثأر فى قلوب الرجال[٢] .

ثم لما التقى الجيشان خاض المسلمون فى أحشاء قريش ، فانخلعت شُعَب قلوبهم وانحلت عُقَد صفوفهم ، وطرح لواؤهم تحت أقدامهم ، فلم يقدم رجل على حمله ، حتى كانت عَمْرَة بنت علاقمة هى التى أخذته فرفعته . فاجتمعت قريش حولها[٣] وهنالك أخذت هند بنت عتبة ومن حولها من نساء قومها يتغنين بالمُقيم المُقْعِد من الشعر . وكان من غنائهن :

---

(١) المخلق المطيب بالطيب والزعفران   (٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٦١

(٣) ابن الأثير ج ٢ ص ٦٣

نحن بنات طارق   نمشى على النمارق

الى آخر الأبيات التى أسلفناها فى يوم تحلاق اللمم . ويقلن أيضاً :

وَيْهاً بنى عبد الدار   وَيْهاً حُمَاة الديار

ضرباً بكل بتَّار(١)

فكان ذلك أشد عليهم من فتكات السيوف . فانقلبوا يقاتلون المسلمين حتى ظفروا بهم .

لم يكن ذلك كله جهد ما بلغته المرأة فى مواطن القتال ، ومجالات النزال ، بل لقد اقتحمت الطريق الى أقصى مداه ، فقادت الجحافل ، وهتكت المعاقل ، ونالت من مهج الأبطال كل منال .

فقد عَبَرَت « طَيّء » دهراً طويلاً تفيء فى غزواتها الى امرأة منهم يقال لها « رَقَاش » يعتزون بقوتها ، ويستضيئون برأيها ، ويطالعون النجح من خفقة سيفها ، ووميض عزيمتها(٢) .

تلك طيء بيضة اليمن ، وعرين البواسل ، ومربض القادة الكماة ، والذادة الحماة ، ومثار الكرم والبيان ، والحرب العوان ، عقدت ألويتها على امرأة منهم فملكت بها رقاب أياد(٣) ، وخعلت قلوب من سواهم .

﴿ أما بعد ﴾ فذلك عمل المرأة فى بيتها ، وبين عشيرتها ، وفى مادة الحياة ومعناها . أفلا تراها فى عامة ما تقصده وتعمد اليه مَفِيض الخير ، ومعين الأمل ، وعَتَاد البيت ، وَعِمَاد البلاد ؟ .

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٦٣   (٢) جمهرة أبى هلال ص ٢١٤

(٣) مجمع الأمثال ج ١ ص ١٩٤

٢ — حجابها وسفورها

إن المرأة التى تضرم جمرة الحرب ، وتخوض غمرتها ، وترسل الكلمة فتعنو لها الوجوه ، وتخلع من هولها القلوب ، لا يَضِيرها أن تخرج — سافرة — الى الرجال ، تحت ظلال السلم ، أو بين لوافح الحرب ، وليس بنافعها أن تتوارى عن العيون ، وتُسْدل من دونها الحجب ،

تلك كلمة نقدمها بين يدى موضوعنا لتعلم أن المرأة العربية إذا أرخت قناعها أو حسرته عن وجهها فليس ذلك فى شيء من حياطة الشرف أو ابتذاله .

ونحن إذا تكلمنا عن حجاب المرأة العربية فان حقاً علينا قبل ذلك أن نكشف عن معنى ذلك الحجاب حتى يكون حكم التاريخ فيه واضحاً لا عِوَج فيه .

يطلق الحجاب على واحد من اثنين :—

أولهما : قرار المرأة فى دارها والاحتجاب دون الرجال فلا تكون بمرأى ولا مسمع منهم .

الثانى : ارخاء القناع على وجهها إذا غادرت دارها لبعض شأنها .

أما الأول فما كان بالمرأة من حَرَج أن تغشى مجالس الرجال ، وتطرُق أنديتهم ، وتخطب فى محافلهم ومشاهدهم ، لا فى الخطب الملم ، والأمر المهم ، وكفى . بل فى القليل التافه من الشئون أيضاً . فقد فصلنا فيما أسلفنا حديث امرأتين قامت كل واحدة تثنى على زوجها فى نادي قومه بعد طلاقها منه من غير تحرُّج ولا استحياء .

وهنالك فى سوق عكاظ وهو أحفل مجامع العرب ، وأجمع مواسمهم ، كان النساء يأتين من كل صوب وحَدَب على اختلاف مقاماتهن ، وانشعاب ديارهن ، فيزاحمن الرجال بالمناكب فى كل ما قصدوا له ، واحتفلوا به . فبينا كنت ترى امرأة تناضل الرجل فى حومة القول ، إذا بأخرى تخطب الناس . وإلى جانب من هؤلاء امرأتان تتناشدان الشعر وقد اجتمع عليهما خلق كثير .

فلقد حدثوا أن هنـد ابنة عتبة ، والخنساء بنت عمرو بن الشريد ، تلاقتا هنالك ، فتذاكرتا مصيبتيهما ، وكانت الأولى قد قتل عنها أبوها وعمها وأخوها يوم بدر . ومات عن الثانية أبوها وأخوها . وادَّعت كل واحدة أنها أوجع مصاباً ، وأحَرُّ كبداً من أختها . ولكى تفِىَ كل بدليلها جاءت بأبرع الشعر وأروعه فى وصف مصابها ، وجُهد ما فعَل بها وبقومها . ثم انصرفتا وقد جاش بالناس الحزن ، وتملكهم الإعجاب(١) .

وما كانت الخنساء ولا صاحبتها بالتى ينكرها أحد من العرب ، فهما جميعاً فى المكان الأرفع من زكاء الحسب ، وسناء المنزلة .

تقول العرب فى أمثالها : ما يوم حليمةَ بسِرّ . فمَنْ حليمة وما يومها ؟

(١) وذلك تفصيل ما أجملناه من هـذا الموقف مما حدث أبو الفرج عن أبن أبى الزناد قال : لما كانت وقعة بدر قتل فيها عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة فأقبلت هند بنت عتبة ترثيهم وبلغها تسويم الخنساء هودجها فى الموسم — رفع العلم فوقه — ومعاظمتها العرب بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية . وأنها جعلت تشهد الموسم وقد سومت هودجها براية . وأنها تقول أنا أعظم العرب مصيبة ، وأن العرب قد عرفت لها بعض ذلك فلما أصيبت هند بما أصيبت وبلغها ذلك قالت أنا أعظم من الخنساء مصيبة . وأمرت بهودجها فسوم براية . وشهدت الموسم بعكاظ — وكانت سوقاً يجتمع فيها العرب — فقالت اقرنوا جملى بجمل الخنساء . ففعلوا . فلما أن دنت منها قالت لها الخنساء من أنت يا أخية ؟ قالت أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة ! وقد بلغنى أنك تعاظمين العرب بمصيبتك فبم تعاظمينهم ؟ فقالت الخنساء بعمرو بن الشريد وصخر ومعاوية ابنى عمرو ! وبم تعاظمينهم أنت ؟ قالت بأبى عتبة بن ربيعة . وعمى شيبة بن ربيعة . وأخى الوليد ! قالت الخنساء أو سواء هم عندك ؟ ثم أنشأت تقول

أبكى أبى عمرا بعين غزيرة	قليل إذا نام الخلى هجودها
وصنوىّ لا أنسى معاوية الذى	له من سراة الحرتين وفودها
وصخراً ومن ذا مثل صخر إذا غدا	بسلهبة الابطال قبا يقودها
فذلك يا هندُ الرزية فاعلمى	ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها

أبكى عميـد الأبطحين كليهما	وحاميها من كل باغ يريدها
أبى عتبة الخيرات ويحك فاعلمى	وشيبة والحامى الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب	وفى العز منها حين ينمى عديدها

وقالت لها أيضاً

من حسّ لى الأخوين كالـــــغصنين أو من راهما

— وهن بضعة أبيات أوردناهن فى مختار شعر النساء — الأغانى ج ٤ ص ٣٤ — ٣٥

أما حليمة فهى ابنــة الحارث بن أبى شمَّر ملك الشام . وكانت كأجمل أهل دهرها وأكملهم .

وأما يومها فذلك الذى أقصه عليك : —

استحكمت الجفوة بين المنذر بن ماء السماء ملك الحِيرَة ، والحارث بن أبى شمَّر الغسانى ملك الشام ، وطمع كل منهما فى صاحبه ، فخرج اليه بمـا ملك من قوة وبأس شديد . وبينا الحارث فى طريقه الى العراق قدم عليه قادم من الحيرة له نسبَ فى الغساسنة فأخبره أن جيش المنذر لا يناله العد وأن لا طاقة له بقتاله ! فلما ترأى الجيشان على « عين أُباغ » اختار الحارث مائة من فتيـانه كلهم شديد البأس ، قوى الشكيمة ، وأمرهم أن يأتوا المنذر فيفُضوا اليه بطاعتهم وطاعة أهل الشام جميعاً ، حتى إذا أنسوا منه هدوءا وغِرَّة فتكوا به . ثم أمر ابنتــه حليمة فطافت بهم فضَمَّختهم بالمسك جميعاً — وكان ذلك مما أفاض عليهم حمِيَّة وعزماً واقداماً — فذهبوا إلى حيث أمروا ، وقتلوا المنذر وهو فى العدد العديد من قومه حتى إذا سمع الحارث وجنده صيحة الظفر من فتيانهم زحفوا فتلاقوا بأعدائهم وأوقعوا بهم .

فراحوا فريق فى الإسار ومثله قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

ذلك يوم حليمة وهو من أروع أيام العرب وأهولها وحسبه على ما نريد دليلاً[١] .

وأما حجاب الانتقاب فلم يكن له بينهن نظام شامل ولا هيئة واحدة ، فى القبيلة الواحدة ترى « البَرْزة » وهى التى تجلس إلى الرجال وتجاذبهم الحديث سافرة غير محجوبة و « المحتشمة » وهى التى ترخى قناعها إذا خرجت عن بيتها فلا تطرحه حتى تعود . وهذا وذلك شأن ذوات السن منهن .

(١) الميدانى ج ٢ ص ١٥٠ وخزانة الأدب ج ٢ ص ١١

وشبيه بذلك شأن الفتيات . فمنهن « سَقوط القناع » وهى التى لا تكاد تنتقب ثقة بنفسها وإدلالاً بحسنها أو سيراً على سجيتها، وفى مثلها يقول المسيَّب ابن عَلَس :

إذ تستبيــك باصلَتِىِّ ناعم — قامت لتفتنه بغـير قناع[١]

ويقول المرقِّش الأصغر :

أرتْك بذاتِ الضال منها معاصما — وخدًّا أسيلًا كالوذِيلة ناعما[٢]

وإلى هذه يشير عمر بن أبى ربيعة فى قوله :

فلما تواقفنـا وسَلَّمت أقبلت — وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا[٣]

ويقول أبو النجم فى احدى أراجيزه :

من كل غرَّاءَ سَقُوط البرقع — بَلْهاءَ لم تَحْفَظْ ولم تُضَيِّـع[٤]

ويقول الأصمعى : وقد تُلْقى المرأة خِمارَها لحسنها وهى على عفة . وأنشد فى ذلك بيت أبى النجم[٥] :

ومنهن التى لا تكاد تفارق قناعهـا اذا انحسرت عن دارها : اما لاحتشامها واستحيائها وفى مثلها يقول الشَّنْفَرَى

فوا كبدى على أُمَيمة بعد ما — طمعت فهَبْهَا نعمةَ العيش زلت

لقد أعجبتنى لا سَقوطا قناعها — اذا ما مشت ولا بذات تلفُّتِ

وإما لكَلَف أصاب وجهها فهى تجهد أن تستره . وفى نحو ذلك ما نقلَ أبو زيد فى نوادره عن اعرابىّ قيل له : ما تقول فى نساء بنى فلان ؟ فقال : بَرْقِعْ وانظرْ . يريد بذلك أن عيونهن خير ما فيهن .

---

(١) تستبيك تغلبك على نفسك حتى تكون سبياً لها والأصلتى الخد الناعم الحسن

(٢) ذات الضال موضع والوذيلة المرآة ومعنى ذلك أنها لم تتحرج بما يخفى معاصمها أو يحجب وجهها

(٣) زهاها الحسن استخفها ، يقول : أن هذه الوجوه استخفها الحسن عن أن تتقنع

(٤) الغراء من الغرة وهى بياض الوجه والبلهاء الغافلة عن الشر الحسنة الظن بالناس ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله »

(٥) شرح المفضليات لابن الانبارى ج ١ ص ١٣٠

وشبيه ذلك ما حدث الراغب أن أسديًّا قبيح الوجه خطب امرأة قبيحة فقيل لها : أنه قبيح وقد تعمم لك . فقالت : ان كان قد تعمم لنا فانا قد تبرقعنا له(١)

و بين أيدينا أمثال سائرة مما أرسله العرب تنبئنا أن كشف القناع أغلب حالات فتيات العرب وأمثلها بهن .

فمن ذلك قولهم : تَرْكُ الخِدَاعِ مَنْ كَشَفَ القِناعَ ، يريدون أن الفتاة لا تستر وجهها إلا لشر تُؤْثِر أن تستره .

وقولهم فيمن لا يسترعيبه : « كَذاتِ الشيْبِ ليس لها خِمَارُ » فهم لا يرون الخِمَارَ لزاما إلا لذات الشيب فان خليقاً بها أن تواريه .

وقولهم : ان العَوَانَ لا تعَلَّمُ الخِمْرَةَ . فأما العوان فالنَّصَفُ التى ناهزت الأربعين . وأما الخِمرة فهيئة الالتفاع بالخمار . ومعنى ذلك أن العوان جاوزت السن التى كانت تعانى فيها التقنع فلا تحسنه .

ومما جرى مجرى الأمثال ما روى ابن منظور أن امرأة قالت لبعلها : مُرَّ بى على بنى نَظَرَى ولا تَمرَّ بى على بنات نَقَرَى . أى مرَّ بى على الرجال الذين ينظرون إلىَّ ولا تمرَّ بى على النساء اللواتى يعبننى ويُنَقِّرْن فى عرضى .

وشبيه بذلك ما روى صاحب التهذيب من أمثال العرب ان اعرابيـة قالت لصاحبة لها : مُرّى بى على النَّظَرَى ولا تمرى بى على النَّقَرَى(٢) .

لـكل ذلك لا نحرج أن نقول أن طرح النقاب كان أغلب حالات نساء العرب . حتى لقد غلا الرازى والطبرى فأطلقا الأمر على سُنَّة وجهه فقالا : أن نساء العرب كن يخرجن مكشوفات مُتَبَذِّلات سواء فى ذلك حرائرهن أو اماؤهن فأمرن — أى فى الإسلام — بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس(٣) .

---

(١) محاضرات الأدباء ج ٢ ص٤٩ (٢) لسان العرب ج ٧ ص ٨٧

(٣) الفخر الرازى ج ٥ ص ٣٤٩ والطبرى ج ٢٢ ص ٣٢

ذلك قول الإمامين المفسرين أرسلاه على اجماله وطَوَياه على بِلاله[١] ليخبرا به عن حالة شائعة وهيئة غالبة . والقول ما فصلناه فيما أسلفناه .

تلك الحالة الشائعة هى التى عالجها القرآن الكريم فى قوله جلت آيته : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » .

على أن هناك حالات شاملة لم تكن المرأة أيًّا كانت لِتُعْنَى فيها بأمر نقابها . وأشملها حالة الرَّوع[٢] اذا اشتملت عليها الوقائع ، أو دارت على فريقهـا الدوائر ، وارتقبت من وراء ذلك ذل السباء ، وعار الإسار . وذلك اما لشغلها بالجليل المهم من الأمر، وأما لخشيتها السباء ، فهى تظهر سافرة حاسرة حتى تلتبس بالإماء . وفى هذا الموطن يقول مُهلهِل بن ربيعة :

قَــرِّبا مَرْبَطَ المشهَّرِ مـــنى   سوف تبدو لنا ذوات الحجَال[٣]

ويقول عوف بن عطية بن الخَرِعِ التَّيمِىّ[٤] .

ولَنِعم فتيانُ الصباح لقيتهم   واذا النساء حواسِرٌ كالعُنقَرِ[٥]

من كل واضعة الِخمارِ وأختُها   تَسْعَى ومِنطَقُهَا مكان المِئْزَرِ[٦]

وتكـــر أولاهم على أخراهم   كرالمُحَلَّأِ عن خِلاط المَصْدَرِ[٧]

أما مناحاتهنّ ومواقف أحزانهنّ فهن فيها سوافر الوجوه ، حواسر الرؤوس، وفى مثل ذلك يقول مُهلهل بن ربيعة :

---

(١) يقال طويت الثوب على بلاله إذا طويته وهو ندىّ يضرب للشىء مثلا تحتمله على ما فيه

(٢) الروع — بفتح الراء الحرب (٣) المشهر فرس مهلهل والحجال — جمع حجلة — ستور العروس (٤) هو من شعراء المفضليات ج ٢ ص ٥٩ (٥) العنقر أصول القصب الأبيض

(٦) واضعة الخمار ملقيته والمنطق شقة تلبسها المرأة تحت الازار — شبيهة بما يدعونه الملكوف — يقول أنها لفزعها أو شغلها بالعظيم من أمرها سقط ازارها فظهر منطقها

(٧) المحلأ الممنوع عن الماء والخلاط اختلاط الناس والابل والماشية

حتى تبيد قبيــــلة فقبيلة ويَعَضَّ كل مثقَّفٍ بالهام[١]
وتقوم ربات الخدور حواسراً يمسحن عُرض ذوائب الأيتام

ويقول :

كنا نغار على العواتق أن تُرى بالأمس خارجة عن الأوطان[٢]
نخرجن حين ثوى كليب حُسَّراً مستيقنات بعده بهوان
وترى الكواعب كالظباء عواطلا يبكين مصرعه فقد أبكانى

ويَقول الربيع بن زياد :

من كان محزوناً بمقتل مالك فليأْت نسوتنا بوجه نهارِ
يجد النساء حواسرا يندبنه يلطمن أوجههن بالأسحار
قد كن يخبأن الوجوه تَستُّرًا فاليوم حين برزن للنُّظَّارِ
يضربن حُرَّ وجوههن على فتى عف الشمائل طيب الأخبار

وهنالك فى أعياد القوم وأعراسهم وبين مظاهر زهوهم وأفراحهم اذا نبغ شاعر حكيم أو قدم قائد عظيم يخرج فتيات الحى سوافر الوجوه يعزفن على المعازف ويرقصن على المزاهر ، ويتغنَّيْنَ بمآثر قومهن ومفاخرهم ويتمدحن بعظائمهم ومكارمهم ويرسلن القول عذباً ندياً فى وصف من اجتمعن له واحتفلن به . ولقد راب عنْتَرَةَ الفَوارِسِ ما رآه من انتقاب خدينته عبلة دونه وسكوتها عما شُغل به الناس من الإشادة به والثناء عليه بعد مآبه من حرب داحس والغبراء فقال :

ان تُغْدِفى دونى القِناعَ فاننى طَبٌّ بأخذ الفارس المُسْتَلْئِمِ[٣]
أثنى علىَّ بما علمت فاننى سمح مخالفتى اذا لم أُظلم

(١) المثقف السيف المصقول والهام — جمع هامة — الرؤوس (٢) العواتق جمع عاتق وهى الفتاة التى لم تروج (٣) اغداف القناع ارخاؤه على الوجه يقول أن تبت عينك عنى فأرخيت قناعك دونى فأنا بصير بقتل الفرسان وأسر الأقران . التبريزى ج ١ ص ٩٨

فاذا ظُلِمْتُ فان ظلمى باسل　　مُرٌّ مذاقته كطعم العلقم(١)

وما زال يتمدح بحسن ضريبته ، ويُمن نقيبته ، وجهد عزيمته ، حتى استوفاهن نيّفاً وأربعين بيتاً

أفلا تراه كيف عد انتقابها دونه انكاراً لعظيم شأنه ، وسمو مكانه ؟ ثم ألا تراه كيف ساق اليها من مأثور مكارمه ما كان خليقاً أن تصوغه له ، وتُفْرِغَهُ عليه ؟

ذلك وربما اختمرت المرأة حتى اذا التقت بالجبان فى طريقها كشفت عن وجهها ازراء به ، وايماء له بأنه ليس بالذى يحتشم منه . وقد حدثوا عن نساء بنى الحارث ابن كعب أنهن لم يكنَّ يُقَنَّعْنَ دون جبنائهن . وذلك الذى عناه الحارث بن حِلِزَّةَ ألْيَشْكُرِىُّ فى قوله :

عيشى بجَدٍّ لا يضرْ　　كِ النُّوكُ ما أوتيت جَدًّا(٢)

وضَعى قناعك ان رأيـــتِ الدهر قد أفنى مَعَدًّا

يقول اذا ذهب الدهر بمعد فضعى قناعك فليس هناك عظيم يأخذك الحياء منه(٣)

كل ذلك شأن الحجاب فى أمم العرب الطارئة وهم بنو اسماعيل وحَفَدَةُ قحْطان الذين خلفوا على جزيرة العرب بعد أن عصف الدهر بأهلها الأولين .

أما الأمم البائدة — وهن عاد وثمود وطَسْم وجَدِيس والعمالقة وأُخر غيرهن لا يعلمهن إلا الله — فلم يكن الحجاب معروفاً عندهن بل لقد تبرج النساء فى تلكم الأيام تبرجا أخذه الله عليهم فنهى المسلمين عن مثله فى قوله تبارك اسمه : « وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى » وفى تفسير هـذه الآية الكريمة يقول النيسابورى : كانت المرأة تلبس درعاً من اللؤلؤ فتمشى به وسط الطريق بين

(١) الباسل الكريه　(٢) الجد — بفتح الجيم — الحظ والحظوة والرزق . والنوك — بفتح النون وضمها — الحمق يقول أن هناوة الحياة ونعيمها مرجعها الى الحظ لا الى العقل

(٣) جمهرة الأمثال ص ٧٦

الرجال[١] . وفى كل ذلك ما ينبئنا أن طرح النقاب فى تلك الحقب المتناكرة لم يكن مرجعه الى بساطة البداوة وصفاء الملَكات بل كان سبيله ما هم فيه من نعومة العيش وصفو الحياة .

على أننا لا نزال نَثنى القول ونكرره بأن حجاب المرأة العربية وسفورها لم يكونا فى شيء من خُلُقها ولا شرفها فقد تسفر الفتاة ترفعاً وكبرياء وقد تحتجب اجتناباً للريب ودفعا لسوآت الظنون . ومن ذلك ما كان يفعل الفواجر اذا مررن بديار الحرائر . فقد كن يرخين القناع حتى يسترن عامة وجوههن .

وفى مثل ذلك ما يقول الحارث بن كعب فى وصيته لبنيه : يا بَنِيّ ! قد أتت علىّ ستون ومائة سنة ما صافحت يمينى يمين غادر ولا قنعت نفسى بخَلّةِ فاجر ولا صبوت بابنة عم ولا كَنَّة[٢] . ولا طرحت عندى مومسة قناعها .

☆
☆ ☆

وكما كان الحجاب مختلفاً فى نظامه وسُنّته كذلك كان مختلفاً فى شكله وهيئته . فهنالك الخمار والقناع والبرقع والنصيف واللثام واللفام وأشباهها .

فأما الخمار والقناع فقريب بعضهما من بعض وكلاهما شُقّة توضع على الرأس ثم تلاث على جزء من الوجه . ويظهر أن أصل كونهما على الرأس ثم تسدل المرأة شيئاً منها على جزء من الوجه اذا أحوجها ذلك . وشاهد ذلك قول البحترى يصف امرأة اضطرها الموقف فأرخت قناعها عَلَى فمها .

عَجِلَت الى فضل القناع فآثرت　　　عذَباته بمواضع التقبيل

وأما البرقع فغطاء سائر الوجه أو بعضه وله عينان نجلاوان عَلَى عينى المرأة وثقوب أخرى يظهر منها شىء من وجهها . ويسمى ذو الثقوب الضيقة بالوَصْواص .

---

(١) تفسير النيسابورى ج ٢٢ ص ١٠　　　(٢) الكنة امرأة الابن أو الأخ

ويغلب أن يكون ذلك للإماء . أما ذو الثقوب المنفسحة فهو المَنْجول كأن عيونه عيون الحسان النجل . وفى ذلك يقول الشاعر :

لهونا بمنجول البراقع حِقبة   فما بال دهر لزَّنا بالوصاوص

وأما النصيف فثوب رقيق تتجلل به المرأة فوق ثيابها ، وربما قُنّعت ببعضه . وإنما سمى بالنصيف لأنه نصَفٌ بين الناس وبينها ، فهو يحجز أبصارهم عنها . وفيه يقول رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى وصف الحور العين : « ولَنصيف احداهن خير من الدنيا وما فيها » . ويقول النابغة فى وصف المتجردة امرأة النعمان بن المنذر :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه   فتلقفته واتقتنا باليـــد

أما اللثام والنقاب فكلاهما قناع الوجه من طرف الأنف الى ما دونه فان نزل الى الفم فهو اللفام .

والآن وقد بلغنا غايتنا من حجاب المرأة ، فان حقًّا علينا أن نُلِمّ قليلاً بثيابها وزينتها وما احتواه بيتها فنقول :

٣ — ثيابها

لبست المرأة العربية ضروباً من الثياب مختلفاً فنونها وألوانها مما أخرجته مناسج اليمن وعُمَان والبحرين والشام والعراق، وما اجتلبته من بلاد فارس وسواحل الهند . ومنها ما رق نسجه ، ودق خيطه ، وذلك ما تسميه بالمهَل والمسلسَل والمَهفَّاف ، وما كثُف حَوْكه وضوعفت حواشيه ، وذلك ما تدعوه بالصفيق ، والشبيع ، والحصيف . ومنها ما لم يخالِط لونه لون آخر . ولهن فى ذلك الأبيض ، والأسود ، والأحمر، والأصفر ، والأخضر ، والمُدَمَّى — وهو ذو الحمرة القانية — والمُشرَق — وهو ما كان وسطاً بين الحمرة والبياض — والمفروق — وهو

ما أشرب بالزعفران — وما اجتمع فيه لونان فما فوقهما ومن ذلك المُشْرَب — وهو الذى يتماوج بين لونين — والمخَطَّط والمُسَهَّم — وهو ما أشبهت خطوطه أفاويق السهم — والمفرّق — وهو ما اجتمع الى لونه خطوط بيض — والنَّميق، أو المنمَّق — وهو المنقوش — والمُوَشَّى وهو ما اجتمع عليه الزُخْرُف — والمُعَيَّن — وهو ما أشبهت نقوشه عيون النرجس — والمُصَلَّب — وهو ما تقاطعت خطوطه كتقاطع الصلبان — والمُذْهَب — وهو ما حِيك نسجه بخيوط من الذهب — وفيه يقول سلمى بن ربيعه :

والبيض يرفلن كالدمى في الريط والمُذْهَب المصون

وأما مادتها فالحرير . ومنه الدِّيباج ، والدِّمَقْس ، والسُّنْدُس ، والاستبرق[1] والخَزُّ — وهو وبر دابة كالأرنب تدعى بذلك الاسم ويشبه الحرير فى ملاسته ونعومته — ووَبر الأرنب ، وليس كل الأرانب يتخذ وبرها ، وانما هو نوع خاص يجتلب من شمال العراق . والقطن ، والصوف ، والكتان ، وأشباهها .

وأما أنواعها فجمة العدد ، مختلفة الهيئات . وأشملها وأعمها ما أنا سائقه اليك ومنه الشعار والدثار

أما شعارها — وهو ما يلى جسدها — فالصدار والمُجُول — وهما قميصان قصيران متقاربان لا أكمام لهما ودونهما السَّرَاويل .

وأما دثارها — وهو ما يلى الشعار — فالدرع — وهو جلباب شامل يحيط بدثارها — والنطاق ، ويلبس دون الدرع — وهو ثوب تشده المرأة الى وسطها وترخى نصفه الأعلى على نصفه الأسفل — وإذا نحن قربناه إلى متناول العصر الحاضر قلنا أنه « ملكوف » مضاعف . ومن فوق هذين البَت — وهو ثوب

(١) الديباج الحرير عامة والسندس رقيقه والاستبرق صفيقه أو ما حيك بالذهب منه والدمقس القز

أخضر مهلهل يحيط بجسم المرأة ويُقَنِّع جزء منه رأسها ووجهها — فإن لم يكن البتّ فالحُلّة — وهى ثوب يُظاهره ثوب آخر ويغلب أن يكون ظاهر الثوبين رقيقاً شفافاً ليظهر ما يليـه . وقد تطلق الحلة على الثوب المبطَّن . وقد ترتدى فوق ذلك بصنف من الأردية ازديانا واختيالاً أو تصوُّناً واحتشاماً .

ومن هذه الأردية المِطاف ، أو المِعطَف — وهو رداء تلقيه على عطفيها وترسله على جسمها — والرَّيطَة — وهى مُلَاءة ذات لِفْق واحـد أى شقة واحدة . — والحَبَرَة — وهى بُرْدٌ مُوَشّى من بُرُود اليمن — وليس هناك وصف أدق لها من قول صبي لحسان بن ثابت لسعه الزِّنْبار ولم يكن قد عرف اسمه فقال لأبيه : يا أبت لسعنى طائر كأنه ملتف فى بُردى حَبَرَة يمانية . وهى أغلى وأبهج ما ارتداه النساء فى ذلك العهد . وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم الحواميم فى القرآن بالحبرات تنويهاً بها وإشادة بفضلها .

ومن أرديتهن المِرْط — وهى مُلاءة ذات شقتـين — وليس بين أرديتهن ما هو أعم استعمالاً منه . ومنها اللِّفاع — وهو رداء تلتفع به وهو « بالشال » أشبه ولهن غير ذلك الوِشَاح — وهو شُقَّة مُرَصَّعة بالجواهر تشدها المرأة بين عاتقيها وخصرها — والسَّرَق . واحدتُهُ سَرَقة — وهى شقاق من الحرير يلتفعن بها — والمِطْرَف — وهو رداء مربع من الخزّ موشِيٌّ بالأعلام — .

والعَمرُ — وهو منديل الرأس — ولا يلبسه إلا الحرائر .

وهنالك المِيدع — وهو ثوب تضمه عند معاناة عملها فتصون به غوالى ثيابها من الإبتذال — وهو شبيه بما ندعوه « بالمريلة » قال الضَّبِّيّ :

اقدِّمه قُدَّام نفسى وأتقى به الموت أن الصوف للخز مِيدَع

هل تَخْمِشَن ابلى على وجوهها   أم تعصبنَّ رؤوسها بسِلاب

ولهن فى هذه المواطن المِسْح — وجمعه مسوح — وفيه وفى السُّلُب — جمع سلاب — يقول لَبيد :

يَخْمُشْنَ حُرَّ أوجه صِحــاح   فى السُّلُب السود وفى الأمساح

وأما ما تحتذيه فالُخُفُّ — وهو ما طال من الأحذية — والقَفْش، أو الكَوْث وهو القصير المكشوف منها . والجورب — وهو شعار القدمين — والقُفَّاز ويتخذ للقدمين واليدين معاً ، وهو أدق نسجاً ، وأنضر لوناً من الجورب ، ولذلك شبهوا به الحناء فى اليدين والقدمين فقالوا : تقفزت الفتاة إذا خضبت بالحناء .

٤ — حليها

بلاد العرب محفوفة الجنبات بمغاوص اللؤلؤ والمرجان . وهى فوق ذلك مستورَد للذهب والفضة والزُمُرُّد والزَبَرْجَد والعقيق والياقوت وأشباهها مما يهبط به التجار من مختلف الأقطار ليبيعوه بلؤلؤ العرب ومرجانهم . فليس بدعا بعد ذلك أن يتخذ النساء تلك الجواهر معقد زينتهن ، ومُجْتَلَب الأبصار اليهن ، فلم يتجاف عنها إلا واحدة من اثنتين : امرأة غنيت بفرط جمالها ، وبديع محاسنها، فهى تتركها ثقة بذلك الجمال ، واستهانة بأمر الحلى، وتلك التى يدعونها العاطِل، وأخرى امرأة نكبها الدهر، واستلب منها عزيزاً عليها ، فهى تطرحها كراهية للزينة ، وإيذاناً بالحِداد ، وهى التى يسمونها المَرهاء . فأما مَن سواهن فهن جميعاً حاليات .

تقلد الصبية العربية صنوفاً من الحلِىّ منذ بدء عهدها وأول نشأتها . وذلك حيث يقول الله جل ذكره حاكياً قول جهلة المشركين الذين إذا بُشِّرَ أحَدُهم بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وهوكَظِيمٌ : « أوَمَنْ يُنَشَّأُ فى الِحلْيَةِ وهو فى الخِصَامِ غيرُ مُبِينٍ » فجعلوا التنشئة فى الحلية شعار الإناث ، وموطن الكناية عنهن .

أما ما عقدت الخناصر عليه من صنوف حليهن، وضروب زينتهن، فذلك الذى أورده عليك :

فهنالك التاج أو الإكليل، وهو عصابة مرصعة بالجواهر تحوط جبين المرأة

والقُرْط، وهو ما علق فى أسفل الأذن. فأما ما علق فى أعلاها فالشَّنْف.

والحِبْ وهو القرط من حبة واحدة. ويسمى الخيط الذى يصل بين القرطين بالعُقَاب.

والخِرْص، الحلقة من الذهب أو الفضة فى أذن الصبي والصبية والمرأة.

هذا، ويغلب على القرط أن تعلق به جوهرة أو لؤلؤة. وقد ضربوا المثل بقُرْطَى مارية ابنة ظالم بن وهب الكندى زوج الحارث الأكبر الغسانى ملك الشام، وفيهما درَّتان كبيضتى الحمام لم ير الراؤون أعجب ولا أوضأ منهما، وقد توارثهما نساء الملوك من بعدها حتى كان مآلهما إلى فاطمة بنت عبد الملك، وكانت زوجا لعمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة. فلما وليها قال لها : إن أحببت المقام عندى فضعى القرطين فى بيت مال المسلمين. فصدعت بأمره. فلم يزالا فى موطنهما من بيت المال حتى انتقض الملك الأموى فذهب خبرهما(١).

ومن أمثالهم : أنفس من قرطى مارية. يضربونه فى كل غال وعزيز عليهم. وقولهم : آتيك بما شئت ولو بقرطى مارية. قال قائلهم(٢) :

يأيها الملك الذى ... مَلَكَ الأنام علانية
المال آخذه سوا ... ىَ وكنتُ عنه ناحية
انى أؤديه اليك ... ولو بقُرْطَى مارية

وهنالك القِلَادة. وهى ما يحمل بالعنق. ويسمى موطنها بالمُقَلَّد، وأنفَسُها

---

(١) قطر الغيث المسجم ص ١٦٩ (٢) جمهرة الأمثال ص ٢٤٢

ما كان من اللؤلؤ وحده أو مفصَّلاً مع غيره من الجواهر. ومنها الزمرد والزبرجد والياقوت والمرجان. وقد يضاف إلى ذلك الشَّذْر، وهو حبات من الذهب. والجُمَان وهى لآلئ من الفضة. وهم يسمون اللؤلؤة التى توسطت حبات العقد بالواسطة.

والتِّقْصَار أو المِخْنقة قلادة لاصقة بالعنق.

وتسمى الأهداب المتدلية من القلادة على الصدر بالسُّمُوط، وواحدها سِمْط. والسِّمط أيضاً الخيط ينظم فيه اللؤلؤ وغيره.

والطوق حَلْىٌ يحيط بالعنق، ويغلب أن يكون ذلك للأطفال.

والسِّخاب قلادة من قَرَنفُل أو ما يشابهه، ويغلب أن تكون تلك للأطفال أيضاً.

والسَّلْسُ نظم ينظم من الخرز، وللخرز صنوف جمة، أجملها وأحبها الخرز اليمانى، وهو صنف من الخرز محلّى.

والوِشاح، وهو خيطان من الجوهر منظومان مخالَفٌ بينهما معطوف أحدهما على الآخر.

والسُّوَار أو الأَسْوِرة، وهو نطاق المِعصم. وهو من خصائص الحرائر، وفى أمثالهم: ٭ لو ذاتُ سِوَارٍ لطمتنى ٭

والمِعضَد أو الدُّملج طوق العضد. وهو شبيه بالسوار لليد.

والخاتم والفَتَخ، وأولهما ما له فص، والثانى ما لا فص له. وكلاهما يلبس فى أصابع اليدين والرجلين معاً.

والخَلخال، وإنما يطلق على ما له رنين، فان لم يكن له رنين فهو الفَتَخ، فان غاص فى الساق فهو الخَدَمة. وعند العرب صنف من الحلى يصاغ مجوفاً ويحشى بالطيب ويسمى ذلك بالكبيس.

ويسمى صوت الحليّ بالوَسواس أو النقنقة .

والتميمة خرزة تعلق فى عنق الصبي أو الصبية أو خيط تعلق فيه التعاويذ بزعم أنه يدفع عنهم الآفات .

ومن لواحق الزينة عندهن بل من أصولها ودعائمها الطيب، وهو زينة العرب جميعاً — رجالاً ونساء وأطفالاً .

والطيب عندهن على صنفين: أعواد يُتَبَخَّرُ بها ، ودُهن يُدَّهَن به . فمن الأول الصندل ، والساج ، واللبنى — وهو شجر يسيل منه لبن كالعسل فى طعمه — والعود . والنَّد — وهو المسك يعجن بالعود — والرَّند وهو شجر زكى الرائحة . ومن أزهارهن الآس، ومنه يعتصر دهن يُدَّهن به . ومن الثانى العنبر والمسك والغالية وهى أزكى صنوف الطيب عندهن وتتخذ من المسك يعجن بالعنبر والبان . فأما البـــان فشجر يسمو ويطول فى استواء وورقه كورق الأثل وثمرته كقرن اللوبياء ولها حب يعتصر فيخرج منه ذلك الدهن .

على أن هنالك من العرب — وأخصهم أهل البادية — من يتواصون باطراح الطيب وترك التضمخ به ويرون فى المـــاء غَناء عنه ومن ذلك ما يقول الحارث ابن كعب المَـذْحِجِى فيما يوصى به بنيه: وتزوجوا الأكفاء وليستعملن فى طيبهن الماء

٥ — بيتها

لم تكن بيوت العرب على سواء فى تكوينها ونظامها ومادتها . فهى تختلف باختلاف مواطنها واقدار ذويها . فأهل البادية لحاجتهم إلى النجعة ، واعتزامهم الرحيل ، وتأثرهم مساقط الغيث ، ومنابت الكلأ ، كانت بيوتهم بحيث يسهل تقويضها ، ومتاعهم بحيث يُحْتَمل حمله ، فلم يجاوزوا به مواطن الحاجة، وسِداد العوَز.

فأما بيوتهم فأكثرها خيام تضرب ثم تطوى ، وقلَّ أن كانت من الحجر أو اللَّبِن . وهى من حيث هذا وذلك على عشرة أنحاء : خِباء من صوف ، وبِجادٌ من وَبر ، وفُسطَاط من شَعَر ، وسُرَادِق من قطن ، وقَشْع من جلد ، وطِراف من أدَم ، وحَظيرة من شَذَب[1] ، وخيمة من شجر ، وأُقْنة من حجر ، وكُبّة من لَبِن . وهى بسائط التكوين . ومَثَلها فى ذلك كَمَثل ما أحاط بها من سهل ، وجبل ، وجو ، وأرض ، وسماء . غير أن أشرافهم لغدوهم على حواضر البلاد ، وغشيانهم مجالس الملوك ، كانوا يتأنَّقون بعض الأنَقة فى بيوتهم ، وينقلون اليها من تلك المظاهر ما لا تنبو عنه طباعهم ، ولا أسلوب حياتهم . وربما جمع الرجل بين هذه البيوت كلها أو بعضها ليتخذ منها مأوى لضيفانه ، ومثوى لعشيرته ، وحظيرة لماشيته ، ومجلساً لنسائه ، ومهبطا لسُمَّاره .

وكانت للنساء مجالس يجتمعن فيها فيتناقلن الحديث ، ويتجاذبن أطراف الكلام ، كما كانت للرجال أندية يتسامرون فيها ويتشاورون . وذلك ما يراد من قول عمرو بن كلثوم فى وصيته لأبنائه حيث يقول : وأبعدوا بيوت النساء عن بيوت الرجال ، فانه أغض للبصر .

أما المدن فمستقر الدور والقصور . وهى لا تقل فى شيء عما سواها فى مختلف الأقطار والأمصار ، وبينها أبدع ما وضعَته الأيدى ، وأثمرته العقول . ففى اليمن غُمدان وظَفَار وأشباههما . وفى العراق الْخَوَرْنَقُ والسَّدير وأضرابهما . وفى الشام السُّوَيداء وقصر الغَدير ونظائرهما . وفى تدمر وتيْماء الرواق الأعظم ، والابلق الفرد وأمثالهما . وفى كل مدينة من القصور الشم ما لا تناله العُصْم ، ومِن دونها قصور لا تدانيها سناء ولا بناء . على أن لها نصيبها من جلال وجمال . ومن ذلك تعلم أن

---
(١) الشذب قطع الشجر

بلاد العرب لا تقل فى بيوتها عن كل بلد مُشرق العهد، عريق المجد، بعيد الأمد.

أما أثاثها ومتاعها فانى ناقل لك أعمه وأهمه. ففيها من الفُرُش الحَصير، ومنه المنمق المنقوش. وفى النساء صوانع خصصن بتنميق الحصير. قال النابغة:

كأن مَجَرَّ الرَّامِسَاتِ ذُيُولَهَا ... عليه حصيرٌ نمّقَتْه الصوانع[1]

والبِسَاط وهو كل شيء بسط ليجلس عليه. ومن البسط الرّفرف، وهى بسط خضر — واحدتها رفْرَفة — والزرابى — جمع زَربى — وهى بسط بديعة الرُّواء، لها خَمْل — هُدب — ناعم دقيق؛ وانما سميت بذلك تشبيهاً بالزَّرْبى من الزهر، وهو نبت يجمع بين الصفرة والبياض. والطنافس — جَمْع طُنْفُسَة — ومثلها كمثل الزرابى فى خملها، وان كانت دونها فى رقة نسجها، ورُواء منظرها. والعَبْقَرِىّ — جمع عبقرية — وهى الطنافس الثّخان، أو البسط الموشيَّة من الديباج، أو أبدع الزرابى والنمارق — جمع نُمْرُقَة — ومنها وسائد وبسط وهى جميعاً ذات وشى مرقوم وقد ذكر الله جل ذِكْرُه تلك الصنوف من البسط فى القرآن فى سياق وصف الجنة ليصورها بذلك العرب على أبدع ما يفهمون، وأحبّ ما يعلمون.

أما ما على الفراش من المقاعد فمنه الحشايا — واحدته حَشِيَّة — وهى مقاعد محشوة تبسط على الأرض للجلوس وفوق السرر للنوم. وقد يبالغون فى حشوها فيتخذونه ريش النعام: فاذا ازداد حشوها وارتفع سَمكها فهى الوشائر.

وعندهن الحَجَلة وهى غرفة العروس تزين بالفُرُش والأسرة والستور. وبها الأرائك — واحدتها أريكة — وهى شبيهة بالوشائر. غير أنها أرفع وأرق وأبهج. ومن أجل ذلك اختصوا بها غرفة العروس.

---

(١) الرامسات الرياح سميت بذلك لأنها تدفن الأثر وذيول الريح أواخرها أو أوائلها ومرجع الضمير فى عليه النؤى فى البيت قبله:

رماد ككحل العين لأيا أبينه ... ونؤى كجذم الحوض أثلم خاشع

والنؤى حفير حول الخيمة

وأما الأسِرَّة فصنوف شتى . وأوضعُهاَ ما اتُّخذ من سَعَف النخل . وأعزها ما كان من العاج . وذلك الذى يقول فيه القائل :

واللهِ لَلنَّوْمُ على الديباج　　على الحشايا وسرير العاج
أهون يا عمرو من الادلاج　　وزفرات البازل العَجْعاج

ولهن غير ذلك الكِلل — واحدتها كِلة — وهى ستور رقيقة تقى من البعوض . وموطنها فوق السرر ودونها .

وهنالك الحِلْس وكن يضعنه تحت الفراش بينه و بين الأرض . ويقابله النَّمط وهو ظُهارة الفراش .

أما جدران الغرف وحيطانها فكن يشددن عليها النجود ، وهى ستور منمَّقة ذات صور وأشكال تشد على جدران الغرف لتزدان بها .

ولهن ما يحفظن به حُرَّ المتاع . ومن ذلك الصندوق ، والخزانة ، والجُوالق . وبعضها قريب من بعض . فأما صندوق الثياب خاصة فهو الصِّوان . وفى الغرفة المرآة والمِسرَجة وموضعها فوق المِنارة . وما يشتعل فيها هو السراج ، والقنديل وتصله بسماء الغرفة سلسلة تدخل فى عراه . وكلا المسرجة والقنديل تضىء فيه الذُّبالة ، وهى فتيلة تستقى من الدهن . وأكثر ما يكون دهن المصباح من الزيت . وقد يتخذ من السمن . وشاهد ذلك الحديث فى الفأر يقع فى السمن : إذا كان جامداً قَوِّر ما حوله وارم به . وان كان مائعاً فاستصبح به .

تلك هى غرفة المرأة العربية ، أتينا على خير ما حوت من زينة ، وضمت من متاع ، حتى تترا أى بذلك صورة ما عليها وما حولها ، وحتى تعلم من كل ذلك أن المرأة العربية وان أبرَّت على كثير ممن سواها فى فضلها فلم تُقَصر عنهن فى شىء من مادتها وزينتها .

وإن من أمتع ما قيل فى وصف نواعم العيش من فتيات البادية قول المَرَّار ابن المُنقِذ التَّميِىّ يصف فتاة من سَنِيَّات قومه[1] :

ناعَمَتْهـا أمٌّ صِدقٍ بَرَّةٌ ... وأبٌ برٌّ بهـا غَيْرُ حَكِر[2]

فهى خَـذواء بعيش ناعمٍ ... بَرَدَ العَيشُ عليهـا وقَصُر[3]

لا تَمَسُّ الأرض الا دونَهـا ... عن بلاط الأرض ثوب منْعَفِر[4]

تطأُ الخـزَّ ولا تكرِمُه ... وتُطيل الذيل فيـه وتجُر[5]

وترى الرَّيطَ مَواديعَ لهـا ... شُعُراً تلبسها بعـد شُعُر[6]

عَبِق العنبر والمسك بهـا ... فهى صفراء كعرجون العُمُر[7]

وهى لو يُعصر من أردانها ... عَبِقُ المسك لكادت تنعصر

٦ — دينها وعقائدها

إذا استثنيت فصائل منْبَثة فى تفاريق بلاد العرب ، من اليهود والنصارى ، وآحاداً من الموحدين ، فلست بواجد للقوم ديناً قِيَماً يعتدّون به ويعتمدون عليه .

فهم يعتقدون أن هناك إلهاً فاطر السموات والأرض ، وأنه أودع سره وأفاض من روحه على ما شاء من خَلْقه . لذلك عبدوا الملائكة والكواكب ، ولذلك اتخذوا الأصنام من الشجر والحجر . كل يختار أفضل ما يراه وأولاه — فيما يزعمون — بقوة الله ، حتى لقد حلا لبنى حنيفة أن يتخذوا إلههم من الحَيْس فعبدوه دهراً طويلاً ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه ! فقال قائل من تميم :

---

(١) المفضليات ج ١ ص ٣٣٣ (٢) غير حكر أى لا يحبس عنها شيئاً

(٣) الخذواء الناعمة وبرد العيش طيبه ونعومته (٤) بلاط الأرض ما استوى منها وثوب منعفر أصابته غبرة يقول أنها لا تسير على الأرض وانما تفرش لها أنماط تقيها التراب (٥) يقول أن بساط بيتها من الخز وثيابها التى تطيل ذيولها من الخز كذلك (٦) الشعر جمع شعار والريط والمواديع — جمع ميدع — سبق بيانها (٧) العرجون قنو النخلة والعمر نخلة السكر

أكلتْ ربَّها حنيفة من جو ع قديم بها ومن أعواز

وغيره يقول :

أكلت حنيفة ربها زمن التَّقَحُّم والمجاعه
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتِّباعه

وقد بلغ من اضطراب هذا الدين أن تعبد العشيرة الحجر ، فان وجدوا غيره آنق منه تبدلوه به ، وتركوا معبودهم القديم .

وفى حديث أبى رجاء العُطاردى : كنا نعبد الحجر فى الجاهلية . فاذا وجدنا حجراً أحسن منه نلْقِى ذلك ونأخذه ، فاذا لم نجد حجراً جمعنا حَفنة من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به[(١)] .

وربما اتخذت الأُسرة لعبادتها صنما خالصاً لها ، بل ربما اتخذ الرجل لعبادته صنما خالصاً له[(٢)] .

وآثر ما يعبدون من أصنامهم ثلاثة لثلاث من الأناث : اللاتُ ، والعُزَّى ، ومَنَاةُ الثالثة الأخرى . جعلوهن رموزاً للملائكة لأنهم — فيما خُيِّل لهم — بنات الله ، وأنثوا للأُوليَين منهن اسمين من أسماء الله جل ثناؤه ، فاتخذوا من الله اللات ومن الأعزّ العزَّى ! سبحان الله وتعالى عما يصفون[(٣)] .

مثل ذلك الدين الواهن المضطرب لا أثر فى تكوين المرأة العربية ، وليس فى شىء مما طبعت عليه من سُموّ النفس . وجلال الُخلُق ، لانه لا مظاهر له من كتب منشورة ، وقواعد منثورة ، وما آثر مأثورة .

على أن وَهَن هذا الدين اسلم دَهماء النساء الى صنف من العقائد والهواجس رسخ فى ذوات نفوسهن رسوخ الدين . وانى مُجمل لك القول فى أعمق هذه العقائد

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ (٢) طبقات ابن سعد ج ٧ ص
(٣) تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ٣١

فى قلوبهن . وأعلقها بنفوسهن ، لا كشف لك عن صورة غير مخضوبة ، وصحيفة غير مكذوبة .

﴿ الخرزات والتمائم والرُّقَى ﴾

ان اختمار الوثنية فى المرأة العربية خيّل لها أن فى بعض الحجر مآثر وأسراراً تكشف عنها العزائم والرُّقَى .

فهنالك بين ثنايا الجبال ، و بين أعطاف المغاور ، صنوف من الخرز مما فُصِل من شُعَب الصخور . وتناولته يدُ القِدم ، فأبدعت أشكاله ، ونوعت ألوانه ، بما سلطت عليه من وَهَجَ الشمس . وتسكاب المطر .

أُلقى فى رُوع المرأة العربية أن لكل طائفة من هذا الخرز أثراً فى اصلاح أمرها من اجتلاب خير . أو دفع مكروه ، وأعدّ لها السواحر كلمات تلقيها على كل فريق لتستثير ما يطويه . من أثر صالح ، وسر كمين .

وذلك الذى أورده عليك مختار خرزهن ، ومأثور عزائمهن ورقاهن .

فمن خرزاتهن :

الهِنَّمة — وهى خرزة يجتلب بها النساء قلوب أزواجهن . وهن يَقُلن عليها أخَذْتُه[١] بالهِنَّمة ، بالليل زوج وبالنهار أَمَة[٢] .

والدَّرْدَبِيس — وهى خرزة سوداء ، كأن سوادها لون الكبد ، اذا رفعتها واستشففتها رأيتها تشف كلون العنبة الحمراء . تتحبب بها المرأة الى زوجها . وموطنها قبور عاد[٣] . قال قائلهم :

قطعت القيد والخرزات عنى ... فمن لى من علاج الدَّرْدَبِيس

(١) التأخيذ حبس المرأة زوجها على نفسها (٢) لسان العرب ج ١٦ ص ١٠٧
(٣) لسان العرب ج ٧ ص ٣٨٤

وقال

جَمَّعْن من قَبَلٍ لهن وفَطْسَةٍ والدرديس مقابلاً فى المِنْظَمَ(١)
فانقاد كل مُشَذَّبٍ مَرِسِ القُوَى لحبالهن وكل جَلْد شَيظَمِ(٢)

وهن يقلن فى رقاهن عليها : أَخَذْتُهُ بالدرديس ، تُدِرُّ العِرْق اليَبيس ، وتَذَرُ الجديد كالدَّرِيس(٣) .

وكَرَارِ — وهى خرزة يؤلف بها نساء البادية قلوب رجالهن . ومن مقالهن عليها : يا كَرَارِ كُرِّيه ، يا هَمْرَة اهمِريه ، أن أقبل فسُرِّيه ، وان أدبر فضُرِّيه(٤) .

والقَبَلَة — وهى من خرز نساء الاعراب . يتخذنها لاقبال أزواجهن عليهن ورُقْيتها : ياقَبَلَة اقبِليه ، ويا كَرَارِ كُرِّيه .

والصَّرْفة — وهى خرزة يصرفن بها الرجال عن مذاهبهم ، وشتات أغراضهم

والعَطْفَة — وهى خرزة يُعَطِّفن بها الرجال اذا قَسَت قلوبهم .

واليَنْجَلِب — وهى خرزة يتخذنها للرضا بعد الغضب ، والأوبة بعد النِّفار . ورُقيتها : أَخَّذْتُه باليَنْجَلِب ، فلا يَرِم ولا يَغِب ، ولا يَزَل عند الطُّنُب(٥) .

والسُّلْوَانة — وهى خرزة شفّافة اذا دفنت فى الرمل اسودّ لونها فاذا أُخرجت سحقت وصب عليها ماء المطر فان شربها من ابْتُلِيَ بحب انسان سلا عمن أحبه . ويسمى ماؤها السُّلوان . قال قائلهم :

---

(١) القبل والفطسة خرزتان سيمران بك والمنظم الخيط ينظم الخرز فيه (٢) المشذب الشارد والمرس الشديد الراس والشيظم الطويل الجسيم الفتى من الناس (٣) الدريس القديم البالى من الثياب تريد بالجديد زوجه الجديدة (٤) الهمرة خرزة من خرازتهم وهمر الفرس الأرض اذا ضربها بحافره . ومنها قالت يا همره اهمريه — لسان العرب ج ٦ ص ٤٥٢ (٥) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٦

شربت على سُلوانة ماء مُزْنة فلا وجديد العيش يامىَّ ماأسلو[1]

وقال :

يا ليت ان لقلبي ما يُعَلِّله أو ساقياً فسقانى عنك سُلوانا

وقال الراجز :

لو أشرب السلوان ما سَلِيتُ ما لى غنى عنكم وان غَنِيتُ

والسَّلوَة وهى خرزة يشف ظاهرها عما وراءه ، اذا استشففتها رأيتها كزُلال البيض يُسق نقيعها الحزين فيسلو والكَلِف فينصرف[2]

قال الشمَرْدَل :

ولقد سُقِيتُ بسلوَةٍ فكأنما قال المُدَاوِى للخيال بها ازدد

وقال عُروَة بن حِزَام :

جعلت لِعرّاف اليمامة حُكْمَه وعراف نجد ان هما شفيانى

فقالا نعم نشفى من الداء كله وظلا مع العُوّاد يتدرانى

فما تركا من رُقية يعرفانها ولا سَلوَة الا وقد سقيَانى

والقِرْزَحْلَة وهى من خرز الضرائر ، اذا لبستها المرأة مال اليها بعلها دون سواها[3]. قال قائلهم :

لا تنفع القِرزحلة العجائزا اذا قطعنا دونها المفاوزا

والكَحْلَة وهى خرزة تجعل على الصبيان فتقيهم أذى العين وللنفس من الجن والإنس . ولها لونان بياض فى سواد كالرُّب[4] والسمن اذا اختلطا . وربما اتخذها النساء لتأليف قلوب الرجال .

---

(١) المزنة السحابة البيضاء (٢) المخصص ج ٤ ص ٤٢ (٣) لسان العرب ج ١٤ ص ٧٢ (٤) الرب عصارة التمر

والفَطْسَة وهى خرزة يُسقَم بها العدوّ حتى يموت . ومن مقالهم عليها : أخَذْتُه بالفَطسَة ، بالثُوَبا والعَطسَة ، فلا يزل فى تَعسَة ، من أمرهِ ونكْسَة ، حتى يزور رَمسَه .

ومن رُقَاهن لتأليف القلوب : هَوّابَة هوّابة[١] ، البرقُ والسحابة ، أخّذته بمِركَن[٢] ، فحُبُّهُ تمكَّن ، أخّذته بإبرَة ، فلا يزل فى عَبرَة ، جَلَبْتُه بإشفَى[٣] ، فقلبه لا يهدا . جلبته بِمبرَد ، فقلبه لا يَبرُد[٤]

وهنالك التمائم . والتميمة خرزة رقطاء ، أو طائفة من الخرز والعُوَذ ، تنظم فى سير ثم تعلق فى عنق المولود حين يولد .

ومما يفعلن ليقين أبناءهن أذى العين ، وشرور الجن ، أن يعمدن الى الوليد حين يولد فيخططن عليه من صمغ السَّمُر — وهو شجر من أشجار البادية يزعم العرب أن الجن يرهبون منه — ثم يعلق عليه سن ثعلب أو هرة . ومن حديثهن أن جنية أرادت صبيًّا فلم تقدر عليـه . فلما رجعت قيل لها فى ذلك . فقالت : كانت عليه نُفَرَة ، ثعالب وهِرَرَة ، والحيض حيض السَّمُرَة[٥] .

وربما علقن عليه كعب أرنب ، لأن الأرنب لا يعلوها الجن ولا يقربونها قال ابن الأعرابى : قلت لأعرابى من علّق على نفسه كعب أرنب لم يصبه جنّان الحى ، ولا عُمّار الديار . فقال : إى والله ، ولا شيطان الحَمَاطة ولا غُول القَفر وتُطأُ عنه نِيران السَّعَالِى[٦] .

---

(١) الهوابة النار الملتهبة والشمس المتوهجة (٢) المركن الاجانة التى تغسل فيها الثياب ونحوها
(٣) الأشفى المثقب الذى يثقبون به الجلود ليتخذوا منها المزاود والقرب (٤) بلوغ الارب ج ٣ ص ٦
(٥) حيض السمرة صمغها (٦) الجنان — جمع جن — والجن ولد الجان وعمار الديار الذين يساكنون الناس من الجن وشيطان الحماطة صنف من الحيات والسعالى اناث الغيلان أو سواحر الجن — محاضرات الأدباء ج ١ ص ٧٣

التفاؤل والتطير

المرأة العربية كمن سواها من الناس ، إذا اعتزمت أمراً ، أو صَمَدت الى مطلوب كان أكبر همها أن تعرف مآله من الخير والشر ، وتكشف عن نصيبه من العسر واليسر . لذلك عُنِيَت فى عامة أمرها أن تطالع ما تستقبله من مظاهر الكون . فان كان ممن خُيِّلَ لها أنه بادرة الخير، وطليعة التوفيق ، مضت فى عملها آمنـــة مؤمنة مطمئنة ، وان مُنِيت بما راعت نَبْأَته ، وساءت طَلْعته ، رجف قلبها ، وانبعثت ريبتها ، واستشعرت الهيبة من الخيبة .

وهى فى ذلك قسيمة الرجل ، لِمَا اجتمع عليهما من غلبة المشاعر ، وانفساح مدى الخيـــال .

والعرب أمة لغة وبيان ، يَكْلَفون باللفظ ويستأسرون لديباجة الـكلام . لذلك كان أول ما يأخذهم من الشىء اسمه ، وما ينبىء عنه اشتقاقه من خير أو شر ، ثم ما ينم عنه صوته ومنظره ، ثم مواطنه التى يهبط اليها ، ويغلب عليها ان كان مما يألف الرياض الحالية ، أو الطلول البالية ، والرسوم العافية .

ومما ينبئك عن موقع الأسماء من نفوسهم ، ومبلغ أثرها فى مشاعرهم ، قول بَشّار بن المُضَرَّب :

تغنى الطائران بِبَين ليـــلَى ‌‌ على غصنين من غَرَب وبان[1]
فـكان البانُ أن بانت سُلَيمى ‌‌ وفى الغَرَب اغتراب غير دان

فانظر كيف أخذ الغربة من الغرب ، والبين من البان ؟

(١) الغرب شجرة ضخمة شاكة من شجر الحجاز ومنه الحديث الـكريم : لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق . يريد بأهل الغرب أهل الحجاز والبان شجر شديد الخضرة يسمو ويطول فى استواء وثمرته تشبه قرون اللوبياء الا أن خضرتها أشد ولها حب ومن ذلك الحب يستخرج دهن البان ولاستواء البان ونعومة أنفاسه شبهوا به نواعم النساء

ومثله قول من يقول :

أقول يوم تلاقينا وقد سجعت ... حمامتان على غصنين من بان

الآن أعلمُ أن الغُصْن لى غَصَن ... وإنما البان بين عاجل دان[١]

فقمت تخفضنى أرض وترفعنى ... حتى ونيْت وهد السير أركانى

ومثل ذلك ما يقول جِرَان العَوْد :

جرى يوم رحنا بالجمال يَزُفُّها ... عُقَاب وشَحَّاج من البين يبرح[٢]

فأما العُقاب فهو منها عقوبة ... وأما الغراب فالغريب المُطَوَّح

فلم يجد فى العُقاب الا العقوبة ، وجعل الشّحَاج — وهو غراب البين — دليل الغريب المطوّح .

ولئن أشفق جِرَان العَوْد من العقاب ، وارتقب منه العقوبة ، لقد تيمّن به غيره ، وتنظّر منه العقبى ، مما هو فيه من نار الشوق ، فقال :

وهاب رجال أن يقولوا وجمجموا ... فقلت لهم جار الىّ ربيح

عُقاب بأعقاب من النار بعدما ... مضت نِيّة لا تُستطاع طَرُوح

وقالوا دَمٌ دامت مودة بيننا ... وعاد لنا غصن الشباب قريح[٣]

وقال صِحابى هدهد فوق بانة ... هدى وبيان فى الطريق يَلوح

وقالوا حَمامات فحمّ لقاؤها ... وطَلْحٌ فَزِيرت والمَطى طَليح[٤]

قالوا : فهو اذا شاء جعل الحَمام من الِحمام والحميم والحِمَى . وان شاء قال : وقالوا حمامات فحمّ لقاؤها . واذا شاء اشتق البين من البان . واذا شاء اشتق منه البيان

---

(١) غصنت الغصن غصناً قطعته من ذلك أخذ الشاعر الغصن — بفتح الغين — من الغصن — بضمها

(٢) العقاب أخذ عتاق الطير وسباعها ويطلق على الذكر والأنثى . والشحاج الغراب واشتقاقه من الشحيج وهو أشد حوته (٣) الغصن القريح ذو النوار الأبيض

(٤) الطلح شجر عظام ترعاه الابل وناقة طليح متعبة

وشبيه بذلك قول من يقول :

وقالوا عُقاب قلت عقبي من الهوى ... دنت بعد هجر منهم ونُزُوح
وقالوا حمامات فحُمّ لقاؤها ... وعاد لنا حلو الشباب ربيح
وقالوا تغنى هدهد فوق بانة ... فقلت هدى نغدو به ونروح

لكل ذلك كان الغراب أشد ما يروعهم ، وتُطرف به أعينهم ، لما ينبئ عنه اسمه من الغربة ، ولروعة سواده ان كان أسود ، ولاختلاف لونه ان كان أبقع ، ولأنه غريب لايقطع اليهم ، ولأنه لايوجد فى موضع خيامهم يَتَقَمَّمُ[١] الا عند معاينتهم لمساكنهم ، ومزايلتهم لدورهم . ولأنه ليس شيء من الطير أشد على ذوات الدَّبْر[٢] من ابلهم من الغربان . لأنه ينقب عن الدَّبر حتى يبلغ الى دايات[٣] العنق ، وما اتصل بها خرزات الصلب ، وفقار الظهر[٤]. قال عنترة :

ظعن الذين فراقَهم أتوقع ... وجرى بينهم الغراب الأبقع
ان الذين نعبت لى بفراقهم ... هم أسهروا ليلى التمام فأوجعوا

وأشد ما يتشاءمون بالغراب اذا ولاهم ظهره[٥] أو شماله — وذلك البارح عندهم — أو أبصروه يتفلى وينتتف ، أو صاح بهم صيحة واحدة . أما اذا استقبلهم بوجهه أو ثَنّى فى صوته ، فهم به يتيمنون

ومَثَلُ الصُّرَد[٦] عندهم كمثل الغراب . فهو طليعة الشؤم ، وسبيل الخراب . وهم اذا رأوه ذكروا التصريد ، وهو القلة ، وانزعجوا مما عسى أن يصيبهم من نقص فى الأهل والمال . قال قائلهم :

دعا صُرَد يوماً على غصن بانة ... وصاح بذات البين فيها غرابها

---

(١) القمامة — بضم القاف — الكناسة وتقمم تتبع بالقمامة (٢) الدبر القرحة فى الدابة
(٣) الداية الفقرة فى الكاهل أو الظهر (٤) الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٣٥ — ١٣٨
(٥) المخصص ج ١٣ ص ٢٤ (٦) الصرد طائر كبير الهامة يشبه البوم ويغتذى بالعصافير

فقلت أتصريد وشَحْطٌ وغربة فهذا لعمرى نأيُها واغترابها[١]

وحكم الرَّخَم والبُوم كحكم الصُّرَد والغراب . وهم يقولون : أن لئام الطير ثلاثة ، الغربان والرخم والبوم .

كذلك أمر الجراد عندهم لأنهم تنظروا منه الجرد ولأنه مختلف الألوان[٢] فهو عندهم كحوادث الزمان .

أما الهدهد فأمره من أولئك بعيد ، فهو عندهم غرة النُّجح ، وآية اليُمن ، وسبيل الهداية . ويزعمون أنه الذى كان يدل سليمان صلوات الله عليه على مواضع الماء فى أعماق الأرض . ويقولون أن القُنْزُعَة[٣] التى على رأسه ثواب من الله على ما كان من بره بأمه ، لأن أمه لما ماتت جعل قبرها على رأسه[٤] .

وشعارهم اذا استمعوا من الطير ما يروعهم أن يقولوا طائر الله لا طائرك[٥]

أما ما سوى الطير من الحيوان فهم يتشاءمون منه بالأعضب ، والأعور ، والأبتر ، والقعيد ، والنطيح .

فالأعضب المكسور القرن ، أو المشقوق الأذن . والأبتر المقطوع الذنَب . والقعيد ما أتاك من ورائك من ظبي أو طائر . والنطيح ما استقبلك من أمامك من طائر أو ظبي أو وحش[٦]

أما النبات فهم يتشاءمون منه بالغرب والبان كما علمت ، وبالخلاف لأنه سبيل القطيعة . ويتيمنون بالريحان لأنهم أخذوا منه الروح . وربما نظروا الى مرارة طعمه فتشاءموا به[٧] .

---

(١) الشحط البعد والاضطراب (٢) الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٣٦ (٣) قنزعة الهدهد — بضم القاف والزاى وفتحهما وكسرهما — عرفه (٤) الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٦٠ — ١٦١
(٥) المخصص ج ١٣ ص ٢٤ (٦) لسان العرب في الكلام على هذه الكلمات
(٧) الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٤٢

وللعرب فيما عدا الطير والوحش والنبات ، بوادر يتشاءمون بها ، ويعوذون منها . ومنها العُطاس . قال امرؤ القيس :

وقد أغتدى قبل العُطاس بهيكل شديدِ منيع الجنب فَعْمِ المُنَطَّق

يقول : انه يغتدى قبل أن يستيقظ الناس لئلا يستمع عطاسهم فيخيب . وكان قولهم إذا عطَس من يحبونه : عمراً وشباباً . واذا عطَس من يبغضونه : وَرْياً وقُحَاباً[1] . واذا استمع أحدهم العاطس ممن لا يعرف قال : بِكلاَبى أسأل الله أن يجعل شُؤمك بك لابى[2] .

وكانت المرأة تتطير اذا انكفأ الإناء وصب ما فيه . وتقول فى العيـــاذ من ذلك : دافق خير .

وكانوا اذا اشتروا الدار ، أو بنوها ، أو فجَّرُوا العين ، ذبحوا عندها ذبيحة ودعوها ذبيحة الجن ، حتى لا ينالها من الشؤم شىء[3] .

﴿ وبعد ﴾ فان كان التطير مما أسلفنا لزام العرب ، وسبيل قصدهم ، فلقد جحده كثير من رجالهم ، وأخَصُّهم أولو العزم والإقدام منهم .

قال الحارث بن حِلِزَّة :

يأيهـــا المزمع ثم انثنى لا يثنك الحادى ولا الشاحِج

ولا قعيـــد أعضب قرنه هاج له من مربع هائج

بينا الفتى يَسْعَى ويُسعَى له تاح له من أمره خالج[4]

يترك ما رَقَّحَ من عيشه يعيش منه هَمَجٌ هامِج[5]

---

(١) القحاب كالسعال وزنا ومعنى (٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٦٦ (٣) المخصص جـ ١٣ ص ٢٥

(٤) الخالج المنتزع يريد به الموت (٥) رقح ماله ترقيحاً أصلحه وأحسن القيام عليه

وقال حاتم بن عدى :

وليس بهياب اذا شد رحله يقول عدانى اليوم واق وحاتم(١)
ولكنه يمضى على ذاك مقدماً اذا صد عن تلك الهناة الخُثارم(٢)

وقال علقمة الفحل :

ومن تعرض للغربان يزجرها على سلامته لا بد مشئوم

﴿ سفر الرجل وطول غيبته ﴾

إذا اقتعد الرجل راحلته ، وابتدأ ارتحاله ، فان كان بغيضاً إلى المرأة عمدت إلى النار فأوقدتها ، حتى تحول دون مآبه اليها . وان كان عزيزاً عليها قبضت قبضة من مواطئ قدمه واحتفظت بها ، فذلك أسرع لعودته(٣) . قال قائل :

قالت له واقتبصت من أثره يا ربِّ أنت جاره فى سفره

وقالت امرأة :

أخذت تراباً من مواطئ رجله غداة غدا حتى يؤوب مُسَلَّما

فان طالت غيبته ، وخَفِي عليها خبره ، جاءت الى بئر عاديّة مظلمة ، بعيدة الغور ، فنادت فيها : يا فلان ، أو يا أبا فلان . فان سمعت بعد ذلك صوتاً علمته حيًّا والا فهو مائت . وللرجال نصيبهم من هذا الخيال . قال قائلهم :

دعوت أبا المغوار فى الحفر دعوة فما آض صوتى بالذى كنت داعيا(٤)
أظن أبا المغوار فى قعر مظلم تُمِرُّ عليه الذارياتُ السوافيا(٥)

---

(١) الواقى الصرد . والحاتم الغراب (٢) الهناة الشىء . والخثارم الرجل الكثير التطير
(٣) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٧٢ (٤) آض رجع
(٥) يريد بالمظلم القبر والذاريات الرياح الهائجة والسوافى جمع سافية وهى التراب أو الريح الحاملة لها

وقال آخر وقد سمع رجع صوته :

ألم تعلمى أنى دعوت مجاشعاً   من الحفر والظلماء بادٍ كُسورُها
فجـــاوبنى حتى ظننت بأنه   سيطلع من جَوْفاء صعب حدورها
لقد سكنت نفسى وأيقنت أنه   سيقدم والدنيا عُجابٌ أمورها

﴿ خَدَر الرجل واختلاج العين ﴾

مما يزعم العرب — رجالهم ونساؤهم — أن الرِّجل إذا خدرت فذكر ربُّها غائباً حبيباً ذهب خدرها[1] .

فان اختلجت العين تنظَّرُوا من وراء اختلاجها قرب لقاء الغائب الحبيب .

قال قائلهم :

إذا اختلجت عينى تيقنت أننى   أراكِ وان كان المزار بعيـــدا

﴿ رأيها فى مصير موتاها ﴾

مما يزعم العرب ، أن الميت إذا حال عليه الحول تحسرت عظام رأسه عن طائر على سُنّة البوم يجثم على شفير قبره . فان كان صاحبه قتيلاً لم يؤخذ بثأره أقبل يصيح : اسقونى اسقونى . فلا يزال على صياحه حتى يؤخذ بثأره . وهم يسمون الطائر بالهامة ، وعظام الرأس بالصدى .

قال ذو الأصبع العدوانى :

يا عمرو ان لا تدعِ شتمى ومنقصتى   أضربك حتى تقول الهامة أسقونى

وقال حاتم :

أماوىَّ أن يصبح صداى بقفرة   من الأرض لا ماء لدىَّ ولا خمر
ترىْ أن ما أنفقت لم يك ضرنى   وأن يدى مما بخلت به صفر

(١) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢ و ج ٢ ص ٣٥٢

وقال أبو دؤاد :

سُلِّط الموت والمنون عليهم ... فلهم فى صدى المقابر هام

وقال شدّاد بن الأسود الليثى :

يخبرنا الرسول بأن سنحيا ... وكيف لقاء أصداء وهام

وقال مغَلِّس الفقعسى :

وأن أخاكم قد علمتم مكانه ... بسفح قنا تسفى عليه الاِعاصر

له هامة تدعو إذا الليل جَنّها ... بنى عامر هل للهلالىّ ثائر

ومن العرب من يزعم أن النفس طائر يتبسط فى الجسم ، فاذا مات الانسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً على قبره . ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم . وهو أبداً مستوحش يألف الديار المعطّلة ، ومصارع القتلى ، والقبور ، وأنها لا تزال عند ولد الموتى ، ومُخلّفه لتعلم ما يكون بعده فتخبره[١] .

والعرب يدينون بيوم القيامة ويرتقبونه . ومما يتخذون من العدة له أن يحفروا على جانب من قبر صاحبهم حفيرة ، ويقيموا بها بعيراً ، يعقلونه ، لا يعلفونه ، ولا يسقونه ، حتى يموت . فذلك مركبه يوم القيامة . فان لم يفعلوا له ذلك خرج يوم البعث يسعى حافياً متسكعاً . وهم يسمون هذا البعير بليّة[٢] .

قال قائلهم يوصى ولده :

احمل أباك على بعير صالح ... يوم القيامة ان ذلك أصوب

لا تتركن أباك يسعى خلفهم ... تَعِباً يَخِرُّ على يديه وَيَنْكُبُ

---

(١) مروج الذهب ج ١ س ٢٥١ — ٢٥٢ (٢) محاضرات الأدباء ج ١ س ٧٤

﴿ ضمان القلوب ﴾

تشق المرأة رداء زوجها ، ويشق برقعها ، ذلك عندهم ضمان الحب ، ووثاق القلوب ! وحُجّتهم فى ذلك أن ترى المرأة صنيع زوجها ، وهو يرى صنيعها ، فلا تزال تذكره ، ولا يزال يذكرها . وربما تبادلا ثيابهما فلبس كلٌّ بُرد صاحبه ثم لا يزال يعبث بتمزيقه حتى يُبليه[1] . قال سُحَيم بن معبد الأسدى :

فكم قد شققنــــا من رداء مُحَبَّرٍ ... ومن برقع عن طَفْلَةٍ[2] غيرِ عانس

إذا شق برد شق بالبرد مثــله ... دَوَالَيك حتى كُلُّنــا غيرُ لابس

نروم بهذا الفعل بقيًا على الهوى ... وإِلْفُ الهوى يغرى بهذى الوساوس

وقال آخر يصف ثوبه مما فعلت به امرأته :

كأن ثيــابى نازعت شوكَ عُرْفُط ... ترى الثوبَ لم يَخْلَق وقد شُقّ جانبه[3]

﴿ صنيع المِقْلَات ﴾

المقلات المرأة التى اهتصر الموت أبناءها فلم يبق منهم على أحد . تلك المرأة إذا وطئت القتيل الشريف عاش فى زعمهم أبناؤها[4] . قال قائلهم :

تظل مقاليت النساء يطأنه ... يَقُلْنَ ألا يُلقَى على المرء مئزر

ولا أحسب ذلك إلا وسيلة مما ابتدعه العرب لإذلال أعدائهم ، فألقوا فى رُوع التواكل من النساء أن فى ذلك حياطة من الموت فلا يعود إلى انتزاع أكبادهن من بين جوانحهن .

والى تلك السنة أشار الكُميْت بن زيد الأسدى فى مدحه الحسين بن علىّ عليهما السلام[5] :

---

(١) خزانة الأدب ج ١ ص ١٧١ — ١٧٢ (٢) الطفلة الفتاة الناعمة والعانس التى طال مكثها فى أهلها دون أن تتزوج (٣) العرفط شجر شائك يقول أن ثيابه مزقت وهى جديدة فى مواطن مختلفة منها كما يمزقها الشوك حين يعلق بها (٤) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٧٣ (٥) لسان العرب ج ١٦ ص ١٣٢

وتُطيل المرزّآت المقاليت اليه القعود بعد القيام
يتعرفن حُرّ وجه عليه عِقْبَةُ السَّرْوِ ظاهراً والوِسام[(١)]

﴿ البثر[(٢)] فى شفة الصبى ﴾

مما يعمل النساء إذا بُثِرت شفة صبيهن ، أن يُحَمِّلنه مُنخُلاً فيطوف على بيوت الحى ينادى : الحَلاَ الحَلاَ[(٣)] الطعام الطعام . فتلقى له النساء كِسَر الخبز وأقطاع التمر واللحم فى المنخل ، فينثر ذلك للكلاب . فأيما كلب أو طفل تناول منه بثرت شفته وبرأ الصبي . قالت امرأة[(٤)] :

ألا حَلاَ فى شفة مشقوقه فقد قضى منخلنا حقوقه

﴿ عمل الشمس فى الأسنان ﴾

كان عمل الصبي والصبية إذا سقطت لأحدهما سنّ ، أن يأخذها بين السبابة والإبهام ، ويستقبل بها الشمس ، ويقول : يا شمس أبدلينى بسنّ أحسن منها ولْتَجْرِ فى ظَلْمِها إياتك[(٥)] . فهنالك تستقى من ضوء الشمس ، فلا يكون سنّ أوضأ ولا أدق منها . وذلك المعنىُ يقول طرَفة :

شادن يجلو إذا ما ابتسمت عن أقاحٍ كأقاح الرمل غُرّ[(٦)]
بدلته الشمس من منبته بَرَداً أبيض مصقول الأُشُر

وقوله :

سقته إياة الشمس الا لثاته أُسِفَّ ولم تَكْدُمْ عليه بإثمِدِ[(٧)]

---

(١) السرو الشرف والوسام الجمال (٢) البثر خراج صغير (٣) الحلا البثر
(٤) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٧٤ وبلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٥٧ — ٣٥٨
(٥) شرح ديوان طرفة للشنقيطى . والظلم بفتح الظاء ماء الأسنان وبريقها واياة الشمس ضوءها
(٦) الشادن الظبي والأقاح جمع أقحوان وهو البابونج ولزهره وضح وبهاء وحسن نظام
(٧) اللثات منابت الأسنان وأسف ذر عليه ولم تكدم أى لم تعض والاثمد الكحل يقول أن ثغرها وضاء براق الا لثاتها فهي حواء وذلك ما يتجمل به العرب

٧ — بعض شأنها

﴿ عُرْسُهـــا ﴾

للزواج عند العرب يومان : يوم الإملاك — وهو يوم العَقْد — ويوم البناء — وهو يوم الدخول — . ذلك بعد أن يُقَدِّم القوم بين يدى الأمر ما يروضه ويمهده .

﴿ يوم الاملاك ﴾

فى ذلك اليوم يأخذ ذوو الفتاة زينتهم ، ويجمعون قاصيتهم ، ويَنْتَدُون فى ساحة دارهم ، أو نَدِىِّ عشيرتهم ، وفى صدرهم وَلِىّ صاحبتهم ، مرتديا بُرْدَى حَبَرَة متخَلِّقًا بالْخَلوق(١) . وهنالك يَقْدُم رجال الفتى ، فيهبطون من أكفائهم ونظرائهم مَهْبطًا كريمًا . حتى إذا اطمأنّ بالقوم المكان ، أنشأ ولىّ الزوج يخطب القوم خطبة رَيِّقَةً مُونِقَةً ، يكشف فيها عما تناجوا به ، وقَدِموا له ، ويقدر فيهـا المهر عاجله وآجله . ثم يجيبه ولىّ مخطوبتهم بمثلهـــا ، يُضَمِّنها الرضا بالقوم أخدانا ، وبصاحبهم صهرا . حتى إذا انتهيا نُحِرَت الْجُزُر ، ومُدَّت المطاعم ، وسُمع الغِناء من مجالس النساء .

وتسمى وليمة ذلك اليوم بالنقيعة .

وصيغة العقد عندهم ، أن يقول الزوج : خِطْبٌ : فيقول ولىّ الزوجة : نِكْحٌ(٢)

وذلك حديث ذلك اليوم فى أسرتين من سادات أسر العرب وهاماتهم .

أرسلت خديجة بنت خويلد الى أمين قريش ومأمونها محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليـه — تخطبه وتقول له : انى قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحُسْن خُلُقك ، وصدق حديثك . فرجع محمد ، صلى الله عليه وسلم ،

(١) انسان العيون ج ١ ص ١٤٨ — ١٤٩ (٢) تاج العروس ج ١ ص ٢٥١

بالقول الى عمه العظيم الكريم أبى طالب بن عبد المطلب ، فرضيه له ، وأقرّه عليه، لِمَا استقر لخديجة من نُبْل الُخلق ، وسناء الحياة .

غدا الرسول على خديجة بالرضا ، وبأن القوم غادون فى أثره . فأرسلت فى آلها ، ورجال أسرتها ، واستأذنت عمها ، فأذن لها ، وقال : هو الفحل لا يقرع أنفه . ثم نهضت اليه ، فخلَّقته بالعبير ، وكسته بردى حبرة حمراء . وأقبل القوم من بنى هاشم ، وفيهم كريم فتيانهم ، ونجيب عشيرتهم ، محمد بن عبد الله ، فنزلوا من بنى عمهم أكرم منزل وأسناه . وهنالك تداول الخطابة أبو طالب بن عبد الله سيد قريش وامامها ، وورقة بن نوفل – ابن عمّ خديجة – حَبْر قريش وعالمها . ولما انتهى القائلان نحر محمد – صلوات الله عليه – جَزُورين . وأمرت خديجة نساءها فرقصن وغنّين . واليك نص الخطبتين : —

{ خطبة أبى طالب }

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضِئْضِىء[1] مَعَدّ ، وعنصرِ مُضَر . وجعلنا حَضَنَة بيته ، وسُوَّاس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجا ، وحرماً آمنا ، وجعلنا حكام الناس . ثم ان ابن أخى هذا ، محمد بن عبد الله ، لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونُبلا ، وفضلاً وعقلا . وان كان فى المال قُلٌّ ، فان المال ظل زائل ، وأمر حائل . وعاريةٌ مسترجعة . وهو والله بَعْدُ له نبأ عظيم ، وخطر جليل . وقد رغب اليكم ، رغبة فى كريمتكم خديجة . وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ونَشا[2] .

---

(١) ضئضىء الشىء معدنه (٢) النش عشرون درهما وهو نصف الأوقية

﴿ خطبة ورقة بن نوفل ﴾

الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت . فنحن سادة العرب وقادتها . وأنتم أهل ذلك كله . لا ينكر العرب فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم . فاشهدوا علىَّ معاشر قريش ، أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد ، من محمد بن عبد الله .

وكان ورقة فى موقفه هذا ، ينطق بلسان عمرو بن أسد عم خديجة ، الذى نهض فقال : اشهدوا علىَّ معاشر قريش . أنى قد أ نكحت محمد بن عبد الله ، خديجة بنت خويلد[١] .

وكان من سنة العرب ، اذا خطب الرجل قومه ، أن ينهض واقفاً ، أو يعتلى شَرَفاً من الأرض ؟ أو يتبوأ ظهر راحلته ، إلاّ فى خطبة الأملاك فان شأنه أن يخطبها وهو جالس مطمئن . ذلك لأن المقام مقام دعة وتبسط لا حاجة فيه الى فورة الدم ، وثورة العاطفة ، بما يبذل من تطاول واستشراف ، وقبض وبسط ، وارعاد وابراق .

﴿ المهـــر ﴾

هو صلة الرجل لامرأته ، تأخذه كاملاً غير منقوص لا سبيل لأحد اليه ، ولا سلطان له عليه . لذلك عدوا من اللؤم المؤتشب فى نفس الرجل أن يتخذ حُلْوان ابنته أو مُوَلِّيَتِهِ . وذلك أن يتفق على جزء من المهر يبغيه لنفسه[٢] .

وأعز مهورهم الذهب السبيك ، والأينق العُشَرَاء ، يبذلون منها على قدر مارزقوا من نعمة العيش ، وبسط الغنى . على أن حد ذوى الجاه والسُّؤدد واليسار

(١) انسان العيون ج ١ ص ١٥٠ (٢) لسان العرب ج ١٨ ص ٢١٩

مائة رطل أو مائة ناقة . وقد يجمع الرجل بينهما . فقد أمهر عبد المطلب بن هاشم فاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب[١] .

وليس العرب بالذين يساومون فى المهر قلّ أو كثر . وحسبهم من الرجل جهد همته ، وبعد غايته ، وسناء نسبه ، وصفاء ضريبته . فقد نزع لَقِيط بن زرارة شريداً إلى قيس بن خالد ذى الجدين ، كريم العرب ، وأحد ملوكها ، فخطب اليه ابنته ، وتكلم بكلمات كشفن منه عن قلب ذكى ، وأنف حَمِىّ ، ونسب سنىّ . فزوجه الملك ابنته لليلته ، وساق اليها المهر عنه[٢] .

أما ذوو الخصاصة فإن بحَسْبِ الرجل أن يسوق إلى امرأته عرضاً مما يباع ويشترى . ومن حديث العرب أن مُهَلْهِلَ بن ربيعة رحل بآل بيته بعد أن استَذَلَّته بَكْر يوم تحلاق اللمم ، فاستجار بمَذْحج . وهنالك جاءه ناس منهم يقال لهم بنو جَنْب ، فخطَبوا إليه ابنته طمعاً فى أن يَشْرُفوا بشرف قومه ، وينبهوا بوثوق الصلة به ، فأبى ذلك عليهم . ثم سعى اليه مجيروه من مَذْحِج ، وظاهروا جنباً فى خِطْبَتِهم ، وأبصر هو القسر والكريهة منهم ، فنزل لهم عن ابنته ، وساقوا اليه فى مهرها رقاعاً من جلد ، وأفاؤوا بها على فتى من غِمارهم . فقال مهلهل فى ذلك[٣] :

نهنهنى صاحبى فقلت له ... ان الحظوظ جعلن بالقِسَم[٤]
أصبحت لا مَنْفَساً أصبْتُ ولا ... أبْتُ كريماً حرا من الندم
عز على وائل بما لقيت ... أخت بنى الأكرمين من جُشَم
أنكحها فقدُها الأراقم من جنب ... وكان الحِباء من أَدَم[٥]

---

(١) انسان العيون ج ١ ص ٤٨ (٢) جمهرة الأمثال ص ٢٠١ وسمير الحديث مفصلا فيما نختاره من أمثال نساء العرب (٣) بكر وتغلب ص ٩١ (٤) نهنهه عن الأمر كفه وزجره
(٥) الأراقم حى من تغلب وهم قبيل كليب ومهلهل بن ربيعة والحباء العطاء ويريد به المهر

ليسوا بأكفائنا الكرام ولا يغنون عن عَيْـلَة ولا عَدَم

لو بأبانَيْنِ جاء يخطبها ضُرِّج منه جبينـه بدم[١]

وربما احترش[٢] الأعرابى ضباً فاحتمله إلى كفيئته فكان ذلك مهرها وعُقدة زواجها . قال أعرابى[٣] :

أمهرتها بعـد المِطال ضبّين من الضباب سَحْبَلَيْن سَبْطين[٤]

نعم لعمر الله مهر العِرْسَيْن

فذلك مهره الذى أبَرَّ به على غيره ، وتجمل به على صاحبته ، وعده تأنقاً فى البذل وافراطاً فى السماحة . ذلك مهر العروسين .

والعرب يقولون : الأزواج ثلاثة ، زَوْجُ مَهْرٍ ، وزوجُ بَهْرٍ ، وزوجُ دَهْرٍ . أما زوجِ مَهْرٍ فرجل لاشرف له يُسْنِي المهر لِيُرَغِّب فيه ، وأما زوج بهر فالشريف وان قَلَّ ماله تتزوجه المرأة لتفتخر به ، وأما زوج دهر فذلك الكفء الذى لا عيب فيه[٥] .

﴿ يوم البنـاء ﴾

لا تجد فى مأثور حياة العرب ومعدود أيامهم ، يوماً أتم بهاء ، ولا أعم صفاء ، ولا أبدع رُواء ، ولا أكثر ضياء ، ولا أجمع للبهيج الهنىّ من محافلهم ، ومعالم أفراحهم — من يوم للبناء . فهنالك يتبارى الفتيان فيلعبون بالرماح . وينتضلون بالصفاح . ويَسْتَبِقُونَ على متون الخيل . ويأخذون فى الميسر — وهو أداة لهوهم وسنة الندى والكرم فيهم — ويسرحون ويمرحون . ويشربون ويطربون .

أما بين يدى الدار وفى حجراتها ، فهم يبسطون الأنماط ، ويشدونها على الجدران وعليها النقوش المُمَوَّهة والصور المزينة — وتلك التى استنكرها الإسلام

(١) أبانان جبلان تقيم بينهما تغلب (٢) احترش الضب صاده وذلك بأن يحرك يده على باب جحره ليظنها حية فيخرج ذنبه ليضربها فيأخذه (٣) الحيوان ج ٦ ص ٣٦

(٤) السحبل من الضباب الضخم والسبط الحسن القد والمنظر (٥) المخصص ج ٤ ص ٢٤

واطَّرحها فى أعراس المسلمين[١] — . وعلى النمارق المصفوفة ، والزرابىّ المبثوثة ، يجلس النساء ، ويأخذ فتياتهن فيما عف وظرُف من ضروب اللهو وفنون المرح .

فأما الليل ، فأحسن ما اكتحلت به نواظر العرب حتى جعلوه مضرب أمثالهم فقال قائلهم : ☆ يا ليلةً ما ليلة العروس[٢] ☆

فهنالك تُجْلَى الفتاة ، ويُفْرَغ عليها الُحلِىّ مما تملك وما لا تملك ، لأن قومها يستعيرون لها أمتع ما فى الحى من حَلْى ، بل ربما تجاوزوا حيهم الى ما سواه . فقد استعار عتبة بن ربيعة — وهو فى الشرف الصميم من قومه — حلى بنى أبى الحقيق لتزف فيها ابنته هند على أبى سفيان ورهنهم ابنه الوليد . فأقام بينهم شهراً ثم رد الحلى موفوراً[٣] .

فى ذلك الزِّىّ البهىّ تسير الفتاة فى حشد من لِدَاتها وأترابها حتى يصلن بها إلى حجلتها . فينشىء الإماء يرقصن بين يديها ، ويُغَنِّينها بمآثر آبائها ، والغرّ الميامين من قومها . وفى ذلك الموطن لا يحتجب النساء عن الرجال .

وقد عَبَرَ العرب على سنتهم هذه فى مقتبل العهد الاسلامى . فقد حدث البخارى عن الرُّبيِّع بنت مُعَوِّذ بن عفراء أنها قالت : جاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل حين بُنِى علىَّ فجلس على فراش كمجلسك منى[٤] فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائى يوم بدر[٥] ، إذ قالت إحداهن : وفينا نبى يعلم ما فى غد . فقال : دعى هذا وقولى بالذى كنت تقولين[٦] .

ومن مقال النساء لصاحبتهن عند مفارقتها : باليُمن والبركة . وعلى خير طائر .

☆
☆ ☆

﴿ أما بعد ﴾ فلا يهولنّك ما رأيت من اعتداد القوم بأعراسهم فوق

---

(١) ارشاد السارى ج ٨ ص ٧٥ (٢) المخصص ج ٤ ص ١٩ (٣) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٧١ (٤) تخاطب راوى الحديث (٥) تريد يتغنين بمآثرهم يوم بدر وكان الذى قتل يوم بدر أبوها وعماها (٦) ارشاد السارى ج ٨ ص ٥٩

اعتدادهم بمواسمهم وأعيادهم . فان العرب على ما تعلم أمة حرب وجلاد . وهم لا يزالون فى وقائع تُبَهْرِج[١] دماءهم ، وتعتصر مهجات نفوسهم ، حتى تخطب القبيلة إلى القبيلة ، فتتخذا من تعاطف الأرحام ، تعاطفاً فى القلوب ، وأسواً للجروح ، وأمنة من الحادثات .

وأخرى أن العرب إذا أكبروا أمر الزواج فانما يكبرون ما تحسر عنه النساء من الأبناء ، وهم عُدَّة الحى ، وغاب الحمى ، وعز العشيرة .

﴿ مناحتها ﴾

لنساء العرب مظاهر من الوفاء كلها حسن جميل إلاَّ ما تَعَسَّفه الثواكل منهن فى مناحاتهن ومَهاجات أحزانهن من تورُّط فى الجزع واسراف فى البلاء .

والمرأة العربية أحمل الناس لنازلة وأصبرهم على مُلمّة ، إلاّ إذا انتزع الموت منها أليفاً حميماً أو عزيزاً عظيماً . فهى تسير فى شعاب من الأحزان طَلْقةَ العنان بل انها لتضاعف أحزانها ، وتؤرث ضرام حشاها ، بما تنهجه يومذاك من خطة وتشتمل عليه من عادة .

على أن نساء العرب فى مواقف الحزن طبقات بعضها فوق بعض . فهنالك المُتَجَمّلة المؤتزرة بالصبر ، التى تشتفى بالبكاء ، وتكتفى بالرثاء . ثم تأتى بعد هذه الصالقة والشاقة والحالقة .

فالصالقة التى ترفع صوتها وتدعو بدعوى الجاهلية[٢] كأن تقول فى ندبة ولدها : وا ولداه ، وا وا كبداه ، وفى كبيرها : وا جبلاه ، أو وا عضداه

---

(١) تبهرج أى تبيح (٢) ذلك من قول رسول الله « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » وفسر القسطلانى دعوى الجاهلية بما بينته لك

والشاقة التى تُنحى على جيب جلبابها[١] شقاً وتمزيقاً . وبذلك أوصى طرفة اخته بقوله :

إذا مت فانعَينى بما أنا أهله ... وشقى علىَّ الجيب يا ابنة معبد

والحالقة التى تحلق شعرها فلا تبقى على بقية منه

وأولئك اللواتى لعنهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرئ منهن[٢]

ومنهن التى تجعل فى يديها نعلين تصفق بهما وجهها وصدرها . وإلى هذه يشير عبد مناف بن رِبْع الهُذَلى فى قوله[٣] :

يَرِيع قَلْبَ ابنتَىْ رِبْعٍ عويلُهُما ... لا تَرْقُدَان ولا بُؤْسَى لمَن رقدا[٤]

كِلتاهما أُبطنَتْ أحشاؤها قَصَباً ... من بطن حَلْبَة رَطْباً نَقِدا[٥]

إذا تأوَّب نَوْحٌ قامتا معه ... ضرباً أليماً بسِبْتٍ يَلْعَجُ الجِلَدا[٦]

كل ذلك أو بعضه مما يفزع اليه الغاليات[٧] اللواتى اهتاجهن الحزن فأسرفن على أنفسهن . فأما ذوات الرأى الجزل والحسب الكريم فهو عندهن مأثمة يأبين أن يقارفنها ويهبطن اليها ، على رغم ما يعالجن من حُرَق وأحزان . وتلك هى الخنساء وما ضُرِب به المثل من تدلهها ، وتصدع قلبها ، واضطرام حشاها ، لم ينزل بها الهلع الى منازل أولئك المسرفات . فلم تحلق شعراً ، ولم تضرب صدراً . وذلك حيث تقول فى رثاء أخيها معاوية :

فلا والله لا تسلاك نفسى ... لفاحشة أتيت ولا عقوق

---

(١) جيب القميص طوقه (٢) لسان العرب مردداً فى شرح هذه الكلمات وتيسير الوصول ج ٣ ص ٢٩٨ — ٢٩٩ (٣) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٦٣ (٤) ابنتا ربع اختاه وماذا يريعهما عويلهما أى ماذا يرد عليها العويل والسهر (٥) يريد بالقصب المزامير و « كلتاهما أبطنت إحشاؤها قصباً » أى كأن فى جوفهما مزامير من طول ما ترجعان من نوحهما وقوله لا رطباً ولا نقداً أى ليس ذلك القصب بالرطب الذى لا يبين فيه الصوت ولا بالنقد « المتأكل » الذى يسرع اليه العطب (٦) تأوبهن النوح عاودهن فى جنح الليل والسبت النعل ويلعج يؤثر وحرك لام الجلد لضرورة الشعر (٧) الغاليات من الغلو وهو الافراط فى كل شىء

ولكنى رأيت الصبر خيراً   من النعلين والرأس الحليق

وأشد أثقال المصيبة فى الرجل يلقى على امرأته . فهى تقيم من بعده سنة كاملة لا تمس ماء ، ولا تُقلِّمُ ظفراً ، ولا تزيل شعراً[١] .

بل ربما ضاعفت المرأة هذا الشقاء فانتبذت بيتاً صغيراً تقيم فيه عامها بنجوة من الناس ، ولبست شر ما تلبس من الثياب .

واليك ذلك الحديث الكريم فان فيه وفاء بتلك العادة المُنْتِة .

حدث البخارى عن حُمَيد بن نافع عن زينب ابنة أبى سَلمَةَ قال : جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله أن ابنتى تُوُفى عنها زوجها ، وقد اشتكت[٢] عينها أفتكْحَلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا . مرتين أو ثلاثا . كل ذلك يقول لا . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما هى أربعة أشهر وعشر وقد كانت احداكن ترمى بالبَعْرةِ على رأس الحَوْل ، قال حُميد بن نافع : فقلت لزينب وما ترمى بالبعرَة على رأس الحول ؟ فقالت زينب : كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حِفْشاً[٣] ولبست شر ثيابها ولم تمسَّ طيباً حتى تمر بها سنة ثم تُؤْتَى بدابةٍ : حمارٍ أو شاةٍ أو طائرٍ فتفتض به[٤] ، فقلَّما تفتض بشىء إلا مات . ثم تخرج فتُعْطَى بعرة فترمى. ثم تراجع بعدُ ما شاءت من طيب[٤] .

على أن نظرة واحدة فى رواية الحديث ، وسؤال راويه عما يراد منه على قرب عهده بالجاهلية ، تُنْبِئُنا أن تلك العادة لم تكن عامة شاملة فى بطون العرب وشعرها

***

وكان قول النساء اذا حُمِل الميت من بيتـه ، أو وُورى قبره ، أن يقلن : لا يَبْعَدْ . يردن بذلك أننـا أحوج ما نكون اليك فلا تحجب دوننا أثر يمينك

(١) القسطلانى ج ٨ ص ٢٠٨ — ٢١١ (٢) اشتكت أى وجعت (٣) الحفش البيت الصغير جداً (٤) تفتض به أى تتمسح بجلده (٤) صحيح البخارى ج ٧ ص ٦٠

ولا نور جبينك . والعرب كَلِفون بأن ينسبوا الميت بعد الموت جميل ما اشتمل عليه من صفات ومَكْرُمات . فهم يقولون أن ربيعة بن مُكَدَّم حمى الظُّعُنَ حيًّا وميتاً ، وان حاتماً نفح ضيوفه وهو فى قبره بما كان يحبوهم به وهو حى (١)

لذلك قال النساء : لا تبعد .

قالت الفارعة بنت شداد فى رثاء أخيها مسعود بن شداد :

أبا زُرَارَة لا تَبْعَدْ فكل فتى يوماً رهين صفيحات وأعواد (٢)

وقالت الخِرْنِق بنت بدر :

لا يَبْعَدَنْ قومى الذين همُ سُمُّ العُدَاة وآفة الجُزُر (٣)

النازلين بكل معترَك والطَّيِّبون معاقد الأزُر

وقالت امرأة ترثى ولدها :

بُنِيَتْ عليك بُنَىَّ أحوَجَ ما كنا اليك صفائحُ الصَّخْر

---

(١) أما حديث ربيعة فقد عرفته مما أسلفته وأما حديث حاتم فذلك الذى أسوقه اليك مما حدث ابن الكلبي قال : — مر أبو الخيبرى فى نفر من قومه بقبر حاتم بمكان يقال له (تبعة) وحوله أنصاب نوائح من حجارة كأنهن نساء فنزلوا به فبات أبو الخيبرى ليلته كلها ينادى أقر « أطعم » أضيافك يا أبا جعد فيقال له مهلا ما تكلم من رمة بالية ؟ فيقول أن طيئا تزعم أنه لم ينزل به أحد الا قراه فلما كان آخر الليل نام أبو الخيبرى حتى اذا كان فى السحر وثب فجعل يصيح « واراحلتاه » فقال له أصحابه ما لك ؟ قال والله خرج حاتم بالسيف وأنا أنظر اليه حتى عقر ناقتى فقالوا كذبت والله ما خرج قال بلى والله فنظروا الى راحلته فاذا هى مختزلة — مقطوعة — لا تنبعث قالوا والله قد قراكم فظلوا يأكلون لحمها ثم أردفوه وانطلقوا فساروا ثم نظروا الى راكب فاذا هو عدى بن حاتم مقبلا عليهم فقال : أيكم أبو الخيبرى قالوا هذا قال ان حاتماً جاءنى فى النوم فذكر لى شتمك اياه وأنه قرى راحلتك أصحابك وقال لى فى ذلك أبياتاً رددها على حتى حفظتها وهى :

أبا الخيبرى وأنت امرؤ حسود العشيرة شتامها
فماذا أردت الى رمة بداوية صخب هامها
تبغى أذاها وأعسارها وحولك غوث وأنعامها
وانا لنطعم أضيافنا من الكوم بالسيف نعتامها

وقد أمرنى أن أحملك على بعير فدونكه فأخذه فركبه وذهب

(٢) الصفيحات أو الصفائح حجارة عراض رقاق . تريد بها القبر وتريد بالاعواد سرير الموت

(٣) العداة جمع عاد وهو العدو والجزر جمع جزور وهو البعير أو الناقة المجزورة . تصفهم بالبأس والكرم

لا يُبْعِدَنكَ الله يا عَمْرِى[١] إمَّا مضيت فنحن بالإثْر

وقالت أم عمرو بنت مُكَدَّم فى رثاء أخيها ربيعة بن مكدم :

فاذهب فلا يُبْعِدَنْكَ الله من رجل لاقى الذى كلُّ حىّ مثلَهُ لاق

وقال الفرّار السُّلمى :

ما كان ينفعنى مقال نسائهم — وَقُتِلْتُ دون رجالهم — لا تَبْعَدِ

* * *

وكانت المنادب والمناحات على سادة الحى وأشرافهم سنة كاملة . بذلك أوصى لبيد بن ربيعة ابنتيه فى قوله :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

فقوما وقولا بالذى تعلمانه ولا تَخْمِشَا وجهاً ولا تحلقا شَعَر

وقولا هو المرء الذى لا صديقَهُ أضاع ولا خان الأمين ولا غدر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

حتى إذا لحق لبيد بربه ، نهض ابنتاه بما أمرهما به ، فكانتا تلبسان ثيابهما كل يوم ، وتقصدان إلى مجلس جعفر بن كلاب عظيم عشيرته فترثيانه ولا تُعْوِلان وكذلك أقامتا سنة كاملة ثم انصرفتا[٢] .

وإنما أوصى لبيد بنتيه بما أوصاهما ، بعد أن آمن بالله واعتصم بدينه ، لما اتصف به من الشرف القديم فى قومه ، فلم يشأ أن يرزأهم فيما عف من سننهم ومناهجهم .

---

(١) عمرو ابنها أضافته الى نفسها (٢) الأغانى ج ١٤ ص ٩٨

﴿ تجمّلها ﴾

يحب الرجل العربى من المرأة أن تملأ أقطار عينه طولاً ، وعرضاً ، وامتلاء ، واستواء . وأن تكون إلى كل ذلك كَحْلاءَ ، عيناءَ[١] ، زجّاءَ[٢] ، بلجاءَ[٣] ، بيضاءَ ، شماءَ[٤] ، مأشورة[٥] ، فلجاءَ[٦] ، لمياءَ[٧] ، لعساءَ[٨] ، جيداءَ[٩] ، غيداءَ[١٠] ، أثيثة الشعر[١١] ، مُشْرِقة النحر ، مهضومة الخصر[١٢] .

ذلك ما يَرُوع الرجل العربى من جمال المرأة . وذلك ما تحب المرأةُ العربية أن توسم به ، وتُطبع عليه . فإن حُرِمت بعضه تصنّعَته ، وتجمّلت فيه بما لا ينبو الطبع عنه ، ولا يُرَد الطرف دونه .

وتلك التى أوردها عليك ، فنون من التجمل ، كَلِفَ بها اللواتى حُرِمن الكفاية من الجمال .

فهنالك : التكحل ، والتنمّص ، والتزجيج ، والتفليج ، والتَّلْمِيَة ، والوَشْر ، والوَشْم ، والوصل ، والخِضاب .

فالتكحُّل أخذ العين بقليل من الكحل تداوياً أو ازدياناً .

وأكثر ما يكون التكحل بالإثمد . وهو حجر أسود إلى حمرة . ومعدنه بأصبهان . وليس فى مذاهب العرب ما يجلو العين ويذهب بأقذائها مثله . ولا تكتحل المرأة إلا بين يدى المرآة .

---

(١) العيناء من العين — بفتح الياء — وهو عظم سواد العين واتساعها (٢) الزجاء من الزجج وهو دقة الحاجبين وطولها (٣) البلجاء من البلج وهو تباعد ما بين الحاجبين وتقاوته من الشعر
(٤) الشماء من الشمم وهو دقة الانف واستواء قصبته فى علو
(٥) مأشورة ذات الأشر — بضم الهمزة والشين — وهو دقة الأسنان وتحززها وحدة أطرافها
(٦) الفلجاء من الفلج وهو تباعد ما بين الثنايا والرباعيات (٧) اللمياء من اللمى — بفتح اللام والميم — وهو سمرة فى الشفاه واللثات (٨) اللعساء — من اللعس — وهو سمرة فى حمرة فى الشفة وحدها أو الجسم كله (٩) الجيداء — من الجيد — بفتح الجيم والياء — وهو طول العنق فى حسن ودقة
(١٠) الغيداء — من الغيد — نعومة فى العنق أو فى سائر الجسم (١١) أثيثة الشعر طويلته على حسن فيه وغزارة واسترخاء ١٢) مهضومة الخصر كناية عن رقة وسطها عما يحيط به

قال قائل :

إذا الفتى لم يركب الأهوالا ‏ ‏ ‏ ‏ وخالف الأعمام والأخوالا

فأعطِــهِ المِرآة والمِكْحالا ‏ ‏ ‏ ‏ واسع له وعُدَّه عِيــالا

يقول : أولى بمن لم يقتحم الأهوال أن يكون من ذوات الحجال .

والتنمُّصُ ‏ ‏ أخذ ما بين الحاجبين من الشعر حتى تُخيِّل للناس البَلَج .

والتزجيج ‏ ‏ حف ما حول الحاجبين من الشعر واطالتهما بالإثمد .

والتفليج ‏ ‏ تفريق ما بين الثنايا والرباعيات تشبهاً بالفُلْج من النساء .

والتَّلْمِية ‏ ‏ خضاب الشفاه واللثات بالإثمد حتى تحكى اللمى .

والوَشْرُ ‏ ‏ تحزيز الأسنان وتحديدها بمِبْرَد ونحوه مَجْلبة للأُشُر فى الأسنان وأكثر ما يفعل ذلك ذوات السن منهن . لأن الأشر من صفات الحدثات .

والوشم ‏ ‏ وذلك أن يُوخزَ ما تشاء المرأة من جسمها بإبرة أو نحوها حتى يسيل الدم ثم يُحْشَى بالنَّؤُر[1] أو النِّيلج أو الكحل حتى يَخْضَرَّ أو يسودّ .

وأكثر ما تَشِمُ المرأة ذراعها وشفتاها ولثاتها ، وقد تجاوزهن إلى غيرهن .

وللمرأة العربية مَشَابِهُ مما تفعل القَرَوِيَّات من نساء مصر من وشم أذرعهن وما سواها بصور النبات والحيوان .

وربما اتَّشَم الرجل بزعم أن الوشم يشد عَضُده ويُقَوِّى دمه .

والوصل ‏ ‏ أن تصل المرأة شعرها بشَعَرٍ مُعار . وأكثر ما كان يفعل ذلك يهوديّات العرب . وآية ذلك ما حدَّثَ البخارى عن حُمَيـد

(١) النؤر ما تجمع من دخان الشحم

ابن عبد الرحمن انه سمع معاوية بن أبى سفيان عامَ حَجَّ وهو على المنبر وهو يقول — وتناول قُصَّة من شعر كانت بيد حَرَسِىّ — : ما كنت أرى يفعل ذلك إلا اليهود ، أين علماؤكم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل ذلك [١] .

وهناك صوانع من النساء خصصن بذلك وانقطعن له . ففيهن النامصات ، والفالجات ، والواشرات ، والواصلات ، والواشمات . وهن يطفن على النساء مأجورات يكفينهن معاناة ذلك بأيديهنّ . وأولئك اللواتى لعنهن نبى الله صلى الله عليه وسلم فى الإسلام [٢] .

وأما الخضاب ، فأكثر ما يكون بالحناء فى أيديهن وأرجلهن ، وبالكَتَم [٣] المزوج بالحناء فى رؤوسهن . فذلك أجاب لفُحومة الشعر ونعومته .

وعندهن خليط من الطيب يتضمخن به فيكسب وجوههن حمرة واشراقا ولا يكون ذلك إلا فى ذوات العز والثراء . والعرب يسمون أولئك المتضمخات بالعواتك [٤] .

على أن تصنع الجمال مما يَنِدُّ عن الطبع العربىّ إلا أن يكون كحلا أو طيباً وأكثر ما تُرَى المرأة العربية غانية بجمالها ، أو مغتنية بآلها وخلالها ، أو مشغولة بجدها وأعمالها . بل لقد تواصى الحسيبات من النساء بالاكتفاء بالماء ومن جوامع كَلِمِهِنَّ : أطيب الطيب الماء .

---

(١) ارشاد السارى ج ٨ ص ٤٧٥ . (٢) ارشاد السارى ج ٨ ص ٤٧٥ — ٤٧٧

(٣) الكتم نبت يخرج فى شواهق الجبال وينبت فى صم الصخور لا يقوم فى استواء بل يتدلى كما تتدلى الخيوط

(٤) العواتك جمع عاتكة ومن ذلك سميت العواتك من النساء

(٤)
فصاحتها وسماحة منطقها

إذا عُدَّت سِمَات الحسن ، وصفات الجمال ، فحسن المنطق أروعها وأبدعها وأملكها للأنفس ، وآخذها بالقلوب . لأن معالم الجمال تستمد روعتها من البدن وحده . فأما جمال الكلام فوسط عدل بين الروح والبدن .

واذا عُرِفت المرأة فى مختلف أطوارها بالإكثار من فضول القول ، والإرسال من حواشيه ، لتبلغ من نفوس جلسائها فان المرأة العربية قد بلغت ذلك وتجاوزته بما ملك أسلوبها من دقة وبراعة ، وسماحة رأى ، وحسن بيان .

ولعل ذلك خير ما مكن لها من نفوس الرجال ، ومهد من أسماعهم ، ووطَّأ من قلوبهم .

لقد كانت المرأة العربية ، وما تكاد تُسامَى فى ارتياد شعاب القول ، وعَجْم أعواده ، وكشف فنونه وشؤونه ، ودرك مواطن القوة والضعف فيه ، فاغتمرت حومة البيان قائلة ناقدة . فان نقدت فنقد القائل الحكيم ، أو قالت فقول الناقد العليم . وَلَشَدَّ ما أخذت على فحول الرجال مواطن الزلل فيما ابتدعوه وتأنقوا فيه . ولها من دقة النقد ، ولطف المأخذ ، ونفاذ الادراك ، وحسن البديهة ، ما جعل لها فى شتات مواقفها الرأى القاطع ، والكلمة الفاصلة .

وستعلم من هذين الشاهدين بُعد شأوها من دقة النقد ، ونفاذ البديهة . وفى تاريخ العرب ما لا يناله العدّ من أمثالهما .

أما الأول ، فما حدثوا أن امرأ القيس ، وعلقمة الفحل ، تنازعا الشعر ، فقال علقمة لصاحبه : قد حكّمت بينى وبينك امرأتك « أُمَّ جُنْدَب » . قال : قد

رضيت . فقالت لهما : قولاً شعراً ، على رويّ واحد ، وقافية واحدة ، تصفان فيه الخيل . فقال امرؤ القيس قصيدة أولها :

خليليَّ مُرَّا بى على أُمِّ جُنْدَب   لِنَقْضِيَ حاجات الفؤاد المعذب

وعارضها علقمة بمثلها ومطلعها :

ذهبتِ من الهِجران فى كل مذهب   ولم يك حقًّا كل هـذا التجنب

وأنشدها . فحكمت لعلقمة . فقال لها زوجها : بأى شيء غلبته ؟ فقالت : لأنك قلت :

فلِلسوط أُلهوبٌ وللساق دِرَّة   وللزجر منه دَفْعُ أَخرجَ مُهْذِبِ[1]

فجَهَدْت فرسك بسوطك ، ومَرَيته بساقك ، وأتعبته بجهدك . وقال علقمة :

فولى على آثارهن بحاصب   وغيبةِ شؤْبُوب من الشدملهب

فأدركهن ثانياً من عنانه   يمرّ كمرّ الرائح المُتَحَلِّبِ[2]

فلم يضرب فرسه بسوط ، ولم يمره بساق ، ولم يتعبه بزجر . فلم يكن لامرئ القيس من ردّ إلا أن طلقها ! وتلك آية العجز عن مقارعة الحجة بالحجة . أما هى فقد خَلَفَته على صاحبه[3] .

وأما الثانى ، فحديث الخنساء بنت عمرو بن الشريد .

ذلك أن النابغة الذبيانى كان حكماً يحتكم اليه الشعراء فى عكاظ . فكان فيمن تقدم بين يديه الخنساء ، وحسان بن ثابت . فلما أنشدته الخنساء قصيدتها التى تقول فيها :

---

(١) الالهوب اجهاد الفرس فى عدوه حتى يثير الغبار والدرة شبيهة بالسوط والأخرج من الطيور المكاء والمهذب المسرع فى طيرانه أو عدوه . يقول انه اذا قنع الفرس بالسوط وعلاه بالدرة اشتد عدوه حتى كانه الطير (٢) الحاصب ريح شديدة تحمل التراب والحصباء وعيبة الماء مجاوزته السدود والشطوط والشؤبوب الدفعة من المطر ويقال تحلب المطر اذا سال . يقول أن فرسه جاوز الريح الحاصب والمطر المتدافع وأدرك سوابق الخيل غير معنت ولا مجهود (٣) الأغانى ج ٧ ص ١٢١

وان صخراً لمولانا وسيدنا　　　وان صخراً إذا نشتو لَنَحَّار
وان صخراً لتأتم الهداة به　　　كأنه علم فى رأسه نار

قال لها : لولا أن أبا بصير « الأعشى » أنشدنى لقلت أنكِ أشعر أهل الأرض . فهاج ذلك جمرة الغضب فى صدر حسان ، وقال للنابغة : أنا أشعر منك ومنها ومن أبيك ! قال النابغة : بماذا ؟ فقال : بقولى

لنا الجفنات الغرّ يلمعن فى الضحى　　　وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فيروون أن النابغة قال للخنساء : خاطبيه يا خَناس . فقالت له : أضعفت افتخارك وأنزرته فى ثمانية مواضع . قال : وكيف ؟ قالت : قلتَ الجفنات والجفنات ما دون العشر . ولو قلتَ البيض لكان أكثر اتساعاً . وقلت : يلمعن واللمع شىء يأتى بعد شىء ، ولو قلتَ يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان . وقلت : بالضحى ولو قلت بالدجى لكان أكثر طُرّاقاً . وقلت : أسيافنا والأسياف ما دون العشرة ، ولو قلت سيوفنا كان أكثر . وقلت : يقطرن ولو قلت يَسِلن لكان أكثر . وقلت : من نجدة والنجدات أكثر من نجدة . وقلت : دماً والدماء أكثر من الدم . فلم يحر حسان جواباً . وانصرف عند ذلك مستحيياً[١] .

لذلك كله نهجت المرأة العربية كل مناهج القول ، واستنّت فى جميع ضروبه فأسهبت ، حتى استرقت الأسماع ، وملكت أزمة القلوب ، وأوجزت حتى كشفت عن الحكمة وفصل الخطاب .

ولقد وصف النبيّ صلى الله عليه وسلم رجال هم أمَسُّ الناس به ، وأطولهم لزاماً له ، وأملؤهم قلباً منه ، وهم ملوك القول ، وفرسان البيان ، ومن بينهم بطل حومتهم ، وامام سُنتهم ، علىُّ بن أَبى طالب عليه السلام . فلم يبلغ واحد من

(١) شرح شواهد المغنى ص ٩١

وصفه ما بلغت امرأة أعرابية أَلَمَّ عليه الصلاة والسلام بها وهو فى طريقه الى المدينة . فوصفته لزوجها وصفا جعله ملء سمعه وبصره ، ونفسه ، ووجدانه[١] .

ولئن اعتز رجال العرب بقوم منهم ضربوا الأمثال ، ونشروا مطارف الحكمة ، وكشفوا قناع الحقيقة ، فان لنسائهم ان يعتززن بفريق منهن لا يقل عن اولئك شأناً ، ولم يتخذ دون مكانهم مكاناً . ومن هؤلاء صُحْر بنت لقمان ، وحَذَام بنت الريان ، وخُصَيلة بنت عامر بن الظَّرِب ، وفاطمة بنت الُخرْشب ، وهند وجمعة ابنتا الخسّ الإيادى ، وأَمثالهن ونظائرهن ممن تنبو شفار الأقلام دون الوفاء بذكرهن ، وذكر ما كان لهن من كلمة نافذة ، ورأى مسموع .

أما الشعر — وأَخصه شعر العاطفة — فهو حديث أنفسهن ، ونجوى ضمائرهن ، ومَبَثُّ أوجاعهن ، ومثار سرائرهن ، والمحتكم بألسنتهن احتكامَ الدموع بأعينهن . ويا رب مُهْتاجة هاضها الشوق ، وأضناها الأسى ، فلم يأسُ جراح كبدها ولم يطفىء لهيب حشاها إلاّ بيتان من الشعر جاشت بهما نفسها ، فزفر بهما صدرها ، فجرى بهما لسانها ، ففاضت لهما عيناها ، فسكنت الى حنين الصوت ، واشتفت بنشيج البكاء .

لعلّ انسكاب الدمع يعقب راحة   من الوجد أو يشفى نجىّ البلابل

ولئن وقف أبو طالب بن عبد المطلب فناح على أبيه بقصيدة بارعة رائعة ، لقد وقف الى جنبه أخواته الست : صفية ، وبرة ، وعاتكة ، وأم حكيم ، وأميمة وأروى ، فانحسرن عن ست قصائد ، هنّ صبيب المهج ، وذوب القلوب .

وان تبغ المَزِيد من القول ، والفُسْحة فى المقارنة ، فدونك فاسمع هذا الحديث :
أبو نواس الحسن بن هانىء شاعر الدولة العباسية . وشعره ثمرة نَعْمائها ، ومرآة

(١) وسيمر بك حديث ذلك

حضارتها ، وصفحة أهوائها . ذلك الشاعر المُغْدِق الفيَّاض ، هو الذى يقول :
أجهَدْتُ نفسى على أن تقع فى الشعر « عين أُباغ » فامتنعت علىَّ فقلت عيْنَىْ أباغ فذلك حيث أقول[1]

فما نجدت بالماء حتى رأيتها   مع الشمس فى عينى أباغ تغور

ذلك قول الشاعر الذى فاق المُحْدَثين نفاذاً فى القول ، ودقة فى الوصف . فاذا وعيته ، وملأت بصرك منه ، فانظر الى قول امرأة من بنى شيبان[2] :

وقالوا شاعراً منكم قتلنا   كذاك الرمحُ يَكلَفُ بالكريم
« بعين أُباغ » قاسمنا المنايا   فكان قسيمها خير القسيم

ألسنا نرى الكلمة التى تأبَّت على شاعر المهدى والرشيد والأمين ، سيقت الى امرأة من غمار نساء العرب ريقةً رَيّضَة ؟ .

وما عجب ذلك ؟ ! ألم تدفن المرأة فى عين أباغ غصون روضتها ، وليوث غابها ؟ فما لها لا تلين لها ، وتسكن اليها ؟ .

ذلك شأن المرأة العربية فى الشعر . وغلبتها فيه على الرجل ، كغلبة عاطفتها على عاطفته . وأى الرجال يملك أن ينوح على زوجه بمثل ما ناحت به جليلة بنت مرة على زوجها ؟ أوليس ذلك لأنه لا يملك قلباً كقلبها ؟ ولا يشعر بالنار تضطرم بين جوانحه كما تضطرم بين جوانحها ؟ .

أمَا لقد تألقت المرأة العربية فى سماء الشعر ، فنفذ سناها الى أعطاف الصدور ، فانحسرت ظَلماؤها ، وتفرجت ضوائقها . على حين ترك غيرها من نساء الأمم المختلفة — فى متباين أَطوارهن ومنشعب ديارهن — أَمكنتهن خالية مظلمة يرتَدُّ عنها الطرف خاسئاً وهو حسير .

---

(١) معجم ياقوت ج ٦ ص ٢٥١   (١) لسان العرب ج ١٠ ص ٢٩٩

وعجيبٌ كل العجب أن تنازع المرأة الرجل فى زماننا هذا أمر معقولاته ومجهوداته ، وتدعه يختص نفسه بالشعر ، وهو ثمرة نفسها ، ونسج يدها . ولو شاءت لكان لها فضل الزعامة ، وشرف الإمامة .

ونحن أولاء بمعونة الله وتوفيقه نجمع لك من نثار نساء العرب نظامهن ما لعل نفسك تزهو به وتسكن اليه .

اثارة من قولها

مأثور من المنثور

١ — بين امرأتين

وافت جمعة وهند ابنتا الخسّ [١] سوق عكاظ ، فاجتمعتا بين يدى القَلَمَّس [٢] الكنانى . فقال لهما : انى سائلكما لأعلم أيكما أبسطُ لسانا ، وأظهرُ بيانا ، وأحسنُ للصفةِ اتقانا . قالتا سلنا عما بدا لك . فستجد عندنا عقولاً زكية ، وألسنة قوية ، وصفة جلية . قال القَلَمَّس : أىُّ ذكور الخيل أحبُّ اليك ياجمعة ؟ قالت : أُحِبُّ المنسوب جَدُّه [٣] ، الأسيل خَدُّه [٤] ، السريع شَدُّه [٥] ، الطويل مَدُّه [٦] ، الشديدَ هَدُّه [٧] ، الجميلَ قَدُّه . قال القلمّس : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : هذا فرس خَلِيق ان طُلب لم يُلْحَق ، وان جورى لم يُسْبَق ، وان بوهىَ لم يُفَق ، وغيره أحبُّ الىَّ منه . قال : فقولى . قالت : أحبُّ الوثيقَ الخَلْق [٨] ، الكريمَ العِرْق [٩] ، الكثيرَ السَّبْق ، الشديدَ الذَّلْق [١٠] ، يمرُّ من البرق . قال : كلتاكما محسنة . فأىّ إناث الخيل

---

(١) اختلف العلماء والمؤرخون فى نسب هند وجمعة فمن قائل انهما أختان وانهما ابنتا الخس الأيادى ومن قائل ان هندا هى ابنة الخس وأما جمعة فابنه حابس . وهما جميعاً حكيمتان يضرب بهما المثل فى جلال الحكمة وحسن البيان وفيهما يقول الجاحظ : من أهل الدهاء والنكراء ومن أهل اللسن واللقن والجواب العجيب والكلام الصحيح والأمثال السائرة والمخارج العجيبة هند بنت الخس وهى الزرقاء ، وجمعة بنت حابس — البيان والتبيين نسخة خطية ص ٨٨ — ٩٠ والنكراء — على وزن حمراء — الدهاء . واللسن — بفتح اللام والسين — جودة اللسان . واللقن جودة الفهم (٢) القلمس سيد من سادات كنانة وحكيم من حكماء العرب وكاهن من كهانهم ومما عرف عنه أنه كان ينسأ الشهور فيحل حرامها ويحرم حلالها وفيه قالت هند ابنة الخس

اذا الله جازى منعماً بوفائه ... فجازاك عنى ياقلمس بالكرم

(٣) المنسوب جده أى الذى ينتهى نسبه الى جواد كريم . وكانت العرب تحفظ انساب العتاق من خيلها كما تحفظ ذلك فى رجالها (٤) خد أسيل طويل مسترسل (٥) الشد العدو بسكون الدال

(٦) المد بسط الجسم وارتفاعه

(٧) هد الفرس ضربه الارض بحافره (٨) الوثيق الخلق . المحكم التكوين

(٩) العرق الأصل (١٠) ذلق كل شىء حده وحدته

أحبُّ اليك يا جمعة ؟ قالت : أحبُّ كل حيِيّة الفؤاد، سَبُوحٍ[1] جَوَاد، سَلِسَة القياد، شديدة الاعتماد، فى الدَّفع والاشتداد، ذات هِبَاب وثماد[2]. قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : هذه فرس صاحبها خليق ألا يفوته أمر، ولا يَهُوله ذُعْر، اذا شاء كَرّ، واذا هاب فَرّ، وغيرها أحبُّ الىَّ منها. قال : فقولى. قالت : أحبُّ الشديدَ أسْرُها[3]، البعيدَ صبرها، القليل فترُها، الجميل قدرها، السريع مَرُّها، المخفوف كَرُّها. قال القلمس : كلتا كما محسنة. فأى ذكور الخيل أبغض اليك يا جمعة ؟ قالت : أبغض كل بليد، وارم الوريد[4]، ذا رِكال شديد[5]، لا ينجيك هاربا، ولا تظفر به طالباً، ولا يسترك شاهداً ولا غائباً. قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : هذا فرس إمساكه بلاء، وعلاجه عناء، وركوبه شقاء، وغيره أبغض الىَّ منه. قال : فقولى. قالت : أبغض السريع البُهْر[6]، البطىء الحصر[7]، السُّكَيت الطَّفْر[8]. قال القلمس : كلتا كما محسنة. فأى النساء أحبُّ اليك يا جمعة ؟ قالت : أحبُّ الغريرة[9] العذراء، الرُّعْبوبة العَيطاء[10]، المكورة اللفاء[11] ذات الجمال والبهاء، والسِّتْر والحياء، البَضّة الرخصة[12] كأنها فضة بيضاء. قال : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : وصفت جارية هى حاجة الفتى، ونُهْية الرِّضا، وغيرها أحبُّ الىَّ منها. قال : فقولى. قالت : أحبُّ كل مشبَعة الخلخال[13]. ذاتِ شَكَلٍ ودلال[14] وظَرْف وبهاءٍ وجمال. قال القلمس : كلتا كما محسنة. فأى النساء أبغض اليك يا جمعة ؟ قالت : أبغض كل سلفع[15] بَذِيّة، جاهلة

---

(١) السبوح من الخيل المسرع فى لطف ولين كأنه يسبح على الماء (٢) الهباب النشاط فى السير والثماد حفر الأرض (٣) الاسر قوة الجسم وأحكام الخلق (٤) الوريد عرق فى العنق (٥) الركل ضربك الفرس برجلك ليعدو (٦) البهر انقطاع النفس (٧) الحصر الانحباس عن السير (٨) السكيت الفرس العاشر من خيل السباق وهو آخر خيل الحلبة (٩) الغريرة الطيبة القلب (١٠) الرعبوبة الفتاة البيضاء الحلوة اللينة الناعمة. والعيطاء الطويلة العنق (١١) المكورة الممتلئة الساقين فى بياض ولين. واللفاء السمينة الطويلة (١٢) البضة اللينة الجسد الناعمة الجلد الممتلئة. والرخصة اللينة الناعمة كذلك (١٣) اشباع الخلخال كناية عن امتلاء الساق (١٤) الشكل الجمع بين الحمرة والبياض (١٥) السلفع من النساء الشديدة الصخب السيئة الخلق

غبيّة، حريصة دنيّة، غير كريمة ولا سَرِيّة[١]، ولا سِتّيرَة ولا حَيِيّة. قال: كيف تسمعين يا هند؟ قالت: وصفت امرأة صاحبها خليق ألا تصلح له حال، ولا ينْعَمَ له بال، ولا يُثْمِرَ له مال، وغيرها أبغض الىّ منها. قال: فقولى. قالت: أبغض المتجرّفة الشوهاء[٢]، المنفوخة الكَبْدَاء[٣]، العِنْفِصُ الوقْصَاء[٤]، الحَمِشَة الزّلّاء[٥]، التى ان وَلَدَت لم تُنجِب، وان زُجِرت لم تعتَتِب، وان تركت طفقت تصخب. قال القلمس: كلتا كما محسنة. فأى الرجال أحبُّ اليك يا جمعة؟ قالت: أحبُّ الحرّ النجيب، السرىّ القريب، السمح الحسيب، الفَطِن الأريب، المِصْقَع الخطيب، الشجاع المَهيب. قال القلمس: كيف تسمعين يا هند؟ قالت: وصفت رجلاً سيداً جواداً ينهض الى الخير صاعداً، ويسرك غائباً وشاهداً، وغيره أحب الىّ منه. قال: فقولى. قالت: أحبُّ الرَّحْبَ الذراع، الطويل الباع، السخىّ النَّفّاع، المنيع الدَّفّاع، الدَّهْمَثِىّ[٦] المطاع، البطل الشجاع، الذى يحل باليَفاع[٧]، ويُهين فى الحمد المتاع. قال: كلتا كما محسنة. فأىّ الرجال أبغض اليك يا جمعه؟ قالت: أبغض السَّآلة اللئيم، البغيض الزنيم[٨]، الأَشْوَه الدَّميم، الظاهر العُصُوم[٩]، الضعيف الحَيْزُوم[١٠]. قال: كيف تسمعين ياهند؟ قالت: ذكرت رجلاً خَطَره[١١] صغير، وخَطْبه يسير، وعيبه كثير، وأنت ببغضه جدير، وغيره أبغض الىّ منه. قال: فقولى. قالت: أبغض الضعيف النُّخاع[١٢]، القصير الباع،

---

(١) السرية الشريفة (٢) المتجرفة الشديدة الهزال (٣) المنفوخة المتسعة البطن. والكبداء المرأة الضخمة الوسط البطيئة المشى (٤) العنفص المرأة البذيئة القليلة الحياء القليلة الجسم الكثيرة الحركة الكثيرة الاختيال والوقصاء القصيرة العنق (٥) الحمشة القليلة اللحم الدقيقة الساق والزلاء الخفيفة الوركين (٦) الدهمثى الكريم (٧) اليفاع المرتفع من الارض وانما يحل الكريم باليفاع حتى يرى السارون ناره فيقبلون اليه (٨) الزنيم الشرير أو الدعى الذى ينتسب الى القوم وليس منهم (٩) العصوم بقايا الخضاب (١٠) الحيزوم الصدر أو وسطه وضعفه كناية عن الحمق وضيق الذراع (١١) الخطر. القدر والمنزلة (١٢) تريد بالضعيف النخاع العاجز الذى يضيق بالهم ولا يطيقه

الأحمق المِضْياع ، الذى لا يُكْرَم ولا يطاع . فقال : أحسنتما وأجملتما ، فبارك الله فيكما ، ووصلهما وحباهما[١]

٢ — أبلغ الكَلِم فى أبلغ الكرم

قالت ماوية امرأة حاتم : —

أصابتنا سَنَةٌ اقشعَرَّت[٢] لها الأرض ، واغبَرَّ أُفق السماء ، وراحت الإبل حُدْباً حَدَابير[٣] ، وضَنَّت المَرَاضع على أولادها فما تَبِضُّ[٤] بقطرة ، وحَلَّقَت ألسِنَة[٥] المال ، وأيقَنا بالهلاك . فوالله إنا لفى ليلة صِنَّبْر[٦] بعيدة ما بين الطرفين ، إذ تضاغى[٧] صبْيَتُنا جوعا ، عبد الله وعدىٌّ وسَفَّانة . فقام حاتم الى الصَّبيين ، وقمت أنا الى الصبية . وأقبل يعلّلنى بالحديث . فعرفت ما يريد ، فتناومت . فلما تَهَوَّرت[٨] النجوم ، اذا شىء قد رفع كِسْرَ البيت[٩] ثم عاد . فقال حاتم : من هذا ، قالت : جارتك فلانة ، أتيتك من عند صبِيْة يتعاوَوْن عُواء الذئاب ، فما وجدتُ معوَّلاً إلا عليك يا أبا عدىّ . فقال أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم ! فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جنَائبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رئالها[١٠] . فقال حاتم الى فرسه فوجأ[١١] لَبَّته بمُدْية فخرّ . ثم كشطه عن جلده ، ودفع المدية الى المرأة ، فقال لها : شأنك ! فاجتمعنا على اللحم نشوى ونأكل . ثم جعل يمشى فى الحىّ يأتيهم بيتاً بيتاً فيقول هُبُّوا أيها القوم ، عليكم بالنار فاجتمعوا . والتفع فى ناحية ينظر الينا .

---

(١) بلاغات النساء ص ٥٨ — ٦٢

(٢) اقشعرت الارض أمحلت (٣) الحدب جمع أحدب وهو ما دخل صدره وخرج ظهره وانما تظهر الابل كذلك إذا اشتد بها الجوع لا محال المراعى . والحدابير جمع حدبار — بكسر الحاء — وهى الناقة الضامرة أو التى دهب سنامها (٤) تبض تسيل (٥) التحليق وجع يصيب الحلق وتلك كناية بديعة عن الفقر والمسغبة تقول أن المال من ابل وخيل ومال انقطع صوته (٦) ليلة صنبر باردة شديدة الريح (٧) تضاغوا تصايحوا (٨) تهورت انحدرت الى المغرب (٩) الكسر الشقة السفلى من الخباء (١٠) الرئال — جمع رأل — أولاد النعام (١١) وجأ طعن

فوالله ان ذاق منه مُزْعة[١] وانه لأحوج اليه منا . فأصبحنا وما على ظهر الارض من الفرس الا عظم وحافر . فأنشأ حاتم يقول :

مهلاً نَوَارِ أقلى اللوم والعذَلا ولا تقولى لشىء فات ما فعلا
ولا تقولى لمال كنت مهلكه مهلا وان كنت أعطى السهل والجبلا
يرى البخيل سبيل المال واحدة ان الجواد يرى فى ماله سبلا[٢]

٣ — امرأة تصف رسول الله

لما فارق رسول الله مكة مهاجراً الى المدينة ، خرج ومعه صاحبه أبو بكر ورائده عبيد الله بن أُرَيقط . فمروا على خيمة أم معبد — وكانت امرأة بَرْزة جَلْدَة تحتبي بِفِناء الكعبة ثم تسقى وتطعم — فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك . وكان القوم مُرْمِلين مُسْنِتين[٣] . فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شاة فى كِسْرِ الخيمة ، فقال : ما هذا يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلَّفها الجهد عن الغنم . قال : هل بها من لبن . قالت : هى أَجْهَدُ من ذلك . قال : أتأذنين لى أن أحلُبها . قالت : بأبى وأمى أنت ، نعم ! ان رأيت بها من حَلَب فاحلبها. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة فمسح ضرعها وسمَّى الله ودعا لها فى شاتها . فتاجَّت[٤] عليه ودرَّت واجترَّت . ودعا باناء يَرْبِضُ[٧] الرَّهْط ، فحلب فيه ثَجًّا حتى غلبه الثُّمال[٦] . ثم سقاها حتى رَوِيَت . وسقى أصحابه حتى رَوُوا . ثم شرب آخرهم . وقال : ساقى القوم آخرهم ، فشربوا جميعاً عَلَلاً بعد نَهَل[٨] . ثم أراضوا[٥] . ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدء حتى ملأ الإناء . ثم غادره عندها وبايعها وارتحلوا

(١) أن نافية بمعنى ما والمزعة القطعة من اللحم (٢) العقد الفريد ج ١ ص ١٠٨ والميدانى ج ١ ص ١٢٣ (٣) أرمل القوم نفد زادهم واسنتوا أصابهم القحط (٤) تتاجت سالت (٥) يربض الرهط يكفيهم أمداً (٦) الثمال — بكسر الثاء — جمع ثمالة — بضمها — ما يعلو اللبن من الرغوة (٧) إذا استقى الانسان مرتين فالأولى النهل والثانية العلل (٨) أراضوا أى شربوا مرة أخرى

عنها . فقلَّ ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً حُيَّلاً عِجافاً[١] هِزَالاً مُخهن قليل[٢] ولا نُقاً[٣] بهن . فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال : من أين هذا يا أم معبد ، والشاة عازبة حِيال ، ولا حَلوبة فى البيت ؟ فقالت : لا والله ، انه مرَّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت . قال : صفيه لى يا أم معبد . فقالت :

رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة ، أبلج[٤] الوجه ، حَسَن الخَلْق ، لم تَعبه ثُجْلَة[٥] ولم تُزْر به صُقْلة[٦] ، وسيما قسيما ، فى عينيه دَعَج[٧] ، وفى أشفاره وَطَف[٨] ، وفى صوته صَحَل[٩] ، وفى عنقه سَطَع[١٠] ، وفى لحيته كثاثة . أحوَر[١١] أكحل ، أزَجّ ، أقرن[١٢] ان صَمَتَ فعليه الوقار ، وان تكلم سماه وعلاه البهاء . فهو أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه من قريب . حُلْوُ المنطق ، فصل ، لا نزرٌ ولا هذر[١٣] ، كأن منطقة خرزات نُظُمٍ يتحدَّرن ، رَبعة ، لا تَشْنَؤه من طول ، ولا تقتحمه العين من قصر . غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قَدًّا . له رفقاء يحُفون به ، ان قال أنصتوا لقوله ، وان أمر تبادروا الى أمره ، محفود محشود[١٤] ، لا عابس ولا مُفَنَّد . صلى الله عليه وسلم .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره بمكة ما ذكر ، ولو كنت وافقته لالتمست صحبته ، ولأفعلن ان وجدت الى ذلك سبيلا .

---

(١) حيلا جمع حائل وهى التى انقطعت عن الحمل وعجاف جمع عجفة — بكسر الجيم — وهى المهزولة
(٢) قلة المخ كناية عن الضعف والهزل (٣) النقا جمع نقاوة — بضم النون — وهى المختار من كل شىء (٤) وجه أبلج وضاء أغر (٥) الثجلة ضخم فى البطن (٦) الصقلة دقة الجسم وشدة نحوله (٧) الدعج شدة سواد العين فى شدة بياضها (٨) الوطف غزارة أشفار العين وطولها
(٩) الصحل شبيه بالبحة فى الصوت لا يكون حاداً (١٠) سطع العنق طوله فى جمال
(١١) أصل الحور أن تسود العين كلها ولا يكون ذلك الا فى البقر والظباء ثم استعير لعين الانسان اذا غلب سوادها على بياضها (١٢) الأقرن المقرون الحاجبين
(١٣) النزر القليل والهذر الذى لا يعبأ به من القول (١٤) المحفود الذى يخدمه أصحابه ويعظمونه ويبادرون الى طاعته والمحشود الذى يحف به من معه

٤ — سناء الرأى وحسن الاستعطاف

وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى طيء فريقاً من جنده يقدمهم علىٌّ عليه السلام ، ففزع عدىٌّ بن حاتم الطائى — وكان من أشد الناس عداء لرسول الله — الى الشام ، فصبّح علىٌّ القوم ، واستاق خيلهم ونَعَمَهم ورجالهم ونساءهم الى رسول الله . فلما عرض عليه الأسرى نهضت من بين القوم سَفَّانة بنت حاتم فقالت :

يا محمد ؛ هلك الوالد ، وغاب الوافد . فان رأيت أن تخلّى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب ! فان أبى كان سيد قومه : يَفُكّ العانى ، ويقتل الجانى ، ويحفظ الجار ويحمى الذمار ، ويُفَرِّج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويحمل الكَلّ[1] ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد فى حاجة فرده خائباً . أنا بنت حاتم الطائى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا جارية ، هذه صفات المؤمنين حقا. لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه . خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق . وقال فيها : ارحموا عزيزاً ذل ، وغنيًّا افتقر ، وعالماً ضاع بين جهال . وامتنَّ عليها رسول الله بقومها فأطلقهم تكريماً لها . فاستأذنته فى الدعاء له . فأذن لها . وقال لأصحابه : اسمعوا وعوا . فقالت : أصاب الله ببرّك مواقعه ، ولا جعل لك الى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلاَّ وجعلك سبباً فى ردها عليه . فلما أطلقها رجعت الى أخيها عدىّ وهو بدُومة الجَنْدَل . فقالت له : يا أخى ائت هذا الرجل قبل أن تَعْلَقك حبائله ، فانى قد رأيت هَدْياً ورأياً سيغلب أهل الغلبة ، ورأيت خصالاً تعجبنى : رأيته يحب الفقير ، ويفكّ الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير . وما رأيت أجود ولا أكرم منه . فان يكن نبيًّا فلِلسابق فضلُه ، وان يكن ملكاً فلن تزال فى عز اليَمَن . فقدم عدى الى رسول الله فأسلم ، وأسلمت سَفانة[2] .

---

(١) الكل العائل واليتيم (٢) الأغانى ج ١٦ ص ٩٣ وانسان العيون ج ٢ ص ٢٨٥

٥ — بين نارين

لما قَتَلَ جساس بن مرة كليب بن ربيعة ، وقفت جليلة بنت مرة فى المناحة
ففة تذيب الصخر — وكانت أخت القـاتل وزوج القتيل — فقال نساء الحى
أخت كليب : أخرجى جليلة عن مأتمك ، فان فى قيامها شماتة وعاراً علينا عند
عرب . فقالت لها : ياهذه ، اخرجى عن مأتمنا ، فأنت أخت واترنا ، وشقيقة
تلنا . فخرجت وهى تجر أعطافها . فلقيها أبوها مُرَّة . فقال لها : ما وراءك
جليلة ؟ فقالت : ثُكل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن
يل . وبين ذلك غَرْس الأحقاد ، وتفتُّت الأكباد . فقال لها : أوَ يكفّ ذلك
كرم الصفح ، وإغلاء الديات ؟ فقالت : أُمنِيَّةُ مخدوع ورب الكعبة ! أَبِالبُدْنِ[1]
ع لك تغلب دم ربها ؟

قالوا :— ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب : رحلة المعتدى ، وفراق
شامت ! ويل غداً لآل مرة ، من الكرَّة بعد الكرَّة ! فبلغ جليلة قولها فقالت :
كيف تشمت الحرة بهتك سِترها ، وترَقُّب وِتْرها . أسعد الله جَدَّ أختى أفلا
لت نَفْرَة الحياء ، وخوف الأعداء ؟ ثم أنشأَت تقول :

يا ابنة الأقوام إن لُمْتِ فلا	تعجلى باللوم حتى تسألى
فاذا أنت تبينت الذى	يوجب اللوم فلومى واعذلى
ان تكن أخت امرئ ٍ لِيمَت على	شَفَقٍ منها عليـه فافعلى
جَلَّ عندى فعل جساس فيا	حسرتى عما انجلى أو ينجلى
لو بعينٍ فُدِيَت عينى سوى	أختها فانفقأت لم أحفل

---

(١) البدن جمع بدنة — بفتح الباء والدال — الناقة أو البقرة تهدى الى مكة ثم اطلقت على كل
ظيم جسيم من الابل والبقر

تحمل العين أذى العين كما ... تحمل الأم أذى ما تَعْتَلى[١]

يا قتيلاً قوض الدهر به ... سقف بيتىّ جميعاً من علِ

هدم البيت الذى استحدثته ... وانثنى فى هدم بيتى الأول

ورمانى قتله من كثب ... رِمْيَةَ المُصْمَى به المستأصَل[٢]

يا نسائى دونكن اليوم قد ... خصنى الدهر برُزْءٍ مُعْضِلِ

خصنى قتل كليب بلَظًى ... من ورائى ولظى مستقبِلِ

ليس من يبكى ليومَيه كمن ... إنمـا يبكى ليوم ينجلى

يشتفى المُدْرِكُ بالثأر وفى ... دَرَكى ثارىَ ثُكْلُ المُثْكِلِ

ليته كان دمى فاحتلبوا ... درراً منه دمى من اكحلى[٣]

فأنا قاتلة مقتـــولة ... ولعل الله أن يرتاح لى

٦ — تداوُل الأيام

لما صدع سعد بن أبى وقاص جيش الفرس بالقادسية ، أتته حُرَقة بنت النعمان بن المنذر فى حفدة من قومها وجواريها — وهن فى زيّها ، عليهن المسوح والمقطعات السود مترهبات — تطلب صِلة . فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد . فقال : أيكن حُرَقة ؟ قالت : هأنذا . قال : أنت حُرَقة ؟ قالت : نعم ، فما تكرارك فى استفهامى ؟ ثم قالت : إن الدنيا دار زوال لا تدوم على أهلها انتقالاً ، وتُعقبهم بعد حال حالا . كنا ملوك هذا المصر ، يجبى لنا خراجه ، ويطيعنا أهله ، مدى الإمرة ، وزمانَ الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى ، صاح بنا صائح الدهر ، فشق عصانا ، وشتت شملنـا . وكذلك الدهر يا سعد ، انه ليس يأتى قوماً بمسرة ، إلا ويعقبهم بحسرة . ثم أنشأت تقول :

---

(١) يقال اعتلت الأم أى نهضت بحملها تقول ان العين تحمل أذى أختها كما تحمل الأم راضية أذى حملها أما هى فما عساها تعمل وقد أصيب عيناها معاً . وروى فى هذا البيت : أذى ما تفتلى واذا ما تعتلى غير ان ما بين يديك أوجه وأمثل (٢) الكثب القرب واصمى الرمية اذا أنفذها (٣) الأكحل عرق فى الذراع اذا نزف لا يرقأ

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا   إذا نحن فيهم سوقة نتنَصَّفُ
فأُفٍّ لدنيـا لا يدوم نعيمها   تَقَلَّبُ تارات بنـا وتَصرف

فقال سعد : قاتل الله عدى بن زيد ! كأنه ينظر إليها حيث يقول :

ان للدهر صولة فاحذرنها   لا تبيتن قد أمنت الدهورا
قد يبيت الفتى معافىً فيَرْدَى   ولقد كان آمناً مسرورا

وحدثوا أن عمرو بن معد يكرب — وكان من قصاد النعمان وزواره — دخل عليها وهى بين يدى سعد ، فلما نظر إليهـا قال : أنت حُرَقة ؟ قالت : نعم . قال : فما دهمك ، فذهب بجودات شِيَمِك ؟ أين تتابع نعمك ، وسطوات نقمك ؟ فقالت : يا عمرو ، ان للدهر عثرات وعبرات تعثر بالملوك وأبنائهم ، فتخفضهم بعد رفعة ، وتُفرِدُهم بعد مَنَعة ، وتذلهم بعد عز . ان هذا الأمر كنا ننتظره ، فلما حل بنا لم ننكره . قالوا : فلما انصرفت من لدن سعد لقيها نساء القادسية ، فقلن لها : ما فعل بك الأمير ؟ قالت : أكرم وجهى ، وإنما يكرم الكريمَ الكريم(١) .

٧ — صفات فى فقرات

لمـا قتل الحارث بن ظالم المُرِّىّ ، خالد بن جعفر العامرىّ ، لحق بحاجب بن زرارة التميمى يعتصم به من بنى عامر . فاتبعه رجال منهم . حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، عثروا بامرأة تميمية تجنى الكمأة ، فتعرفوا منهـا أمر الحارث ومكانه من حاجب . ثم احتجزوها عندهم . فترقبت حتى أنست غِرَّة من القوم فأفلتت . وانطلقت تعدو إلى حاجب . فاخذت تحدثه حديث القوم . فقال لها : أخبريني أى قوم أخذوك ؟ قالت : أخذنى قوم يقبلون بوجوه الظبـاء ، ويدبرون بأعجاز النساء . قال : أولئك بنو عامر . قال : فحدثينى مَن فى القوم ؟ قالت : رأيتهم

(١) خزانة الأدب ج ٣ ص ١٨١ — ١٨٢

يغدون على شيخ كبير لا ينظر بماقَيْـه حتى يرفعوا له من حاجبيه . قال : ذل
الأحوص بن جعفر . قالت : ورأيت شابًّا شديد الْخَلْق ، كأن شعر ساعد
حَلَق الدِّرْع ، يَعْذِم[١] القوم بلسانه عذم الفرس العضوض . قال : ذلك عُ
ابن بشير بن خالد . قالت : ورأيت كهلاً إذا أقبل ومعه فَتَيان يُشْرف القوم الي
فإذا نطق أنصتوا . قال : ذلك عمر بن خويلد ، والفتيان ابناه زُرْعة ويزيد
قالت : ورأيت شاباً طويلاً حسناً إذا تكلم بكلمة أنصتوا لها . ثم يَؤُلون[٢] ا
كما تؤل الشَّول[٣] إلى فحلها . قال : ذلك عامر بن مالك . قالوا : وجاء الق
فكانوا كما قالت وقال[٤] .

٨ — نساء يَصِفْن رجالا

حدث أبو بكر بن دريد قال : كان قَيل[٥] من أقيال حِمْير مُنع الولدَ دهر
ثم وُلدت له بنت . فبنى لها قصراً منيعاً بعيداً عن الناس . ووكل بها نساء م
بنات الأقيال يَخْدُمنها ويؤدبنها ، حتى بلغت مبلغ النساء ، فنشأت أحسن من
وأتمّه فى عقلها وكمالها . فلما مات أبوها ملّكها أهلُ مِخْلافها[٦] . فاصطنع
النسوة اللاتى ربَّيْنَها وأحسنت إليهن . وكانت تشاورهن ، ولا تقطع أمراً دونهن
فقلن لها يوماً : يا بنت الكرام ، لو تزوّجت لَتَمَّ لك الملك ! فقالت : وما الزوج
فأخذت كل واحدة تصف العذب الهنىّ من صفات زوجها . فقالت : أمهل
أنظرْ فيما قلتنّ . فاحتجبت عنهن سبعاً . ثم دعتهن . فقالت : قد نظرت
قلتن فوجدتنى أُمَلِّكه رِقِّى ، وأبثه باطلى وحقى . فإن كان محمود الخلائق ، مأمو
البوائق ، فقد أدركت بغْيتى ، وإن كان غير ذلك فقد طالت شِقْوَتى . على

(١) العذم عض الفرس وهى استعارته لحدة اللسان (٢) أل فى مشيه أسرع
(٣) الشول جمع شائلة وهى ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر (٤) الأغانى ج
ص ١٨ (٥) القيل الملك من ملوك حمير (٦) المخلاف الكورة أو الأقاليم وهو لليمن خاص

لا ينبغى إلا أن يكون كفؤاً كريماً ، يسود عشيرته ، ويَرُبُّ[١] فصيلته، لا أتقنع به عاراً فى حياتى ، ولا أرفع به شَنَارًا لقومى بعد وفاتى . فمَلَيكُنَّه فابْغِينَه ، وتفرقن فى الأحياء ، فأيتكن أتتنى بما أحب فلها أجزل الحِباء ، وعلىّ لها الوفاء . فخرجن فيما وجَّهتهن له — وكُنَّ بناتِ مَقاول ذوات عقل ورأى — فجاءتها احداهن — وهى عمَرَّطة بنت زُرعة بن ذى خَنْفَر — فقالت : قد أصبت البُغية . فقالت : صفيه ، ولا تُسَمِّيه . فقالت : غيث فى المَحْلِ[٢] ، ثِمال فى الأَزْلِ[٣] ، مفيد مبيد ، يصلح النائر ، وينعش العاثر ، ويَغْمُرُ الندىّ ، ويقتاد الأبىّ ، عِرْضه وافر ، وحَسَبُه باهر . غَضُّ الشباب ، طاهر الأثواب . قالت : ومن هو ؟ قالت : سَبرةُ بن عَوَّال بن شداد بن الهمَّال . ثم خلت بالثانية . فقالت : أصبتِ من بغيتك شيئاً ؟ قالت : نعم . قالت : صفيه ، ولاتسميه . قالت : مُصَامِص[٤] النسب ، كريم الحسب ، كامل الأدب ، غزير العطايا ، مألوف السجايا ، مُقْتَبَلُ الشباب ، خصيب الجناب . أمره ماض ، وعشيره راض . قالت : ومن هو ؟ قالت : يَعْلَى بن هَزَّال بن ذى جَدَن . ثم خلت بالثالثة . فقالت : ما عندكِ ؟ قالت : وجدته كثير الفوائد ، عظيم المرافد[٥] يعطى قبل السؤال ، وينيل قبل أن يستنال . فى العشيرة معظَّم ، وفى الندىّ مكرم . جَمُّ الفواضل ، كثير النوافل[٦] ، بذَّالُ أموال ، محقق آمال ، كريم أعمام وأخوال . قالت : ومن هو ؟ قالت : رَوَاحَة بن حُمَيْر بن مضحى بن ذى هُلاَهِلة . فاختارت يعلى بن هَزَّال فتزوجتَه . فاحتجبت عن نسائها شهراً . ثم برزت لهن فأجزلت لهن الحباء . وأعظمت لهن العطاء[٧] .

---

(١) يرب فصيلته يحفظها ويرعاها ويربيها (٢) المحل الجدب والقحط (٣) الثمال الغياث والأزل الضيق والشدة . (٤) المصامص الخالص من كل شىء وهو مصامص فى قومه اذا كان زاكى الحسب خالصاً فيهم (٥) المرافد جمع مرفد — بفتح الميم وضمها — المعونة (٦) النوافل — جمع نافلة — ما زيد على العطاء (٧) امالى القالى ج ١ ص ٨٠ — ٨٢

٩ — مجاذبة الثناء

وصفت أعرابية زوجها بكرم الأخلاق عند أمها فقالت : يا أُمَّه ! منْ نشر ثوب الثناء ، فقد أدى واجب الجزاء . وفى كتمان الشكر جحود لما وجب من الحق ودخول فى كفر النعم . فقالت لها أمها : أى بنية أطبت الثناء ، وقمت بالجزاء . ولم تدعى للذم موضعاً . إنى وجدت مَنْ عَقَل لم يعجل بذم ولا ثناء إلا بعد اختبار . فقالت : يا أُمه ، ما مدحت حتى اختبرت ، ولا وصفت حتى عرفت . قال الزوج : ما وفيتك حقك ، ولا شكرتك إلا بفضلك ، ولا أثنيت إلا بطيب حسبك ، وكريم نسبك . والله أسأل أن يمتعنى بما وهب لى منك(١) .

١٠ — الكَلِم القِصار

قيل لهند ابنة الُخْسّ : ما مائة من المعز؟ قالت : مُوَيلٌ يشِفّ الفقر من ورائه : مال الضعيف ، وحرفة العاجز . قيل : فما مائة من الضأن ؟ قالت : قرية لا حِمَى لها . قيل : فما مائة من الإبل ؟ قالت بَخٍ بَخٍ ! جَمال ومال . قيل : فما مائة من الخيل ؟ قالت : طغى من كانت له ولا يوجد . قيل : فما مائة من الُحمُر ؟ قالت عازبة الليل ، وخزى المجلس . لا لبن فيحلب ، ولا صوف فيُجزّ .

وقيل لها : مَن أعظم الناس فى عينيك ؟ قالت : من كانت لى اليه حاجة .

وقيل لها : الصيف خير أم الشتاء ؟ فقالت : من جعل بؤساً كأذى(٢) .

---

(١) أمالى القالى ج ١ ص ٢٢٥ وبلاغات النساء ص ٨٧ والبيان والتبين نسخة خطية ص ٩٠

(٢) أمالى المرتضى ج ١ ص ١٥١

أمثـال(١)

أرسلها النساء فتمثل بها الرجال

﴿ أَغَيْرَةً وَجُبْناً ! ﴾

قالته امرأة من العرب تعير به زوجها . وكان تخاف عن لقاء العدوّ واعتكف فى منزله . ثم بَصُرَ بها تنظر الى قتال الناس فضربها . فقالت : أَغَيْرَةً وَجُبْناً ؟ !

﴿ بَيْتِي يَبْخَلُ لاَ أَنا ﴾

قالته امرأة سُئلت ما ليس فى بيتها . فلما عَزَّ عليها عطاؤه قيل لها : أتبخلين ؟ فقالت : بيتى يبخل لا أنا .

﴿ تَرَى ٱلْفِتْيَانَ كَٱلنَّخْل وَمَا يُدْرِيكَ مَا ٱلدَّخْل ﴾

يضرب لذى المَنْظَرِ لا خير فيه .

قال المُفَضَّل : أول من قال ذلك عَثْمَة بنت مطرود البُجَلية . وكانت ذات عقل ورأى مسموع فى قومها . وكانت لها أخت يقال لها خَوْد وُسمت بالجمال ، وكرم الخلال ، وأن سبعة أخوة من الازد خطبوا خَوْداً الى أبيها . فأتوه وعليهم الحُلَل اليمانيـة ، وتحتهم النجائب الفُرْه(٢) . فقالوا : نحن بنو مالك بن عُفَيلة ذى النِّحْيين . فقال لهم : انزلوا على الماء . فنزلوا ليلتهم . ثم أصبحوا غادين فى الحُلَل ومعهم رِبيبة لهم كاهنة يقال لها الشَّعْثاء . فمروا بوصيدها(٣) ، وكلهم وسيم جميل ،

(١) كل ما أتيت به من الأمثال مرجعه الى كتب الأمثال للميدانى والضبى وأبى هلال

(٢) نجيب فاره وجواد فاره اذا كان كريماً لا عيب فيه

(٣) الوصيد الفناء ومرجع الضمير فى وصيدها الى (خود)

وخرج أبوها فجلسوا اليه ، فرحب بهم . فقالوا : بلغنا أن لك بنتاً ، ونحن كما ترى شباب . وكلنا يمنع الجانب ، ويمنح الراغب . فقال أبوها : كلكم خيار . فأقيموا نر رأينا . ثم دخل على ابنته فقال : ما ترين ؟ فقد أتاك هؤلاء القوم ، فقالت : زوجني على قدري ، ولا تَشْطُط في مهري . فان تخطئني أحلامهم . لا تخطئني أجسامهم . لعلي أصيب ولداً ، وا كثِرُ عدداً . فخرج أبوها فقال : أخبروني عن أفضلكم . قالت ربيبتهم الشعثاء : اسمع أخبرك عنهم : هم اخوة ، وكلهم أسوة . أما الكبير فمالك ، جرىء فاتك ، يُتْعب السنابك[1] ، ويستصغر المهالك . وأما الذي يليه فالغَمْر ، بحر غمر[2] ، يقصر دونه الفخر ، نَهْدٌ[3] صَقْر . وأما الذي يليه فعلقمة ، صُلْبُ المَعْجَمة ، منيع المشتمة ، قليل الجَمْجَمة[4] . وأما الذي يليه فعاصم ، سيد ناعم ، جَلْدٌ صارم ، أبيٌّ حازم ، جيشه غانم . وجاره سالم . وأما الذي يليه فثُؤَاب ، سريع الجواب ، عتيد الصواب ، كريم النصاب ، كليث الغاب . وأما الذي يليه فمُدْرِك ، بَذُول لما يملك ، عزوب مما يترك ، يفني ويهلك . وأما الذي يليه فَجَنْدَل ، لِقِرنه مُجَدِل ، مقل لما يحمل ، يعطي ويبذل ، وعن عدوه لا يَنكِل . فشاورت أختها فيهم . فقالت أختها عَثْمة : ترى الفتيان كالنخل ، وما يدريك ما الدخل . اسمعي مني كلمة : أن شر الغريبة يعلَن ، وخيرها يدفن ، تزوجي في قومك ، ولا تغررك الأجسام . فلم تقبل منها . وبعثت الى أبيها : زوجني مدركا . فتم ذلك على مائة ناقة ورعاتها . وحملها مدرك . فلم تلبث عنده إلا قليلاً حتى صَبَّحَهم فوارس من بني مالك بن كنانة . فاقتتلوا ساعة . ثم انكشف عنها زوجها واخوته وعشيرته . فسبيت فيمن سبين من النساء . فبينا هي تسير بكت . فقالوا : ما يبكيك ؟ أعلى فراق زوجك ؟ قالت : قبح الله جمالاً لا نفع معه . انما أبكي على عصياني أختي في

---

(١) السنابك — جمع سنبك كقنفذ — أطراف حوافر الخيل تصفه بالشجاعة ومعاناة الحروب
(٢) الغمر الماء الكثير ومعظم البحر (٣) النهد الأسد (٤) صلب المعجمة عزيز النفس ومنيع المشتمة لا يجرأ أحد أن يشتمه لأنه لا عيب فيه والجمجمة ألا يبين كلام الرجل

قولها : ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل ! وأخبرتهم كيف خطبوها .
فقال لها رجل منهم يكنى أبا نُوَاس — شاب أسود أفوه مضطرب الْخَلْق — :
أترضين بي على أن أمنعك من ذئاب العرب ؟ فقالت لأصحابه : أكذلك هو ؟
قالوا : نعم ، إنه مع ما ترين لَيمنع الحليلة ، وتتقيه القبيلة . قالت : هذا أجمل جمال ،
وأكمل كمال . قد رضيت به . فزوجوها منه .

﴿ لاَ تأْمَنِي ٱلْأَحْمَقَ وَفِي يَدِهِ سِكِّينٌ ﴾

قالته امرأة من بني كنانة .

﴿ رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَٱنْسَلَّتْ ﴾

يضرب لمن يرمي الناس بعيبه .

قالته امرأة لضرتها . وكانت الضرة تشتم النساء بعيب هو فيها . فلما بادأتها به
قالت لِمَن حولها من النساء : رمتني بدائها وانسلّت .

﴿ صَارَتِ ٱلْفِتْيَانُ حُمَماً [1] ﴾

من قول الحمراء بنت ضَمْرَة بن جابر .

وذلك ان بني تميم قتلوا سعد بن هند ، أخا عمرو بن هند الملك . فنذر عمرو
لَيقْتُلن بأخيه مائة من بني تميم . فجمع أهل مملكته ، فسار اليهم . فبلغهم الخبر
فتفرقوا في نواحي بلادهم . فأتى دارهم فلم يجد إلا عجوزاً كبيرة — وهي الحمراء
بنت ضمرة . فلما نظر اليها والى حُمْرَتِها قال لها : انى لأحسبك أعجمية ! فقالت :
لا والذي أسأله أن يَخفض جناحك ، ويَهُدَّ عمادك ، ويضع وسادك ، ويسلبك
بلادك ، ما أنا بأعجمية . قال : فمن أَنت ؟ قالت : أنا بنت ضمرة بن جابر ،

(١) الحمم الفحم

ساد مَعَدًّا كابراً عن كابر ، وأنا أُخت ضمرة بن ضمرة . قال : فمن زوجك ؟ قالت : هَوْذَة بن جَرْوَل . قال : وأين هو الآن ؟ أما تعرفين مكانه ؟ قالت : هذه كلمة أحمق ، لو كنت أعلم مكانه حال بيني وبينك ! قال : وأى رجل هو ؟ قالت : هذه أحمق من الأولى ، أعن هوذة يُسْأل ؟ هو والله طيب العِرق ، سمين العَرَق[1] ، لا ينام ليلة يُخاف ، ولا يشبع ليلة يُضاف ، يأكل ما وجد ، ولا يسأل عما فقد . فقال عمرو : أما والله لولا انى أخاف أن تلدى مثل أبيك وأخيك وزوجك لاستبقيتك . فقالت : وأنت والله لا تقتل الا نساء أعاليها ثُدِىّ ، وأسافلها دُمِىّ[2] . والله ما أدركتَ ثارا ، ولا محوت عارا ، وما مَنْ فَعلتَ به هذه بغافل عنك . ومع اليوم غد . فأمر باحراقها . فلما نظرت الى النار قالت : أَلَا فتى مكانَ عجوز ؟ ! فذهبت مثلاً . ثم مكثت ساعة فلم يَفْدِها أحد . فقالت : هيهات ! صارت الفتيان حُمَماً . فذهبت مثلاً . ثم ألقيت فى النار . ولبث عمرو عامة يومه لا يقدر على أحد . حتى اذا كان فى آخر النهار أقبل راكب يسمى عماراً ، تُوضِعُ به راحلته . حتى أَناخ اليه . فقال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا رجل من البَرَاجم . قال : فما جاء بك الينا ؟ قال : سَطْعِ الدخان ، وكنت طويتُ منذ أيام فظننته طعاماً . فقال عمرو : ان الشقىَّ وافِدُ البراجم . فذهبت مثلاً . وأمر به فأُلقىَ فى النار . فقال بعضهم : ما بلغنا أنه أصاب من بنى تميم غيره ، وانما أحرق النساء والصبيان .

﴿ لَا تَعْدَمُ الْحَسْنَاءُ ذَاماً[3] ﴾

قالته حُبَّى بنت مالك العَدْوَانية

﴿ لَا عِتَابَ عَلَى الْجَنْدَلِ ﴾

(١) العرق بفتح العين — العظم الملبس باللحم (٢) الدمى جمع دم (٣) الذام العيب

يضرب فى الأمر اذا وقع لا مرد له

وأصله ما حدثوا أن إحدى ملكات سبأ ، وفد اليها قوم يخطبونها . فقالت : لِيَصِف كل رجل منكم نفسه ولْيَصْدق وليوجز . لأتقدَّم ان تقدمت ، أو أَدَع ان تركت على علم . فتكلم رجل منهم يقال له مدرك فقال : ان أبى كان فى العز الباذخ ، والحسب الشامخ . وأنا شَرِس الخليقة ، غير رِعْدِيد عنـد الحقيقة (١) . قالت : لا عتاب على الجندل . فأرسلتها مثلاً ، ثم تكلم آخر منهم يقال له ضَبيس ابن شَرِس ، فقال : أنا فى مال أثيث ، وخُلُق غير خبيث ، وحسب غير غَثيث ، أحذو الفعل بالفعل ، وأجزى القرض بالفرض (٢) . فقالت : لا يَسُرُّك غائباً ، مَنْ لا يَسُرُّك شاهداً . فأرسلتها مثلاً . ثم تكلم آخر منهم يقال له شَمَّاس بن عباس . فقال : أنا شماس بن عباس ، معروف بالندى والباس . حَسَن الْخُلُق فى سجية ، والعدل فى قضية . مالى غير محظور على القُلّ والكُثر ، وبالى (٣) غير محجوب على العسر واليسر . قالت : الخيْرُ مُتَّبَعٌ ، والشَرُّ محْذُور . فأرسلتها مثلاً . ثم قالت : اسمع يا مدرك ، وأنت يا ضبيس : لن يستقيم معكما معاشرة لعشير حتى يكون فيكما لين العريكة . وأما أنت يا شماس فقد حللت منى محل الأهزع (٤) من الكنانة ، والواسطة من القلادة ، لدماثة خلقك ، وكرم طباعك . ثم اسْعَ بِخيْرٍ أَوْ دَعْ . فأرسلتها مثلاً وتزوجت شَمَّاساً .

﴿ تَرْكُ الْخِدَاعِ مَنْ كَشَفَ الْقِنَاعَ ﴾

قالته امرأة من كندة يقال لها عصام .

وأصله ما رووا أن الحارث بن عمرو ملك كندة ، لما بلغه جمال خُمَاعة ابنة

---

(١) الرعديد الجبان المستطار القلب والحقيقة ما يحق على المرء أن يحميه وقد يريدون بها اللواء

(٢) القرض القطع والفرض الحز يريد أنه لا يصبر على ضيم بل يجزى الشر بأشد منه

(٣) البال رخاء العيش (٤) الأهزع خير السهام وأفضلها تدخره لشديدة

عوف بن مُحَلِّم الشيبانى وكمالهـا ، وقوة عقلها ، دعا عصام — وكانت امرأة ذات عقل ولسان ، وأدب و بيان — وقال لها : اذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف . فذهبت . وأبصرت من جمال الفتاة ، وروعة أدبها ، وكمال شمائلها ، ما ملك عليها بصرها وسمعها وقلبها . فخرجت وهى تقول : تَرَكَ الخداع من كشف القناع ثم انطلقت الى الحارث ، فلما رآها مقبلة قال لها : ما وراءك يا عصام ؟ قالت : صَرَّح المَحْضُ عن الزُّبدُ[1] . فسار كلتا الجملتين مثلاً . ثم حدثته حديثها ، ووصفتها له أبدع وصف وأبينه وأتقنه ، فأرسل الملك الى أبيها فخطبها فزوجها إياه . وقد أسلفنا حديث خِطبتها ، ووصية أمها لها .

﴿ كُلُّ فَتَاةٍ بأَبيهَا مُعْجَبَةٌ ﴾

يضرب فى عجب الرجل برهطه وعشيرته .

وأول من قال ذلك العَجْفَاء بنت علقمة السعدى ، وذلك أنها وثلاث نسوة من قومها خرجن فاتّعدن بروضة يتحدثن فيها . فوافين بها ليلاً فى قمر زاهر ، وليلة طلقة ساكنة ، وروضة مُعْشِبة خصبة . فلما جلسن قلن : ما رأينا كالليلة ليلة ، ولا كهذه الروضة روضة ، أطيبَ ريحاً ، ولا أنضر ، ثم أَفضن فى الحديث فقلن : أى النساء أَفضل ؟ قالت إحداهن : الخَرُود[2] ، الودود ، الولود . قالت الأخرى : خيرهن ذات الغَنَاء ، وطيب الثناء ، وشدة الحياء . قالت الثالثة : خيرهن السموع الجموع ، النفوع غير المنوع . قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها ، الوادعة ، الرافعة لا الواضعة . قلن ؛ فأى الرجال أفضل ؟ قالت احداهن خيرهم الحَظِىُّ الرضىُّ ، غير الخطّال ، ولا التّبال[3] . قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ، ذو الحسب

(١) المحض اللبن الخالص والزبد رغوة اللبن يضرب المثل للصدق بعد الخبر
(٢) الخرود الحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت الخفرة المستترة
(٣) الخطال المقتر الذى يحاسب أهله بما ينفق عليهم والتبال الشديد العداوة الكثير الترات

العميم ، والمجد القديم ، قالت الثالثة : خيرهم السخيّ الوفيّ ، الرضيّ ، الذى لا يُغير الحرة ، ولا يتخذ الضرة . قالت الرابعة : وأبيكن ، أن فى أبى لنعتكن ، كرم الأخلاق ، والصدق عند التلاق . والفَلْج[1] عند السباق ، ويحمده أهل الرفاق ، قالت العجفاء عند ذلك : كلُّ فَتَاة بأبيها مُعْجَبة .

وفى بعض الروايات أن إحداهن قالت : إن أبى يكرم الجار ، ويعظم النار ، وينحر العشار ، بعد الحوار ، ويحمل الأمور الكبار . فقالت الثانية : إن أبى عظيم الخطَر ، منيع الوَزَر ، عظيم النفَر ، يحمد منه الورْد والصَّدَر[2] . فقالت الثالثة : إن أبى صدوق اللسان ، كثير الأعوان ، يروى السنان ، عند الطعان . قالت الرابعة : إن أبى كريم النزال ، منيف المقال ، كثير النوال ، قليل السؤال ، كريم الفعال . ثم تنافرن الى كاهنة معهن فى الحى فقلن لها : اسمعى ما قلنا ، واحكمى بيننا واعدلى . ثم أعدن عليها قولهن . فقالت لهن : كل واحدة منكن ماردة[3] ، على الإحسان جاهدة ، لصواحباتها حاسدة . ولكن اسمعن قولى : خير النساء المبقية على بعلها ، الصابرة على الضراء مخافة أن ترجع الى أهلها مطلقة . فهى تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها . فتلك الكريمة الكاملة . وخير الرجال الجواد البطل ، القليل الفشل ، إذا سأله الرجل ألفاه قليل العلل ، كثير النفَل[4] . ثم قالت : كل واحدة منكن بأبيها معجبة .

• ﴿ لَوْ تُرِكَ الْقَطَا لَيْلاً لَنَام ﴾

يضرب لمن حُمِلَ على مكروه من غير إرادته .

وأول من قاله حَذَامِ بنت الريان . وذلك إن عاطس بن خِلَاج سار الى أبيها

---

(١) الفلج الفوز والسبق (٢) الورد الاشراف على الماء والصدر العودة من الاستقاء

(٣) الماردة العاتية (٤) النفل العطية

فى حِمْير وخَثْعَم وجُعْفِىّ وهَمْدَان . ولقيهم الرَّيان فى أربعة عشر حيا من أَحياء اليمن ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم تحاجزوا . وإن الريان خرج تحت ليلته هو وأصحابه هُرَّاباً ، فساروا يومهم وليلتهم ، ثم عسكروا . فأصبح عاطس فغدا لقتالهم فاذا الأرض منهم بلاقع ، فجرد خيله ، وحثّ فى الطلب ، فانتهوا الى عسكر الريان ليلاً ، فلما كانوا قريباً منه ، أثاروا القطا ، فمرت بأصحاب الريان ، فخرجت حذام بنت الريان الى قومها فقالت :

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا   فلو ترك القطا ليلاً لناما

أى إن القطا لو ترك ما طار هذه الساعة ، وقد أتاكم القوم . فلم يلتفتوا الى قولها ، وأخلدوا الى المضاجع لما نالهم من التعب . فقام دَيْسَم بن طارق وقال بصوت عال :

إذا قالت حَذَامِ فصدقوها   فان القول ما قالت حَذَامِ

وثار القوم ، فلجئوا الى واد قريب منهم ، فانحازوا به حتى أصبحوا ، وامتنعوا منهم

﴿ مَرْعًى وَلَا كَالسَّعْدَانِ ﴾

يضرب للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله .

وأول من قال ذلك الخنساء بنت عمرو بن الشريد . وذلك أنها أقبلت من الموسم — فى عكاظ — فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن ربيعة . ففَرَّجت عليها وهى تنشدهم مراثى فى أهل بيتها . فلما دنت منها قالت : على مَنْ تبكين ؟ قالت : أبكى سادة مضوا . قالت : أنشدينى بعض ما قلت ، فأنشدت هند أبياتاً أسلفناها . فقالت الخنساء مرعًى ولا كالسَّعدان .

﴿ مَاءٌ وَلَا كَصَدَّاء ﴾

يضرب للرجلين لهما فضل ولكن أحدهما أفضل .

والمثل لقَذُورَ بنت قيس بن خالد ذى الجدين الشيبانى . وكان من حديثها أن زُرَارة بن عُدُس رأى ابنه لقيطاً يختال ، فقال له : كأنك أصبت ابنة قيس بن خالد ومائة من هجان المنذر بن ماء السماء ! فحلف لقيط لا يَمسّ الطيب ، ولا يشرب الخمر ، حتى يصيب ذلك . فسار حتى أتى قيس بن خالد — وهو سيد ربيعة — وكانت عليه يمين لا يخطب انسان اليه علانية إلا أصابه بسوء . فخطب اليه لقيط فى مجلسه ، وقال : عرفت أنى أن أُعالنك لم أشِنك ، وان أُناجك لم أخدعك ، فزوجه بنته القذور ، وساق المهر عنه وهداها اليه من ليلته ، فاحتمل بها الى المنذر ، فأخبره بما قال أبوه . فأعطاه مائة من هجانه ، فرحل الى أهله . فقالت : أَلْقَى أبى وأودعه . فلما جاءته قال لها : يا بنية ، كونى له أمة يكن لك عبداً ، وليكن أطيب طيبك الماء . إنه فارس مُضَر ، ويوشك أن يقتل . فان كان ذلك فلا تخمشى لك وجهاً ، ولا تحلقى شعراً ، فقتل لقيط ، فاحتملت إلى قومها ، فتزوجها بعده رجل منهم فجعلت تكثر ذكر لقيط ، فقال لها : وأىّ شىء رأيت منه كان أحسن فى عينك ؟ قالت كل أموره حَسَن . ولكنى أحدثك أنه خرج إلى الصيد فى يوم دَجْن[1] وقد تطيب وشرب ، فرجع إلىّ ولقميصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من أطرافه . . . فسكت عنها . حتى إذا كان يوم دجن شرب ، وتطيب ، وركب ، وصرع من الصيد ، وأتى وبه نضح من الدم والطيب . فقال لها : كيف تَرَيْنى ؟ أنا أحسن أم لقيط ؟ فقالت : ماءٌ ولا كصدَّاء

---

(١) الدجن المطر الكثير

عيون من الشعر

﴿ فى الحَنين الى الوطَن ﴾

١ — قالت أم موسى بنت سِبْدَرَة الـكِلاَبية — وكانت تزوجت فنُقِلت الى حُجْر[١] —:

قد كنت أكره حُجْراً أن أموت بها — وأن أعيش بأرض ذات حيطان
يا حبذا الغُرَق[٢] الأعلى وساكنه — وما تضمن من ماء وعيـدان
أبيت أرقب نجم الليل قاعدة — حتى الصباح وعند الباب عجلان[٣]
لولا مخافة ربى أن يعاجلنى — لقد دعوت على الشيخ ابن حَيَّان[٤]

٢ — جلست امرأة ضبية تسمى زينب أم حسانة، على بركة فى روضة بين الرياحين والأزهار، فى ألطف وقت وأبهجه — وكانت قد احتملت من البادية الى الحضر — فقيل لها: كيف حالك هنا؟ أليس هذا أطيب مما كنت فيه بالبادية؟ فأطرقت ساعة، ثم تنفست وقالت[٥]:

أقول لِأدنى صاحِبَيَّ أُسِره — وللعين دمع يُحْدِرُ الكحلَ ساكبُه
لعمرى لنهر باللِّوَى نازح القذى — بعيد النواحى غير طَرْقٍ مشاربه[٦]
أَحَبُّ الينا من صهاريج مُلِّئَتْ — لِلعب ولم تَمْلُحْ لدَىَّ مَلاعبه
فيا حبذا نجد وطيب ترابه — إذا هضبته بالعشىّ هواضبه[٧]

(١) بلاغات النساء ص ١٩٦ وحجر قرية نابهة من قرى اليمن (٢) الغرق موطن باليمن من مواطن همدان (٣) تصف ديار حجر وما يرتبط بأبوابها من الماشية أما فى البادية فليس الا النجائب من خيل وابل (٤) ابن حيان أبوها (٥) محاضرات الادباء ج ٢ ص ٢٧٧
(٦) اللوى ما التوى من الرمال والنازح القذى الصافى الذى لا يشوبه كدر والطرق الماء الذى خاضته الابل وبالت فيه (٧) هضبت السماء فاضت والهاضبة السحابة

وريح صبا نجـــدٍ إذا ما تنَسَّمت   ضحى أوشرت جُنْحَ الظلام جَنائبُه[١]
وأقسم لا أنساه ما دمت حيـة   وما دام ليل من نهـار يعاقبه
ولا زال هـذا القَطْرُ يُسْفِر لوعة   بذكراه حتى يترك المـاءَ شاربه

٣ — وقالت وجيهة بنت أوس الضبية[٢]:

وعاذلةٍ تغـــدُو علىَّ تلومنى   على الشوق لم تَمْحُ الصبابةمن قلبى[٣]
فما لى إن أحببت أرض عشيرتى   وأبغضت طَرْفاءَ القُصَيبة من ذنب[٤]
فلو أن ريحاً بلّغَت وَحْىَ مرسل   حَفِىٍّ لناجيتُ الجَنُوبَ على النقْب[٥]
فقلت لهـا أدى اليهم رسالتى   ولا تخلِطيها طال سَعدُك بالتُّرْب[٦]
فانى إذا هَبَّت شَمالاً سألتها   هل ازداد صَدَّاحُ النُّمَيرَة مِن قُرْب؟[٧]

البكاء

﴿ بكاء الأبناء ﴾

٤ — قالت أم تأبط شرا ترثى ولدها[٨]:

طاف يبغى نَجْوَةً   مِنْ هـــلاك فهلك
ليت شِعرى ضِلّةً   أىُّ شىء قتـلك
أمريض لم تُعَـد   أم عَـــدُوٌّ خَتَلَك

(١) الجنائب ريح تهب من مطلع سهيل — فى الجنوب — الى مطلع الثريا (٢) شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ١٨٧ (٣) الصبابة رقة الشوق (٤) الطرفاء صنوف من الشجر منها الأثل . والقصيبة الموطن الذى نزلت به (٥) الحفى المكثر من السؤال . والنقب الطريق بين الجبلين
(٦) طال سعدك جملة معترضة للدعاء للريح ولا تخلطيها بالترب أى لا تدليها أو لا تجرى عليها ذيولك فتنسيها
(٧) يظهر من مساق القول أن ريح الجنوب كانت تجتاز مغرهـا الذى هبطت اليه الى ديار عشيرتها . لذلك حملتها رسالتها وكانت للشمال تستقبلها من منازل قومها . ولذلك سألتها عما استعجم عليها من أخبارهم . والصداح من الصدح وهو اختلاط الصوت بعضه ببعض ولعـل النميرة ماء من مياه وطنها وتريد بالصداح ما يحدث حين يصدر القوم عن مشاربهم من اختلاط أصوات الرعاة بماشيتها (٨) شرح الحماسة للخطيب التبريزى ج ٢ ص ١٩١ — ١٩٢

أم تولَّى بك ما غال فى الدهر السُّلَك[1]
والمنايا رَصَد للفتى حيث سَلَك
أىُّ شىء حَسَنٍ لفتى لم يَكُ لك
كلُّ شىء قاتلٌ حين تَلْقَى أجلك
طال ما قد نِلتَ فى غيرِ كَدٍّ أمَلَك
إن أمراً فادحاً عن جوابى شَغَلَك
سأعَزِّى النفس إذ لم تجِبْ مَن سألك
ليت قلبى ساعةً صَبْرَهُ عنك مَلَك
ليت نفسى قُدِمَت للمنايا بَدَلَك

٥ — وقالت امرأة ترثى طفلها. وكانت قد سافرت به. فلما كانت ببعض الطريق فاضت نفسه[2]:

يا عَمرو ما لى عنك من صبرِ يا عمرو يا أسَفِى على عمرو
للهِ يا عمرُو وأىَّ فتى كَفَنْتُ يوم وضعت فى القبر
أحثو التراب على مَفَارقه وعلى غَضَارة وجهه النَّضْرِ
حين استوى وعلا الشباب به وبدا منير الوجه كالبدر
ورجا أقاربه منافعه ورأوا شمائل سيد غَمْرِ[3]
وأَهَمَّهُ هَمِّى فساوَرَه وغدا مع الغادين فى السَّفْرِ[4]
تغدو به شَقْراء ساميةٌ مَرَطَى الجزاء شديدة الأسرِ[5]

---

(١) السلك فرخ القطا أو الحجل وللثانى منها حرص شديد وحذق باخفاء نفسه اذا أبصر الخطر . على أن الموت يغلبه . لذلك تقول لولدها أن الموت الذى اغتال السلك فى جوه تفذ اليك في مأمنك

(٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٨ — ١٠ من هامش العقد الفريد (٣) الغمر الكريم الأصل الكريم الخلق (٤) أهمه الأمر شغله وحزنه وساوره أخذ برأسه والسفر الركب المسافر

(٥) تريد بالشقراء فرسه والشقرة فى الخيل حمرة فى لونه المضاف اليها المغرة — بضم الميم — وهى خضاب أحمر فى عرفه وذنبه والمرطى السريعة

ثَبْتُ الجنـــان به ويُقدِمُها ... فَلْجٌ يُقلِّبُ مقلتَىْ صَقرِ [١]

ربيتـــه دهراً افَنِقُه ... فى اليُسر أغذوه وفى العُسر [٢]

حتى اذا التأميـل أمكننى ... فيـــه قُبَيل تلاحق الثَّغْرِ [٣]

وجعلت من شغفى أُنقِلُهُ ... فى الأرض بين تنائفٍ غُبْرِ [٤]

أَدَعُ المزارع والحصون به ... وأُحِلُّهُ فى المَهْمَهِ القَفْرِ [٥]

ما زلْتُ أُصْعِدُهُ وأُحْدِرُه ... من قُتْرِ مَوْماة الى قُتْرِ [٦]

هرباً به والموت يطلبـــه ... حيث انتَوَيْتُ به ولا أدرى [٧]

حتى دُفِعتُ به لمصرعه ... سَوْق المعيز تساق للعَتْرِ [٨]

ما كان إلا أن هَجَعْتُ له ... ورمى فأغفَى مطلَعَ الفجر [٩]

ورمى الكرى رأسى ومال به ... رمس يُسَاور منه كالسكر [١٠]

إذ راعنى صوت هببت به ... وذُعِرْتُ منـــه أيَّما ذُعْرِ

وإذا منيَّتُـــه تُسَاوره ... قد كَدَّحت فى الوجه والنحر

وإذا له عُلَقٌ وحشرجة ... مما يَجِيش به من الصدر

والموت يقبِضُهُ ويبسُطه ... كالثوب عنـد الطى والنشر

---

(١) ثبت الجنان صفـة للفرس أى أنه ألهمها ثبات القلب فلا تضطرب فى سير ولا ترتاع من مخوفة ويقدمها أى يسبق بها والفلج الظفر والسبق وهو هنا على حذف مضاف أى ذو فلج تريد ولدها وانما شبهت عينيه بعيني الصقر لما يلوح عليهما من مخايل القوة والسيادة . أقول وكل هذه الآيات الخمسة مضافة الى حين أما متعلق الظرف فمحذوف والتقدير أموت حين تم لك كل ذلك

(٢) أفنقه أنعمه (٣) تلاحق الثغر اكتمال الأسنان (٤) التنائف جمع تنوفة — بفتح التاء — وهى الأرض الواسعة البعيـدة الأطراف أو الفلاة لا ماء فيها (٥) المهمة كالتنوفة والقفر الأرض التى لانبات فيها (٦) القتر الناحية أو الجانب والموماة الفلاة الواسعة (٧) انتويت أقمت (٨) العتر الذبح

(٩) الهجوع النوم الخفيف ومثله الأغفاء ورمى بمعنى ترامى أى تخاذلت أعضاؤه ومطلع الفجر ظرف للأفعال قبله تقول لم يكن الا ان أغفيت وأدركه الاعياء لدى مطلع الفجر فنام حتى حدث ما وصفته فى الأبيات التالية

(١٠) الرمس الصوت الخفى الذى لايكاد يبين

فدعا لأنصره وكنت له ... من قبل ذلك حاضر النصر
فعجزت عنه وهى زاهقة ... بين الوريد ومدفع السَّحْرِ
فمضى ! وأىَّ فتى فُجِعْتُ به ... جَلَّتْ مصيبته عن القدر
لو قيل تفديه بذلت له ... مالى وما جَمَّعت من وَفْرِ
أو كنت مقتدراً على عُمرى ... آثرته بالشَّطْرِ من عُمرى
قد كنت ذا فقر له فغدا ... ورَمى علىَّ وقد رأى فقرى
لو شاء ربى كان متعنى ... با بنى وشد بأزره أزرى
بُنِيَت عليك بُنَىَّ أحوجَ ما ... كنَّا اليك صفائحُ الصخر
لا يُبْعِدَنك الله يا عَمرى ... إمَّا مضيت فنحن بالإِثْر
هذى سبيل الناس كلهم ... لا بد سالِكُها على سَفْرِ
أوَ لا تراهم فى ديارهم ... يتواقعون وهم على ذعر
والموت يوردهم مواردهم ... قسراً فقد ذَلُّوا على القَسْرِ

٦ — وقالت أم بِسطام بن قيس الشيبانى ترثى ولدها بسطاما[1] :

لِيَبْكِ ابنَ ذى الجدين بكْرُ بن وائل ... فقد بان فيها زينها وجمالها
اذا ما غدا فيها غَدَوا وكأنهم ... نجوم سماء بينهن هلالها
فللّهِ عيناَ من رأى مثله فتى ... اذا الخيل يوم الرَّوع هَبَّ نزالها
عزيز مِكَرّ لا يُهَدُّ جناحه ... وليث اذا الفتيان زَلَّت نِعالها[2]

---

(١) ذيل ديوان الخنساء ص ١٢٠ — وكان بسطام من خير سادات العرب بيتاً وأعزهم قبيلاً وكان مضرب الأمثال فى قوة الباس وصدق اللقاء وقد ذكره ابن عبد ربه فى الصف الأول من أبطال العرب وقرن به ربيعة بن مكدم وعنترة الفوارس وزيد الخيل وأمثالهم وكان مقتله يوم الشقيقة (٢) المكر الذى يكر على خصمه بعد أن انثنى حيلة عنه

وحمال أثقال وعائذ مِجحَر تحل لديه كل ذاك رجالُها[١]
سيبكيك عَانٍ لم يجد من يفكه وتبكيك فرسان الوغى ورجالها
وتبكيك اسرى طالما قد فككتهم وأرملة ضاعت وضاع عيالها
مُفَرّجُ حومات الخطوب ومدرك الـ ـحروب اذا صالت وعز صيالُها
تَغَشى بها حينا كذاك ففجعت تميم بها أرماحها ونبالها
فقد ظفرت منا تميم بعثرة وتلك لعمرى عثرة لا تُقَالُها[٢]

٧ — وقالت أم قيس الضّبية ترثى ولدها[٣]

من للخصوم اذا طال الضّجاجُ بهم بعد ابن سعد ومن للضُمَّر القُودِ[٤]
ومَشْهَدٍ قد كَفَيتَ الغائبين به فى مجمع من نواصى القوم مشهود[٥]
فرجته بلسان غير ملتبسٍ عِند الحِفاظِ وقاب غير مزؤود[٦]
اذا قناة امرىء أزرى بها خورٌ هزَّ ابن سعد قناةً صُلْبة العود

٨ — وحدثوا أن رسول الله أرسل خالد بن الوليد ليحطم وُدًّا فقام بنو عبدوُد يدرأون عنه ، فضرب خالد فتى من فتيانهم فقتله . حتى اذا علمت أمه حديثه أقبلت اليه والقوم على أهبة أن يدفنوه فقالت :

يا قَرحة القلب والاحشاء والكبد يا ليت أمك لم تولد ولم تلد
لما رأيتك قد أدرجت فى كفن مطيباً للمنايا آخر الأبد
أيقنت بعدك انى غير باقية وكيف يبقى ذراع زال عن عضد[٧]

ثم أكبت عليه فزفرت زفرة كان فيها موتها فدفنا معاً

---

(١) المجحر اللاجىء تريد أنه يعوذ كل من يتحرم بساحته (٢) تقالها من الاقالة أى ليست من العثرات التى ينهض منها (٣) شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ٥١ (٤) جد الضجاج أى صار ضجاجهم جداً والضمر جمع ضامر والقود الطوال الأعناق (٥) نواصى القوم أشرافهم (٦) المنتبس المفقود المزؤود المذعور (٧) العقد الفريد ج ٢ ص ١٨

بكاء الآباء

٩ — قالت دَختنوس ابنة لقيط بن زرارة ترثى أباها[١] :

عثر الأغرُّ بخير خِنْــــدِفَ كهلِها وشبابها[٢]
وأضَرِّها بعدوها ... وأفكِّها لرقابها
وقريعها ونجيبها ... فى المُطْبِقات ونابها[٣]
ورئيسها عند الملو ... ك وزين يوم خطابها
وأتمها نسباً اذا ... رجعت الى أنسابها
يرعى عموداً للعشيــــرة رافعاً لِنصَابها[٤]
ويعولها ويحوطها ... ويَذِبُّ عن أحسابها
ويطأُ مواطن للعد ... وِّ وكان لا يُمشى بها
فِعلَ المُدِلَّ من الأسو ... د لِحَينها وتَبَابِها[٥]
كالكوكب الدُّرىّ فى ... سيماء لا يخفى بها[٦]
عبث الأغر به وكلُّ ... منية لكتابها
فرت بنو أسد فرا ... ر الطير عن أربابها
لم يحفظوا حسباً ولم ... يأووا لغى عقابها
عن خيرها نسباً اذا ... نصت الى أنسابها
وهوازى أصحابهم ... كالفأر فى أذنابها

---

(١) الأغانى خ ١٠ ص ٣٩ والكامل لابن الأثير خ ١ ص ٢٤٤ وكان لقيط فى الذروة والسنام من سعة الجاه وعز العشيرة • وكان مقتله يوم شعب جبلة بين عبس وذبيان وهو من أعظم أيام العرب وأنبهها وليس هناك ما يشبهه فى كثرة ما حشد فيه من القبائل الا يوم ذى قار ويوم كلاب (٢) الأغرّ من الخيل ما علا البياض جبهته (٣) القريع كالمقروع السيد والمطبقات النوائب الشداد والناب سيد القوم (٤) يرعى عمود العشيرة أى يحمى حماها • والنصاب الأصل (٥) المدل من السباع والطير الذى يفترس صيده من حيث لا يعلم والضمير فى حينها عائد على مواطن العدو (٦) السيماء العلامة

١٠ — وقالت هند بنت عتبة تبكى أباها عتبة بن ربيعة[١] :

يريب علينـــا دهرنا فيسوءنا ... ويأبى فمـــا نأتى بشىء نغالبه
أبعد قتيل من لؤى بن غالب ... يراع امرؤ أن مات أو مات صاحبه
ألا رب يوم قد رُزئت مُرَزَّأً ... تَرُوح وتغدو بالجزيل مواهبه[٢]
فأبلغ أبا سفيـان عنى مألُـكا ... فان ألقه يوماً فسوف أعاتبه[٣]
فقد كان حرب يسعر الحرب أنه ... لكل امرئ فى الناس مولى يطالبه

١١ — وقالت أيضاً تبكى آلها[٤] :

لله عينـــاً من رأى ... هُلْكا كهلك رجاليه
يارُبَّ باك لى غـداً ... فى النائبـات وباكيه
كم غادروا يوم القليـــب غداة تلك الداعيه[٥]
من كل غيث فى السنيـــن إذ الكواكب خاويه
قد كنت أحذر ما أرى ... فاليوم حق حذاريه
يا رُبَّ قائلة غـــداً ... يا ويح أم معـــاويه

١٢ — وقالت قُتَيْلَة بنت النضر بن الحارث تبكى أباها . وكان قد أسر فيمن أسر من مشركى بدر. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب عنقه صبراً بين يديه ، لِلجاجه فى عدائه ، وامعانه فى هجائه[٦] :

يا راكباً إن الأُثَيْلَ مَظِنَّةٌ ... من صبح خامسة وأنت موفق[٧]

---

(١) سيرة بن هشام ج ١ ص ٥٣٦ — ٥٣٧ وكان عتبه من آحاد قريش شرفاً ونبلا ومنصباً وهو الذى استنفر قريشاً الى بدر لاستنقاذ أبى سفيان وكان هناك مقتله (٢) المرزأ الكريم

(٣) المألك الرسالة وأبو سفيان زوجها وكان قد أرسل الى قريش يستعديهم على رسول الله وكان ذلك سبيل مأساتهم فى بدر (٤) سيرة بن هشام ج ١ ص ٥٣٧ (٥) القليب البئر وتريد يوم القليب يوم بدر (٦) حماسة البحترى ص ٢٧٦ (٧) الأثيل واد قرب المدينة به تتل النضر والمظنة الوضع تقول أيها الراكب بينك وبين الأثيل خمس ليال اذا لم تحد عن الطريق

أبلغ به مَيْتاً فان تحيـــــة ما أن تزال بها الركائب تَخْفِقُ
منى اليك وعَـــبرةً مسفوحة جادت بوابلهـــا وأخرى تخنُقُ
هل يسمعَنَّ النضر إن ناديته بل كيف يسمع مَيِّتٌ أو ينطق
ظلّت سيوف بنى أبيه تنوشه لله أرحام هنـــاك تمزَّق[١]
قسراً يقـــاد إلى المنيه متعباً رَسْف المُقَيَّد وهو عانٍ مُوثَقُ
أمحمد ولأنت صنو نجيبـــة من قومها والفحل فحل مُعْرِق[٢]
ما كان ضَرَّكَ لو مننت وربما مَنَّ الفتى وهو المَغِيظ المُحْنَقُ
فالنضر أقرب من أصبت وسيلة وأحقهم إن كان عتق يُعتَقُ
لو كنت قابل فدية لفديته بأعزّ ما يُفْدَى به من يَنفُق

قال ابن هشام : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لما بلغه هذا الشعر : لو بلغنى قبل قتله ما قتلته .

١٣ — وقالت أروى بنت الحُبَاب[٣] :

قُلْ للأرامل واليتامى قد ثوى فلتبَكِ أعينهـــا لفقد حُبَاب
أودَى ابنُ كل مخاطر بتِلاَده وبنفسه بُقْيـــا على الأحساب
الراكبين من الأمور صدورها لا يركبون مَعـــاقد الأذناب

١٤ — وقالت امرأة[٤] :

ألا فاقصرى عن دمع عينك لن تَرَىْ أباً مثله تَنمى اليه المفـــاخر
وقد علم الأقوام أن بنـــاته صوادق إذ ينـــدبنه وقواصر

---

(١) تريد ببنى أبيه آل رسول الله والنضر يلتقى برسول الله فى قصى وتنوشه أى تطلبه والمشار اليه فى هناك بدر ففيه مزقت أرحام قريش (٢) حماسة البحترى ص ٢٧٥ (٣) حماسة أبى تمام ج ٢ ص ٢٠١

١٥ — وقالت ابنة مالك بن بدر[1] :

لله عينــــا من رأى مثل مالك   عَقِيرةَ قوم أن جَرَى فرسان
فليتهمـــا لم يشربا قط قطرة   وليتهمـــا لم يجريا لرهان
أَحَدَّ به أمسِ الْجُنَيْدِبُ نَذْرَه   فأى قتيل كان فى غَطَفان[2] .
إذا سجعت بالرقتين حمـــامة   أو الرس فابكى فارس الكَتِفان[3]

١٦ — وقالت صبية ، ماتت أمها ، فأضرت بها امرأة أبيها[4] :

فلو يأتى رسولى أمَّ سعد   أتى أمى ومن يَعنيه حاجى[5]
ولكن قد أتى مَنْ بين وُدّى   وبين فؤاده غَلَقُ الرِّتاج[6]
ومن لم يؤذه ألم برأسى   وما الرئمـــانُ الا بالنتاج[7] .

بكاء الاخوة

١٧ — قالت فارعة ابنة شداد ، تبكى أخاها مسعود بن شـــداد وذلك من قصيدة ضافية[8] :

يا عينُ بكّى لمسعود بن شداد   بكاء ذى عــبراتٍ شجوُه باد
من لا يُذَاب له شحم السَّدِيف ولا   يجفو العيال إذا ما ضُنَّ بالزاد[9]

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٢٩ — ٣٠ — ومالك بن بدر — أخو حذيفة بن بدر — قتل فى أيام داحس والغبراء وكان قد أضل ابلا له فخرج يبغيها فلقيه رجل من بنى رواحة يدعى جندبا فرماه بسهم فقتله وقد نسب الميدانى بعض هذه الأبيات الى عنترة ونسب لسان العرب بعضها الى بنت مالك بن زيد

(٢) الجنيدب تصغير جندب وهو قاتل أبيها (٣) الكتفان فرس أبيها (٤) شرح ديوان الحماسة ج ٢ ص ٢٠١ (٥) أم سعد أمها ومن يعنيه حاجى أى من تهمه حاجاتى (٦) تعنى بهذا البيت امرأة أبيها أى قد أتى رسولى من لا يصل ودى الى قلبه لانغلاق باب مودته على والرتاج الباب

(٧) الرئمان العطف والنتاج الولادة أى أن المرأة لا تعطف الا على من تلد (٨) أمالى القالى ج ٢ ص ٣٢٨ — ٣٢٩ (٩) السديف شحم السنام وهو أجود شحم البعير أى لا يستأثر به دون ضيفه وعياله

ولا يَحُلُّ إذا ما حَلَّ منتبِـذاً ... يخشى الرزية بين المالِ والنادى[1]

قَوّال مُحْكَمة نقّاضُ مُبْرَمة ... فَرّاج مُبْهَمة حَبّاسُ أوراد

نحّارُ راغيــة قَتّال طاغية ... حَلّال رابيــة فكّاك أَقْياد[2]

حلال مُمْرِعة حمال مضلعة ... فراج مُقْظِعة طلاع أنجاد

شهاد أندية رفاع أبنيــة ... شداد ألوية فتــاح أسداد

جماع كل خصال الخير قد علموا ... زين القرين ونِكْلُ الظالم العادى

أبا زُرَارَةَ لا تبعــد فكل فتى ... يوماً رهين صفيحات وأعواد

هلا سقيتم بنى جَرم أسيركم ... نفسى فداؤك من ذى كربة صاد

١٨ — وقالت هند بنت عتبة، تبكى أخاها وأسرتها، وقد ذهبت بهم الحرب يوم بدر:[3]

من حَسَّ لى الأخوين كالــــغصنين أو من رآهُمَا

قَرْمان لا يتظالمــا ... ن ولا يرام حِمَاهما[4]

وَيْـلِى على أبوىَّ والــقبر الذى واراهما

لا مثل كهلى فى الكهو ... ل ولا فتى كفتاهما

أسدان لا يتــذللا ... ن ولا يرام حماهما

رُمْحين خَطِّيَيْنِ فى ... كبد السماء تراهما[5]

ما خلفــا إذ ودعا ... فى سؤدد شَرْوَاهما[6]

سادا بغــير تكلف ... عَفْواً بفيض نداهما

(١) المنتبذ المتنحى المنفرد أى أنه لا ينتبذ عن قومه مكاناً قصياً خشية أن يطرقه ضيف فى بيته أو نادى قومه (٢) الراغية الناقة والرابية المرتفع من الأرض وانما يحل بها الكريم حتى يرى الساري ناره فيقبلون اليه (٣) الأغانى ج ٤ ص ٣٣ — ٣٤ (٤) القرم الفحل الذى يكرم عن المهنة ومنه استعير للسيد الكريم (٥) الرمح الخطى منسوب الى الخط وهو مرفأ السفن بالبحرين ترد اليه سيوف الهند ورماحها وليست بمنبت للرماح ولا بمصنع لها (٦) شروى الشىء مثله

١٩ — وقالت ليلى بنت سلمى[١] :

أقول لنفسى فى خفاء ألومها ... لك الويل ما هذا التجلد والصبر
ألا تفهمين الْخُبْرَ أن لست لاقياً ... أخى إذ أتى من دون أكفانه القبر
وكنت أرى بيناً به بعضَ ليلة ... فكيف ببين دون ميعاده الحشر
وهَوَّن وجدى أنى سوف أغتدى ... على إثره يوماً وان طال بى العمر
فتى كان يعطى السيف فى الرَّوع حقه ... إذا ثَوَّب الداعى وتشقى به الجُزْر[٢]
فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... إذا ما هو استغنى ، ويبعده الفقر
فتى لا يَعُدُّ المال رَبًّا ولا تُرَى ... له جفوة ان نال مالاً ولا كبر
فنعم مُنَاخ الرَّكب كان إذا انبرت ... شَمالٌ وأمست لا يُعَرِّجها سِتْرُ
ومأوى اليتامى المحلين إذا انتهوا ... إلى بابه شُعثاً وقد قحِط القَطْرُ

٢٠ — وقالت الخنساء ترثى أخاها معاوية[٣] :

أَريقى من دموعك واستفيقى ... وصبراً ان أطقتِ ولن تطيقى
وقولى ان خير بنى سُلَيْم ... وفارسها بصحراء العقيق
ألا هل تَرجعن لنا الليالى ... وأيام لنا بِلِوَى الشقيق
وإذ نحن الفوارس كل يوم ... إذا حضروا وفتيان الحقوق
وإذ فينا معاوية بن عمرو ... على أدماء كالجمل الفنيق[٤]
فبكيه فقد أودى حميداً ... أمين الرأى محمود الصديق
فلا والله لا تسلاك نفسى ... لفاحشة أتيت ولا عقوق
ولكنى رأيت الصبر خيراً ... من النعلين والرأس الحليق

(١) حماسة البحترى ص ٢٧٤ (٢) ثوب الداعى أشار بثوبه وكانت عادة الخائف المستجير أن يصعد مرتق عالياً ويشير بثوبه وينادى يا لفلان فيجيبه والجزر جمع جزور وهى الناقة
(٣) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٦٢ — ٢٦٣
(٤) الأدماء من الابل والخيل • المشربة سواداً أو بياضاً والجمل الفنيق الذى لا يؤذى لكرامته على أهله

بكاء الأزواج

٢١ — قالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية ، تبكى زوجها[١] :

يا عين بَكّى عنـد كل صباح	جودى بأربعة على الجراح[٢]
قد كنت لى جبـلاً ألوذ بظله	فتركتنى أضحى بأجرد ضاح[٣]
قد كنت ذات حَمِية ما عشت لى	أمشى البَرَاز وكنت أنت جناحى[٤]
فاليوم أخضع للذليـــل وأتقى	منـــه وأدفع عاذلى بالراح
وإذا دعت قُمْرية شَجَناً لهـا	يوماً على فَنَنٍ دعوت صباحى[٥]

٢٢ — وقالت الهيفاء بنت صبح القُضَاعية[٦] :

أَبكى وأُبكى بإسفار وإظلام	على فتى تغلبىّ الأصل ضرغام
لهفى عليـه وما لهفى بنافعةٍ	إلا تكافُحُ فُرسان وأقوام
قل للحُجَيب لحاكَ الله من رجل	حُمِّلت عار جميع الناس من سام
أيقتل ابنُكَ بعلِى يا ابن فاطمة	ويشرب الماء؟ ذا أضغاث أحلام
والله لازلت أبكيه وأندبه	حتى تزورك أخوالى وأعمامى
بكل أسمر لَدْنِ الكف معتدل	وكل أبيض صافى الحد قَمْقام[٧]

---

(١) شرح ديوان الحماسة ج ٢ ص ١٨٨ —- ١٩٠ وكانت فاطمة من أكمل قومها أدباً وأجراهم لساناً وأبوها الاحجم بن دندنة الخزاعى سيد من سادات قومه وهو زوج خالدة بنت هاشم بن عبد المطلب

(٢) تريد بالأربعة الموقين واللحاظين والعرب تزعم أن الدمع يجرى من الموق فاذا جد البكاء واشتد فاض من اللحاظ أيضا

(٣) الأجرد الأملس والضاحى البارز للشمس تريد ان سترها قد انكشف عنها

(٤) البراز الفضاء من الأرض لا يستره شيء

(٥) تريد بدعوة الصباح انها تقول — اذا سمعت تغريد الطير فى الصباح — وأسوء صباحاه

(٦) ذيل ديوان الخنساء ص ١٩١

(٧) تريد بالأسمر الرمح واللدن اللين من كل شيء والأبيض السيف والقمقام العظيم

٢٣ — وقالت امرأة من طَيّئ[1] :

تأوّب عينى نُصْبها واكتئابها ورجيت نفسارات عنها ايابها[2]

أُعلل نفسى بالمرجَّم غيبُـــهُ وكاذبتها حتى أبان كِذَابها[3]

أَلَهْفِى عليك ابن الأشَدّ لبهمة أفرّ الكُماةَ طعنها وضِرابها[4]

متى يَدعُهُ الداعى اليـه فانه سميع إذا الآذان صَمَّ جوابها

هو الأبيض الوضاح لو رميت به ضواح من الرَّيان زال هضابها[5]

٢٤ — وقال خِرْنِق بنت بدر بن هفان، تبكى زوجها بشرا، وتذكر من أصيبوا معه يوم قُلاب[6] :

أَلا أقسمت آسَى بعد بشر على حىّ يموت ولا صديق[7]

وبعـد الخير علقمة بن بشر إذا نَزَت النفوس إلى الحلوق[8]

وبعد بنى ضُبَيعة حول بشر كما مال الجزوع من الحريق

مُنِى لهم بوالبة المنـــــايا بجنب قُلاب للحَين المَسُوق[9]

فكم بقُلاَبَ من أوصال خِرق أخى ثقـــة وجُمْجُمة فليق[10]

ندامى للمـــلوك إذا لقوهم حُبُوا وسُقُوا بكأسهم الرحيق

هُمُ جدعوا الأنوف وأوعبوها فما ينساغ لى من بَعدُ ريق[11]

---

(١) شرح ديوان الحماسة ج ٢ ص ٧١ (٢) أصل التأويب سير النهار كله حتى يتصل بالليل والنصب من أنصبه الحزن اذا أثر فيه وراث الشىء أبطأ تقول ان حزنها لا ينقطع وان النفس التى عقدت بها وجاءها أبطأ بها الاياب (٣) تريد بالمرجم أى الذى يظن به الظنون يقال رجم الرجل بالغيب اذا تكلم بما لا يعلم (٤) البهمة الخطة الشديدة وتريد بها الحرب وأفر الكماة طعنها أى حملهم على الفرار

(٥) تريد بالأبيض الوضاح الخالص النسب الصافى الخلال . والريان جبل ببلاد طيىء والضواحى النواحى

(٦) ديوان خرنق نسخة خطية بدار الكتب المصرية — والخرنق بنت بدر بن هفان أخت طرفة ابن العبد البكرى لامه ومكانها من شواعر النساء كمكان أخيها من الشعراء وأكثر شعرها فى رثاء زوجها بشر بن عمرو سيد بنى مرثد لما قتله بنو أسد يوم قلاب (٧) آسى من الأسى وهو الحزن (٨) نزت النفوس علت وذلك كناية عن شدة الكرب ومثله قول الله جلت آيته « وبلغت القلوب الحناجر »

(٩) والبة شعبة من بنى أسد وقلاب جبل بديارهم دارت دونه الحرب بينهم وبين بشر فكانت الغلبة لهم

(١٠) الخرق الجواد الكثير الجود (١١) جدع الأنف قطعه وأوعبه استأصله

وبيضٍ قد قَعَدْن وكل كُحل ... بأعينهن أَصبح لا يليق[١]
أضاع قدورهن مصاب بشر ... وطعنــة فاتك فتى تفيق[٢]

بكاء العشيرة

٢٥ — قالت رَيطة بنت عاصم[٣] :

وقفت فأبكتنى بدار عشيرتى ... على رُزئهن الباكياتُ الْحوَاسرُ
غدوا كسيوف الهند وُرَّاد حومة ... من الموت أعيا وردَهن المَصادر
فوارس حاموا عن حريمى وحافظوا ... بدار المنايا والقنـــا متشاجر
ولو أن سلمى نالها مثل رُزْئنا ... لهُدّت ولكن تحمل الرزء عامر[٤]

٦٦ — وقالت خرِنِق :

لا يَبعَدَن قومى الذين همُ ... سم العُدَاة وآفــة الْجُزُر
النازلين بكل معــتَرَك ... والطيبون معاقــد الأُزُر[٥]
الضاربون بحومـــة نزلت ... والطاعنون بأذرع شُــعُر[٦]
أن يشربوا يهبوا وإن يذروا ... يتواعظوا عن منطق الهُجر
قوم اذا ركبوا سمعت لهم ... لَغطًا من التأييـــه والزجر[٧]
من غير ما فُحشٍ يكون بهم ... فى مُنتَج المُهُرَات والمهـــر
هــذا ثنائى ما بقيت لهم ... فإذا هلكت أجَنَّنى قـــبرى

---

(١) لا يليق أى لا يبق تقول أن فتيات الحى أصبحن لا يبقين على بقية من الكحل لكثرة ما يبكين
(٢) فى هذين البيتين اقواء وهو مخالفة شكل القافية لما دونها من القوافى
(٣) شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ٦٩ — ٧٠ (٤) سلمى أحد جبل طيء
(٥) الأزر جمع أزار وطيب معاقدها كناية عن عفة ذويها (٦) الأذرع الشعر — جمع أشعر — الطويلة الشعر وذلك أقوى لها (٧) التأييه زجر الخيل والصياح بها يريد أنهم لا يتفاحشون فى نخرهم اذا نتجت خيلهم وذلك خير مظاهر الثروة عندهم

٢٧ — وقالت أمامة بنت ذى الأصبع العَدوانى تبكى قومها :

كم من فتى كانت له مَنْعَةٌ   أبلجَ مثــل القمر الزاهر
قد مرت الخيــل بحافاتهم   مر الحيا بالجبل العـاطر[١]
قد لقيت فَهْم وعَدوانها   قتلاً وهلكا آخر الغـابر
كانوا ملوكاً سادة فى الورى   دهراً لها الفخر على الفاخر
حتى تَساقَوْا كأسهم بينهم   بغياً فيـا للشارب الخاسر
بادوا فمن يحلل بأوطانهم   يحلل برسم مقفـــر داثر

فى الفخر

٢٨ — قالت عاتكة بنت عبد المطلب تفخر بيوم عكاظ[٢] :

سائل بنا فى قومنــــا   وكفاك من شر سَماعُه
قيساً وما جمعوا لنــــا   فى مجمع باق شناعُـــه
فيـــــه السنَوَّر والقنا   والكَبْش ملْتَمِعٌ قِناعُه[٣]
بعكاظ يعشى الناظريــــن إذا هم لمحوا شعاعُه[٤]
فيـــــه قتلنا مالـكاً   قَسْراً وأسلمه رَعاعُـــه
ومجــــــدَّلاً غادرنه   بالقاع تنهشه ضباعـــه

٢٩ — وقالت الخنساء تفتخر وتذم الزمان :

تعرّقنى الدهـــر نَهْسَا وحَزّا   وأوجعنى الدهر قَرْعاً وغمزا[٥]
وأفنى رجالى فبــادوا جميعاً   فغُودر قلبي بهم مستَفَزّا[٦]

---

(١) الحافات الجوانب والحيا المطر . (٢) شرح ديوان الحماسة ج ٢ ص ١٢٠
(٣) السنور الدروع أو جملة السلاح وقناع الفارس بيضته   (٤) الباء فى بعكاظ متعلقة بقولها فى مجمع ويجوز أن تكون متعلقة بتلمع ويعشى الناظرين أى يخطف أبصاهم
(٥) تعرقها أى أكلها حتى ذهب بلحمها والنهس أخذ اللحم بتقدم الاسنان والحز القطع
(٦) مستفزاً من استفزه أى أخرجه عن موطنه

كأن لم يكونوا حِمًى يُتّقى إذ الناس إذ ذاك من عزبزا[١]

وهم فى القديم أساة العَدِيـــم والكائنون من الخوف حِرْزا

وهم منعـــوا جارهم والنسا ء يَحْفِزِ أحشاءها الخوف حَفْزا[٢]

غـــداةَ لَقُوهم بملمومة رَدَاح تغادر فى الأرض رِكْزا[٣]

بِبيض الصِّفاح وسُمر الرماح فبالبيض ضربًا وبالسُّمْر وخزا

وخيـــل تكَدَّسُ بالدارعيـــن تحت العَجاجة يجْمِزْن جَمْزا[٤]

جَزَزنا نواصيَ فرسانهـــا وكانوا يظنون ألاّ تُجزّا[٥]

ومن ظن ممن يلاقى الحروب بأن لا يُصَاب فقد ظن عجزا

نَعِفُّ ونعرف حق القِـــرَى ونتخذ الحمد ذخراً وكنزا

ونلبس فى الحرب نسج الحديد ونسحب فى السلم خزّا وقزّا

٣٠ — وقالت الهيفاء بنت صبح القضاعية تفخر بأبيها[٦] :

الخيل تعلم يوم الرَّوع ان هُزمت أن ابن عمرو لدى الهيجاء يحميها

لم يُبدِ فُحْشاً ولم يُهدَد لمُعظَمة وكلُّ مَكرُمة يلقى يُسَاميها[٧]

المستشار لأمر القوم يحزبهم إذ الهَنَاة أهمَّ القوم ما فيها[٨]

لا يَرْهَب الجـارمنه غدرة أبداً وان ألَمّت أمور فهو كافيها

٣١ — وقالت خرنق بنت بدر، تفخر بزوجها بشر بن عمرو وصحابته[٩] :

لقد علمت جَدِيلة أن بشراً غـدا مُرَبِّج مُرُّ التقاضى

---

(١) من عزبز مثل من أمثال العرب أى من غلب سلب يقال بزه ثوبه اذا سلبه اياه (٢) الحفز الطعن (٣) الملمومة وصف لموصوف محذوف أى كتيبة ململومة والرداح من الكتائب الثقيلة الجرارة (٤) التكدس السرعة فى المشى والعجاجة الغبار والجمز الاسراع حتى يكون عدواً (٥) كانت العرب تجز نواصى من تطلقه من الاسرى (٦) ذيل ديوان الخنساء ص ١٩١ (٧) المعظمة كالعظيمة النازلة ويساميها أى يسمو اليها (٨) حزبه الأمر نابه واشتد عليه والهنات جمع هنه ويكنى بها عن المنكرات (٩) ديوان خرنق

غداة أتاهم بالخيـــل شُعثاً ... يدق نسورها حد القِضَاض[١]
عليهـا كل أصيد تغلبيٌّ ... كريم مُرَكَّب الحدين ماض[٢]
بأيديهم صوارم مرهفـات ... جَلاها القَين خالصة البياض
وكل مثقف بالكف لَدْن ... وسابغة من الحَلَقَ المُفَاض
فغـــادر مَعقِلاً وأخاه حِصْنا ... عفير الوجه ليس بذى انتهاض

فى اللوم والاغراء

٣٢ — قالت امرأة من كندة[٣] :

لا تخبروا الناس إلا أن سيدكم ... أسلمتوه ولو قاتلتمو امتنعا
أنْعَى فتى لم تذر الشمس طالعة ... يوماً من الدهر إلَّا ضرَّ أو نفعا

٣٣ — وقالت بنت حُكَيم بن عمرو العَبْدِية[٤] :

أيرجو ربيع أن يؤوب وقد ثوى ... حُكَيمٌ وأمسى شِلْوُه بمُطَبَّقِ[٥]
فان كنتم قوماً كراماً فعجلوا ... له جُرْأَةً من بأسكم ذات مِصدَق
فان لم تنالوا نيلكم بسيوفكم ... فكونوا نساء فى الملاءِ المُخَلَّق[٦]
وقولوا ربيع ربكم فاسجدوا له ... فما أنتم إلا كمعزى الحبلق[٧]

---

(١) النسور بواطن حوافر الخيل والقضاض الحصى الصغار (٢) الأصيد الذى يميل بعنقه كبراً
(٣) شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ١٧ (٤) حماسة البحترى ص ٣١ (٥) الشلو العضو
(٦) الملاء جمع ملاءة والمخلق المضمخ بالطيب والزعفران (٧) الحبلق غنم صغار لا تكبر أو قصار المعز ودمامها

٣٤ — وقالت كبشة بنت معد يكرب ، تعير أخاها عمراً لقعوده عن ثار أخيه عبد الله[١]

وأرسل عبد الله اذ حان يومه ... إلى قومه لا تعقلوا لهم دمى[٢]
ولا تأخذوا منهم إفالًا وأبكراً ... واترك فى بيت بصُعدة مظلم[٣]
ودع عنك عمراً ان عمراً مسالم ... وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم
فان أنتمُ لم تثأروا واتَّديتمُ ... فمشوا بآذان النعام المُصَلَّم[٤]
ولا تردوا الا فضول نسائكم ... إذا ارتملت أعقابهم من الدم[٥]

٣٥ — وقالت امرأة من غامِد فى هزيمة ربيعة بن مكدم لجمع من قومها :

ألا هل أتاها على نأيِها ... بما فضحت قومَها غامِدُ
تمنيتم مائتى فارس ... فردكم فارس واحـد
فليت لنا بارتباط الخيو ... ل ضأنا لها حالب قاعد

نساء يصفن أنفسهن

٣٦ — حَدَّث الأصمعى قال[٦] :

كان أعرابى عنده أربع نسوة ، كندية ، وغسانية ، وشَيبانيـة ، وغَنَوِية ، والأعرابى غسانى . وكن متظاهرات على الغَنَوِية . فجمع بينهن ثم قال : لِتَقُلْ

(١) شرح ديوان الحماسة ج ٢ ص ١١٧ (٢) لم يقل عبد الله شيئاً من ذلك وانما تخيلته لتبلغ من نفوس أخيها وقومها والعقل اعطاء الدية والرضا بها (٣) الأفال جمع أفيل وهو الذى أنت عليه سبعة أشهر أو ثمانية من أولاد الابل واختصت الافال والأبكر بالذكر لتحقير شان الدية وصعدة مخلاف من مخاليف اليمن وانما قالت مظلم لأن العرب تزعم أن الميت اذا أخذوا بثأره أضاء قبره وإلا بقى مظلما
(٤) اتديتم أى قبلتم الدية والمصلم المجدوع وتلك كناية عن الجبن والذل (٥) يقال ارتمل اذا تلطخ بالدم وكان من عادتهم اذا وردوا الماء أن يكون النساء آخر من يرد حتى يشربن ويغلسن أنفسهن وثيابهن آمنات مما يزعجهن فمن تأخر حتى تصدر النساء فهو الغاية فى الذل
(٦) بلاغات النساء ص ١٥١ — ١٥٢

كل واحدة منكن قولاً تصف به نفسها . فقالت الكندية :

كأنى جَنَى النحل والزنجبيل وصَفْوُ المـدامة والسلسبيل
يزين سـنا الوجه لى مَبْسِمٌ كمثل اللآلى وعين كحيل

وقالت الغسانية :

براني إلهى إله السما نصفاً قضيبا ونصفا كثيبا
وألبسنى ما يسوء الحسود جمالاً ومِلْحا وحسنا عجيبا[1]

وقالت الشيبانية :

أفوق النساء إذا ما اجتمعـــن كبدر السماء نجوم الدجى[2]
ويقصر عنى جميع الصفات فمن نالنى نال فوق المنى

وقالت الغنوية :

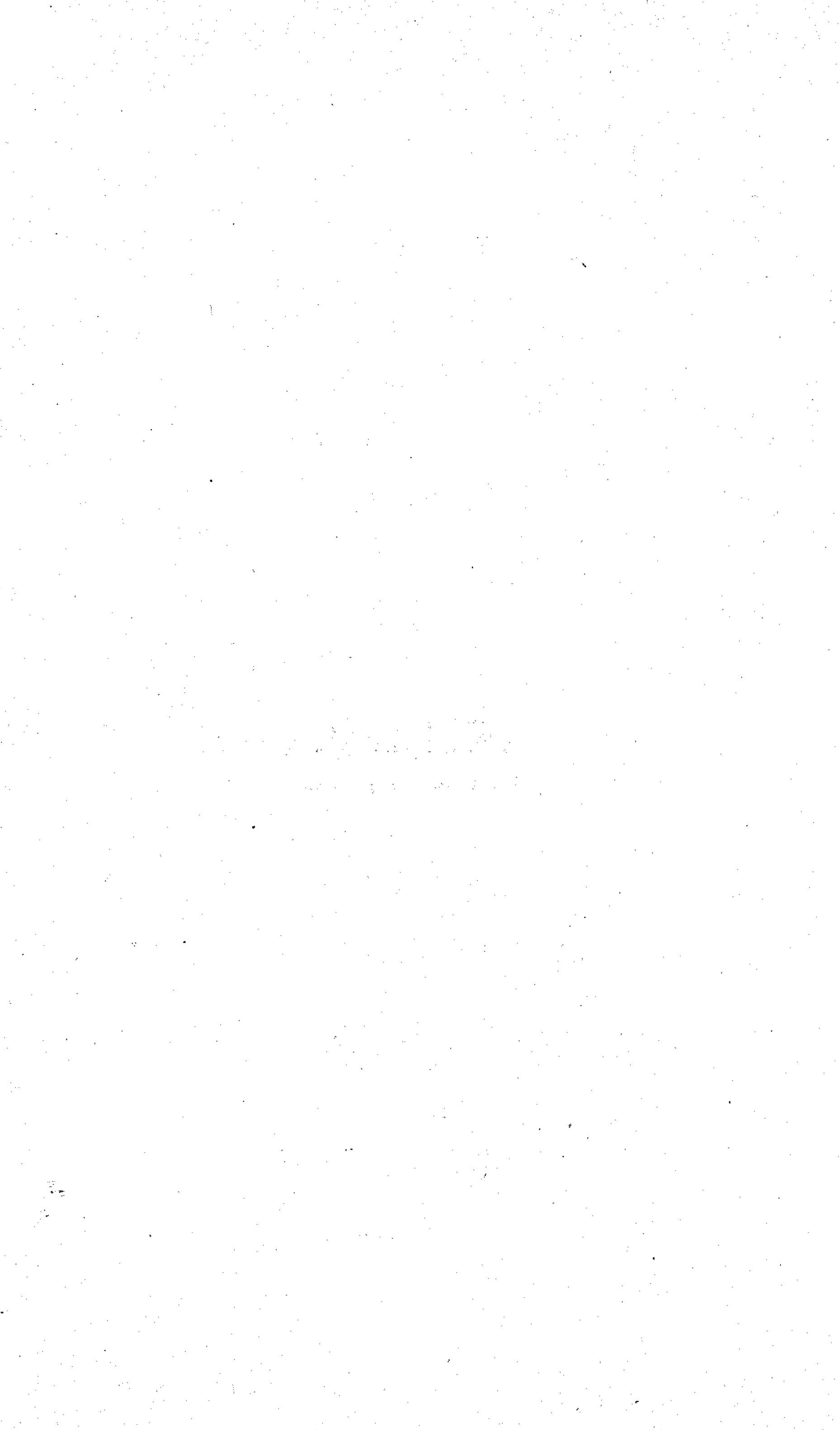
تزود بعينك من بهجتى فقد خلق الله منى الجمالا
إذا ما تفرست فى رؤيتى رأيت هلالاً وأحوى غزالا[3]

---

(١) الملح الملاحة (٢) أى كما يغرق بدر السماء نجوم الدجى (٣) الأحول الأسمر الشفتين

فهـــرس

الجزء الأول من المرأة العربية



دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه